

دراسات منهجية هادفة

حول الأصول الثلاثة:

الله، الرسول، الإسلام

الرسول
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
برهانه

الجزء الثاني

«سترى في هذا البحث ، بالدليل والبرهان ان
محمداً رسول الله حقاً ، وأن محمداً أعظم الناس في
كل شيء ، وأن الذين يتخذون غيره قدوة حمقى
وناقصون ..»

بقلم

سعيد رحوى
برهانه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الفهرس

الصفحة

٥	الفصل الثاني : المعجزات
٦	الفقرة الأولى : المعجزة القرآنية
١٥	المثال الأول : سورة (ق)
١٩	المثال الثاني : سورة الواقعة
٢١	المثال الثالث : سورة الأنبياء
٣٠	وحدة القرآن المنتظمة المترابطة
٣٨	خصائص القرآن (ربانية المصدر)
٥٠	كلام القرآن الكريم عن الماضي والمستقبل
٦١	صحة القرآن الكريم وتحريف الكتب السابقة
٧١	لغة القرآن الكريم وأساوبه
٨٤	الفقرة الثانية : معجزات أخرى
١١٧	تعقيب
١٢١	الفصل الثالث : النبوءات
١٤٣	الفصل الرابع : الثمرات
١٤٤	أولاً : التوحيد
١٤٦	أ - عند العرب
١٤٧	ب - عند الهنود
١٤٧	ج - الفرس
١٥١	ثانياً : التبشير باليوم الآخر وطلب النجاة فيه...

١٦٨	ثالثاً : انسانية واحاة كريمة
١٦٨	١ - في الهند
١٧٠	٢ - في فارس
١٧١	٣ - اليونان والرومان
١٧١	٤ - في ألمانيا وأمريكا وجنوبي أفريقيا
١٨٠	رابعاً : المسؤولية الفردية
١٨٦	خامساً : العدل
١٩٨	سادساً : الطاعة المبصرة
٢٠٤	سابعاً : أجيال خيرة جريئة بالحق
٢١٤	ثامناً : دولة هداية لا جباية
٢١٩	تاسعاً وعاشراً : جهاد وحرية
٢٢٧	الفصل الخامس : البشارات
٢٤٤	البشارة الأولى
٢٤٧	البشارة الثانية
٢٤٨	البشارة الثالثة
٢٤٩	البشارة الرابعة والخامسة
٢٥٠	البشارة السادسة
٢٥٣	البشارة السابعة والثامنة
٢٥٥	البشارة التاسعة
٢٥٧	البشارة العاشرة
٢٥٨	البشارة الحادية عشر
٢٥٩	البشارة الثانية عشر
٢٦٠	البشارات : الثالثة عشر والرابعة عشر والخامسة عشر
٢٦٢	البشارة السادسة عشر
٢٦٤	البشارة السابعة عشر والثامنة عشر

الفصل الثاني المعجزات

سنكتب في هذا الفصل فقرتين وتعقيباً :

الفقرة الاولى :

حول المعجزة القرآنية نتحدث فيها عن خمسة جوانب من جوانب المعجزة القرآنية كل منها يشهد أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله .

الفقرة الثانية :

معجزات أخرى لرسول الله غير القرآن نتحدث عن تسعة أنواع منها كل واحدة منها تشهد أن محمداً رسول الله .

التعقيب :

ونتحدث فيه عن الفارق بين المعجزة وغيرها من الأمور التي يراها الناس خارقة للعادة ، ونرجو ألا ينتهي هذا الفصل إلا وقد انشرح القلب ببرد اليقين أن محمداً رسول الله وأنه ليس أمام الإنسان إلا طريق محمد وحده يصح للإنسان ان يسلكه ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائز .

فالى الفقرة الاولى من هذا الفصل :

الفقرة الأولى المعجزة القرآنية

يقول عليه الصلاة والسلام (ما آمن نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إليّ فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) . إن النبيين عليهم الصلاة والسلام كانت معجزاتهم شاهدة على صدق الوحي الذي أنزل اليهم وبلغوه . أما الرسول محمد ﷺ فمعجزته كانت في نفس الوحي . فالوحي نفسه فيه دليل على أنه من عند الله عز وجل إذ هو ذاته المعجزة ، ولذلك عندما كان المشركون يطلبون آية كانوا يلفتون إلى أن الآية بين أيديهم :

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

وإذا كان القرآن باقياً بحفظ الله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فالمعجزة إذن باقية محسوسة يستطيع كل إنسان إن صدق أن يعرفها ويتيقنها بعلم يقين .

« بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يحسد باياتنا إلا الظالمون » .

وهذا القرآن من أين أخذه ذلك على ذاته ، على شرط أن تأخذه بعلم ،

وتطلب الحق فيه بصدق ، فالعالم بأي علم له علاقة بالقرآن يستطيع أن يرى في القرآن الحق الذي يعلو أن يكون مصدره بشراً .

« ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » .

فالعالم باللغة ، الإدراك لأسرارها ، البصير فيها ، يرى أن لغة القرآن ليست بيان بشر . والعالم بأساليب التعبير ومجال البيان ولفحات البلاغة ، يرى أن ما في القرآن من أسلوب وبيان وبلاغة جلّ عن طوق بشر .

والعالم المحيط بالتاريخ المتثبت بما كان ، سواء قبل نزول القرآن أو بعده . يرى أن ما فيه من خير ليس مصدره البشر .

والعالم بالكون قوانين وواقعاً يرى أن القرآن ليس من عند بشر إذ ما فيه من علم لم يكن ساعة نزوله معروفاً ، شيء ضخم فيه دليله .

والعالم بالنفس غرائزها وما يصلحها ويفسدها ، وما يرتفع بها ويهبط ، يستطيع إدراك ربانية القرآن .

والعالم بالتشريع الاجتماعي والجنائي والإقتصادي ، وكل الجوانب الأخرى . يمكنه معرفة ذلك ، والعالم بالأخلاق والتربية والسلوك ، يستطيع أن يرى الله في قرآنه .

والعالم بالأمم حضاراتها وعمرانها ، والعوامل التي تبنيتها وتهدمها يستطيع أن يرى القرآن في مصدره الرباني .

والعالم بالكتب السماوية كالطورا والإنجيل والزبور ، يدرك أن كتاباً يحكم في ادق قضايا الخلاف بين أتباع هذه الديانات ، ليس مصدره محمداً الذي لم يسمع كتاباً ولم يقرأ .

ان العالم يرى ، وطالب الحق يرى ، أما المتكبر أما الحاسد أما طالب الدنيا أما الظالم أما أعمى القلب المظلم البصيرة ، أما هؤلاء فلن يروا ، لانهم ليسوا أهلاً للرؤية .

« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير حق » .
« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا » . « وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » .

إن مثل هذا النوع من البشر الذي يجحد ، وقلبه مستيقن بمنعه من الإقرار الكبر والبطر ، ليس لك إلى مناقشته سبيل ، إذ الحجة وعدمها معه سواء .
« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » .

إذ ليس سبب إنكاره عدم الحجة ، بل السبب في ذاته هو ، وأن الذين عانى منهم رسول الله ﷺ وكل رسول . هم من هذه الطبقة العاتية ، وليسوا من أولئك الذين يبحثون عن الحق حتى إذا وجدوه عرفوه وقبلوه واعتنقوه .
« فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

وإليك هذه القصة :

جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس بن شريق فقال : ما تقول فيما سمعت من محمد ؟ فقال الأخنس : ماذا أقول ؛ قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة ، قلنا : نعم . قالوا : فينا السدانة قلنا نعم . قالوا : فينا السقاية — قلنا : نعم . يقولون : فينا نبي ينزل عليه الوحي ! والله لا آمنت فيه أبداً .

هذا هو نمط الناس الذين لم يؤمنوا بالقرآن ، ليس لهم عذر ولا مسنمسل وأنى يكون لهم عذر وتحدي المعجزة يقرع آذانهم وهم صامتون .
« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » .

لكذبوا وهاتوا مثل سوره ولكنهم لم يفعلوا وحتى الذي ادعى النبوة والوحي كسيلة . لم يتكلم ليعارض القرآن بل كان يعترف أن القرآن وحي سماوي ، ولكنه تكلم ليقال : وها أنا يوحى إليّ ولكنه لم يتحد بوحيه .
« وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا

شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار .
لقد تحداهم أن يفعلوا وقال لهم لن تفعلوا ولم يفعلوا أليس في ذلك عجب؟
عجب لأن من عاداتهم المساجلة والمعارضة ، فلم يساجلوا هنا ولم يعارضوا .
وعجب لأنهم أمة البيان وبهتوا أمام البيان .
وعجب لأنهم فعلوا كل شيء من أجل القضاء على الدعوة الجديدة وسكتوا
عن أبسط الأشياء وهو الكلام .

وعجب أن وراث الكلام من شعرائهم وأئمة البيان عندهم . أصبحوا
مسلمين كحسان والخنساء وبجير وكعب والحطيئة ولبيد . وهم الأعلام باللغة
والأبصر فيها ول بعضهم لسان أشد من السيف ، ومع ذلك كان موقفهم السكوت
ثم التسليم .

أليس عجباً أن تجد الخنساء الشاعرة وهي التي قالت لحسان بن ثابت في
سوق عكاظ حين أنشدها :

لنا الجففات الغر يلمعن في الضحى وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما
ضعفت افتخارك وأبرزته في ثمانية مواضع قال وكيف ؟ قالت قلت : لنا
الجففات والجففات ما دون العشر . ولو قلت الجفان لكان أكثر . وقلت الغر .
والغرة البياض في الجبهة ، ولو قلت البيض لكان أكثر اتساعاً . وقلت يلمعن
واللمع شيء يأتي بعد الشيء ، ولو قلت يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق
أدوم من اللمعان ، وقلت بالضحى . ولو قلت بالعشية لكان أبلغ في المديح لأن
الضيف في الليل أكثر طروقاً ، وقلت أسيفنا والأسياف دون العشر . ولو
قلت سيوفنا كان أكثر ، وقلت يقطارن فدلت على قلة القتل . ولو قلت يجرين
لكان أكثر لانصباب الدم ، وقلت دما . والدماء أكثر من الدم ، وفخرت
بمن ولدت . ولم تفتخر بمن ولدوك .

هذه نفسها النقادة الشاعرة التي ملأت الدنيا نحيباً على أخيها صخر تفقد

أولادها الأربعة في الإسلام بمعركة واحدة فلم تذرف دمية بل تحمد الله ، لقد آمنت بالقرآن وغير القرآن أعماقها .

لقد شعر العرب الأقحاح يوم ذاك أن هذا القرآن الذي يسمعون لم يخرج من بشر ، كانوا يحسون هذا في أعماقهم سواء في ذلك مؤمنهم وكافرهم . وانظر هذين النصين عن مؤمن وكافر :

أ- روي أن أبا بكر رضي الله عنه وكان أنسب العرب وأعلمهم بلغاتها وأشعارها وأمثالها ، سأل أقواماً قدموا عليه من بني حنيفة ، عن كلام مسيلمة ، وما كان يدعيه قرآناً فحكوا له فقال أبو بكر : سبحان الله ويحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن إل (أي عن ربوبية) فأين كان يذهب بكم ؟ فانظر مفهوم كلامه وشعوره . إن القرآن خارج من الله وليس من بشر .

ب - وروي أن الوليد بن المغيرة المخزومي جاء إلى النبي ﷺ . فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فباغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه لثلاث تأتي محمداً لتعرض لما قاله . فقال الوليد : قد علمت قريش أني من أكثرها مالا .

قال أبو جهل : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليعظم ما تحته .

قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعني حتى أفكر فلما فكر قال : (هذا سحر يؤثر) يأثره عن غيره . ولما اجتمعت قريش عند حضور الموسم قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه (يعني النبي ﷺ) رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً فقالوا : نقول كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمتة ولا سجعته .

قالوا : مجنون .

قال : ما هو بمجنون ولا بمنقته ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال : ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه .

قالوا فنقول ساحر : قال ، ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده .

قالوا : فما نقول ؟

قال : ما انتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ، وان أقرب القول أنه ساحر وأنه سحر يفرق بين المرء وابنه والمرء واخيه والمرء وزوجته والمرء وعشيرته فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس .

إن هذا الاحساس بربانية المصدر ، والتحدي من المصادر نفسه ، وظهور العجز قديماً وابدأ ما ترك الكافر عذراً ولا حجة .

والناس إما صافي الفطرة يستجيب لأول بارقة نور ، فيشتعل نور فطرته ، وإما إنسان أصاب فطرته تعقيد وتوهم ، سواء بسبب الوراثة او الفكر الخاطيء مثل هذا إنما نطالبه بالعلم قبل الحكم ، وبالبحث بعد العلم ، وسيرى الآية واضحة والمعجزة قائمة من أي أبواب العلم أتاها .

أ - فهو لو درس حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وبعد النبوة قبل القرآن وبعد القرآن يجد جواباً قاطعاً ، أنه الوحي والنبوة وليس غيرهما ، رجل أمي جاوز الأربعين لم يعرف عنه خلاها أنه تكلم بشيء له علاقة بدين ، ولا درس ولا كتب فلم يتلق علماً ولم يقرأ كتاباً دينياً أو غير ديني . ثم البيئة بيئة أمية ولكنها ذكية لا تعلم عن النبوءات والرسالات شيئاً ، فليست هناك مقدمة تشير إلى نتيجة ومع ذلك وإذا بقرآن يتلى ، ودين يقوم ، ومفاهيم تغير

بسر هذا القرآن الذي يتحدى فيسكت المتحدون ، وهذا ما اشار القرآن إليه كدليل على النبوة لا يبقى معه ريب .

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لا رتاب المبطلون » .
« وقالوا إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » .

« وكذلك نفصل الآيات وليقولوا درست ولنبينة لقوم يعلمون » .

إن دارس القرآن العظيم لا يمكن ان يتصور أن ما فيه صادر عن جهل ، بل يرى أنه لا بد صادر عن علم محيط ، وهناك سر المعجزة . ولذلك قال الكافرون تعلم محمد ودرس ، وإذا ثبت التاريخ أن محمداً لم يدرس ولم يتعلم ، والقرآن كله حكمة وعلم فليس هناك مصدر إلا الوحي ولا بد هنا من التأكيد على ناحيتين :

الأولى : أن الكافرين مؤمنون بأن هذا القرآن لا يمكن ان يكون على هذه الحالة إلا إذا كان محمد قد تعلم أعظم ما يكون العلم ، وتصورهم حدوث تعلمه هو الذي يجعلهم يستبعدون معنى الوحي . فاذا ما ثبت أنه لم يتعلم ولم يتلق علماً من احد فليس أمامهم إلا نسبة هذا الكتاب إلى الوحي ، وكونه لم يتلق علماً من أحد ، شيء مشهور ، فان مكة لم يكن بها أهل كتاب إلا ورقة ابن نوفل وحداد ، والحداد أعجمي . كم يمكن أن تكون ثقافته العامة والدينية في زمن ما كانت الكتب الدينية فيه إلا عند رؤساء الديانات ولم تكن مترجمة ثم جلوس الرسول عنده للأخذ منه شيء مبثوث من عدم وجوده . وكذلك ورقة وليس هناك أي نص تاريخي يشير إلى غير هذا بل كل النصوص على أن المعلم الوحيد للرسول ﷺ هو الوحي .

الثانية : أن النبوة قائمة على الصدق والذين اتبعوا النبي اتبعوه لانه صادق . ولو رأوا وهم الذين يخالطونه — ليل نهار ذرة شبهة لأ نكروا وبينوا . وهم من هم ، فإذا ما ذكر القرآن كما ورد في الآيات أن النبي ﷺ لم يتلق علماً

من أحد وكان الذين حول الرسول ﷺ وهم أعرف الناس به صبياً وشاباً وكهلاً يعرفونه غير هذا لرأوا في ذلك مدخلا يشكون فيه بالصدق ، ولو كان القرآن من عند محمد وكان قد تعلم عن غيره من الناس ، لما نفى مثل هذا النفي الذي يمكن افتضاحه بسهولة لو كان .

فاذا ما تأكدت الناحية الأولى والثانية . شهادة التاريخ ، وشهادة واقع الحال . وانتفى امكانية التعلم البشري ، لم يبق إلا الوحي مصدراً لأعظم أثر في تاريخ البشرية .

ب - وكذلك لو درس الانسان ظاهرة الوحي نفسها بإمعان وتبصرة وأحاط بها إحاطة ما وحكم العلم والعقل . لوجد أن المسألة وحي وليست غير ذلك ، وأنها النبوة ليس إلا . أدرس مثلاً هذه الآثار التي هي بعض مما حدث الصحابة عن هذه الظاهرة .

عن عمر رضي الله تعالى عنه قال :

كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فأنزل عليه يوماً فمكث ساعة ثم سري عنه فقرأ « قد أفلح المؤمنون » - إلى عشر آيات منها من أولها وقال : من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال (اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم وأرضنا وارض عنا ...) الترمذي .

وفي مسلم عن أبي هريرة قال :

كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي لم يستطع أجد منا يرفع طرفه إليه ، حتى ينقضي الوحي . وفي لفظ كان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة . وفي رواية كرب لذلك ، وتردد وجهه ، وغمض عينيه ، وربما غط كغطيط البكر .

وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال :

كان إذا نزل على رسول الله ﷺ السورة الشديدة أخذه من الكرب والشدة

على قدر شدة السورة ، وإذا نزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها .

وفي رواية البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها .
فيفصم عنه وإن جبينه ليتصبب من العرق في اليوم الشديد البرد . إن هذه الحالة التي ترافق ظهور النص القرآني ليست حالة عادية كما أنها ليست حالة مرضية .

فالحالة المرضية لا يرافقها تصبب عرق ، ولا يرافقها ظهور نص كالنص القرآني وقد يكون سورة طويلة . كسورة الانعام ، أو يكون نصاً تشريعياً من أدق النصوص التشريعية في تاريخ العالم كنصوص المواريث .

إن هذه الظاهرة تدل على أن مصدر القرآن خارجي عن ذات محمد ﷺ :
« إن هو إلا وحي يوحى » .

ج - وكذلك لو درس الإنسان النص القرآني بإمعان فإنه سيصل إلى نتيجة واحدة ، هي أن هذا النص لا يمكن أن يكون من عند بشر ، بل لا بد أن يكون من عند الله والنص القرآني بين أيدينا . فتعال نستعرض بعض خصائصه وبعضاً من معانيه فإننا سنجد أدل على ذاته ، وأكثر اقناعاً للراغب في الحق الطالب له ، ونوثر أن نسلك في هذا الاستعراض الطريق التالي :

إن الاعلم بالقرآن هو صاحب القرآن ، وهو أولى من يتحدث عن خصائصه وأولى من يصف مناحي دلالاته واعجازه ، ونحن نجد أثناء دراستنا لهذا القرآن ، آيات كثيرة تحدثت عن صفات هذا القرآن وخصائصه . فلو أننا تتبعنا هذه الآيات وفهمناها نكون قد أدركنا خصائص القرآن بشكل أجود ، وأكثر احاطة ، واقرب إلى السهولة ، مع ملاحظة أننا سنذكر ان شاء الله مع كل خاصية دليلها والبرهان عليها ليطمئن قلب الشاك ، ويرتاج قلب المؤمن بالعلم الذي لا يدحض « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » .

يتصور بعض الناس الذين يقرأون القرآن من أهله ومن غير أهله ، ان السورة القرآنية لا تشكل وحدة متناسقة مترابطة ، وانه لا صلة بين الآيات وإن كانت هناك صلة بين بعض آيات السورة ، فإن السورة ككل فاقدة هذا التماسك ، وكما يتصورون هذا التصور في السورة الواحدة يتصورونه بشكل أكبر بالنسبة للقرآن كله ، ولسوره كلها فلا رابطة بين السورة والسورة ولا رابطة بين سور القرآن عامة .

وهذا التصور أقل ما يقال فيه ، أنه تصور فاسد يقوم على جهل كبير ، وعلى بساطة في الفكر وضحالة في النظر . فما كان القرآن ليكون كذلك ، وقد رتب الله آياته في السورة الواحدة ورتب الله سوره على الشكل الذي نراه . فان السيد الرسول ﷺ كان يؤمر بأن يضع الآية في مكانها من السورة ، والسورة في مكانها من القرآن ، فترتيب الآيات في السورة الواحدة بوحى ، وترتيب السور في القرآن بوحى ، والله عز وجل حكيم علي ، وقد وصف كتابه بأنه علي وحكيم ، « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » . فلا يكون كلام غير الله أكثر ترتيباً ، وأكثر انسجاماً من كتاب الله . وسنذكر هنا نموذجين من الأمثلة . نموذجاً نتبين فيه ترابط السورة القرآنية وتناسقها ، ونموذجاً نتبين فيه الصلات بين سور القرآن عامة .

المثال الأول من النموذج الأول

افتح المصحف الآن على سورة (ق) وتأمل :
تبدأ السورة هكذا :

« ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أئذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ » .

تبدأ السورة بمقدمة هي الآية الأولى ثم يأتي حرف « بل » ثم حديث عن الكافرين وتعجبهم من بعثة منذر ينذرهم بالبعث بعد الموت . واستبعادهم لهذه المسألة ، ثم يأتي الرد عليهم أنه وإن أصبحوا تراباً فإن الله يعلم ما أخذته الأرض منهم . وإذا كان علم الله كذلك فلا استبعاد لخلقهم مرة ثانية . إذن بإيجاز مقنع ذكر هذا المقطع من السورة اشكالا للكافرين ورد عليه فانهى بذلك المقطع من السورة ليبدأ مقطع جديد والملاحظ في المقطع الجديد أنه كذلك مبدوء بكلمة « بل » كما بدأ المقطع الأول بكلمة « بل » وفيه حديث عن تصورات الكافرين ورد عليهم كالمقطع الاول يقول :

« بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج » .

هذا موقف الكافرين من الوحي الذي أنذرهم به الرسول ، فيما له علاقة باليوم الآخر ويأتي الرد : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

هذا الجزء الاول من الرد ، وفيه لفتهم القرآن الى الكون ليتعرفوا فيه على الله وقدرته ، حتى أوصلهم الى رؤية إحياء البلد الميت بالمطر والنبات ، يكون ميتاً ينزل عليه المطر فيحيا و . . . كذلك الخروج ، بهاتين الكلمتين اللتين تأتيان بعد لفت النظر هذا يأتي الرد المفحم لهؤلاء الذين استبعدوا بعث الإنسان وكذبوا رسول الله .

ولا زلنا حتى الآن في المقطع الثاني

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد أفعيينا بالخلق الأول » .

رأينا في بداية هذا المقطع «بل كذبوا بالحق لما جاءهم» ورأينا الرد الأول، وتتمة للرد يذكر القرآن مشيراً : كما كذب هؤلاء فقد كذب غيرهم . . . وبعد أن يعرض علينا هوية المكذبين . يجعلنا نتعجب ونستنكر تكذيبهم وقيم الحجة عليهم بكلمة «أفعمينا بالخلق الأول» إذا كان الله خالق الإنسان أول مرة ولم يعجزه ولم يتعبه أفيعجز أن يخلقكم مرة ثانية ؟.

وبذلك ينتهي المقطع الثاني ليبدأ المقطع الثالث ويلاحظ كذلك أنه مبدوء بكلمة «بل» كما بدأ المقطع الأول والثاني وفيه حديث عن نفس المضمون يقول :

« بل هم في لبس من خلق جديد » الكافرون شاكون في خلقهم مرة ثانية ويأتي الرد على مرحلتين كل مرحلة مبدوءة بكلمة «ولقد» كما كان الجواب في المقطع الأول مبدوءاً بكلمة «قد» عند قوله «قد علمنا ما تنقص الأرض منهم» .

يقول :

«ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، وقال قرينه هذا ما لدي عتيد ، ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتبد مريب ، الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد ، قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ، قال لا تختصموا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد ، ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ، يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ، وكم

أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيى ، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» .

وبهذا تنتهي المرحلة الاولى من الرد على شكهم ، وهي مرحلة تذكري خلق الإنسان ، وعلم الله بكل ما يجول بخاطره ، ورقابة الملائكة على الإنسان ، وتذكير الإنسان بالموت ، وبالمصير الفظيع الذي أعد للكافر ، وبالمصير المشرق المعد للمؤمن التقي ، وإن هذا وعد من الله للمؤمن . وتختتم هذه المرحلة بالإعلان أن الإنسان ذا القلب وأن الإنسان الذي يصغي بتدبر ، يكفيه هذا البيان ليتذكر ، وتبدأ المرحلة الثانية من الرد وتستمر حتى نهاية السورة .

« ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود واستمع يوم ينادي المناادي من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

يذكر هذا القسم بأن الله خالق السموات والارض وما فيهما في مدة قصيرة بلا تعب وفي هذا الكلام رد مقنع على الشك ، هذا الإله لا يعجز عن إعادة الإنسان مرة ثانية .

وهل شك الإنسان في محله ؟

ثم يأمر الرسول ﷺ بالصبر على أقوالهم - الآتفة الذكر - التي رأيناها في المقطع الأول «أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد» وفي المقطع الثاني : «بل كذبوا بالحق لما جاءهم» وفي المقطع الثالث «بل هم في لبس من خلق جديد» والعبادة لله ويؤكد له أن يوم القيامة آت وأنهم محشورون وأن الله يعلم أقوالهم وأن مهمته أن يذكرهم . فخاتمة السورة إذن تخاطب النبي وتعلمه كيف ينبغي أن يكون موقفه .

وكما ترى من استعراض هذه السورة ، فإن التناسق والترتيب والوحدة والتكامل كل هذه موجودة بشكل واضح في السورة . فإذا ما أتى إنسان مفرض أو معرض ، وقال بأنه لا رابط بين الآيات في السورة الواحدة ، فانه لا شك يدل على فساد ذوقه ، وعمى بصيرته وليس ذلك بضار القرآن شيئا .

المثال الثاني من النموذج الأول

سورة الواقعة

تبدأ السورة في الحديث عن الساعة :

« إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا » وبعد هذه المقدمة ننتقل إلى تصنيف الناس في ذلك اليوم :

« وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ؟ وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ؟ والسابقون السابقون » ثم تبين ما أعد لكل صنف من هذه الأصناف مبتدئة بالسابقين لأنهم الأفضل :

« أولئك المقربون في جنات النعيم . ثلة من الأولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قولا سلا ما سلا » .

ثم تبين ما أعد لأهل اليمين :

« وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إنا أنشأناهم إنشاء فجعلناهم أبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » .

ثم تبين ما أعد لأهل الشمال :

«وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرّون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون أو أبأؤنا الأولون ، قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ، فمالؤن منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين .»
ويبقى بعد ذلك عندنا في السورة مقطعان كل منهما ينتهي بكلمة « فسيح باسم ربك العظيم »

يبدأ المقطع الأول بهذه الآية « نحن خلقناكم فلولا تصدقون » الخطاب كما ترى من الله للإنسان يذكره فيه بأنه خلقه ويطلبه فيه أن يصدق ، وبديهي أنه يطلبه هنا بالتصديق في اليوم الآخر الذي كان الحديث السابق كله عنه ، ثم يبدأ المقطع يناقش الإنسان لإقناعه بالتصديق ، ونجد أن المقطع مقسم إلى أربعة أقسام كل قسم مبدوء بكلمة « أفرايتم » وكل قسم يلفت الإنسان للإيمان بالله والتصديق بأنه الخالق للوصول بعد ذلك إلى الإيمان باليوم الآخر :

الفقرة الأولى : « أفرايتم ما تمنون ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون .»

الفقرة الثانية : « أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون : إنا لمغرمون بل نحن محرومون .»

الفقرة الثالثة : « أفرايتم الماء الذي تشربون ، أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء لجعلناه أجاجا فلولا تشكرون .»

الفقرة الرابعة : « أفرايتم النار التي تورون ، أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن

المنشؤون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم .
ينتهي المقطع وقد أثبت أن الله هو الخالق العظيم ، وبإثبات هذه الحقيقة لا
يسع الإنسان إلا أن يصدق بما أخبره الله عنه بأنه كائن يوم القيامة .

ويبدأ المقطع الأخير في السورة :

« فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم في
كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ، أفبهذا الحديث
أنتم مدهنون ، وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » فيقرر فيه أولاً أنه لا مجال للتكذيب
بشيء أخبر به القرآن ، وأنه لعقوب بالإنسان أن يكذب ثم يستمر المقطع
مبيناً أن الموت لا بد منه ، وأنكم عاجزون أيها البشر عن رده :

« فلو لا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم
ولكن لا تبصرون ، فلو لا إن كنتم غير مدبرين ترجعونها إن كنتم صادقين » .

وإذا تقرر هذا كله فإن الذي أخبرتم عنه في أول السورة حق كله :

« فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم » .

« وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين » .

« وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم » .

« إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم » .

وبذلك تنتهي السورة ، مرتبطاً أولها بآخرها ، معروضة أدلة أولها وآخرها
في وسطها متناسقة تناسق كل ما كان من عند الله ولكن العمي لا يبصرون .

* * *

المثال الثالث من النموذج الأول

سورة الأنبياء

تتألف السورة من مقدمة هي آية واحدة ، وسبعة مقاطع المقطع الأول مبدوء
بكلمة « ما » والمقاطع الست الأخرى مبدؤة بكلمة « وما » فكأن حرف العطف الواو

يعطاف « ما » في المقاطع الست عليها في المقطع الاول . وسنرى باستعراضنا لمقاطع السورة ومقدمتها ، ارتباط المقاطع بعضها ببعض ، وانسجام الكل مع المقدمة ، لتظهر أخيرا الوحدة المتناسقة في السورة كلها .

تبدأ السورة بهذه الآية « إقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون » فالآية تتحدث عن غفلة الناس وإعراضهم مع قرب الحساب .

ثم يبدأ المقطع الاول :

« ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى . الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال : ربي يعلم القول في السماء والارض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون » .

يتحدث المقطع عن موقف الناس من الوحي ، وأنهم يستقبلونهم بغفلة . وإعراض وإتهام صاحبه بأنه بشر بلا ميزة ، وأنه ساحر وأن الوحي محض تخيلات وأوهام ، وأنه مخترق وأن الرسول إنسان عاطفي غير ذي عقل علمي ، وأنهم يطلبون آية كدليل . وفي المقطع تذكير بعلم الله ، وتذكير بأن ذلك طبيعة الإنسان في كل عصر .

ويأتي المقطع الثاني

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين . ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين . لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون . وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين .

فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين .
والمقطع كله رد على أقوالهم في المقطع الاول وتوكيد للحقائق الموجودة فيه
فالمقطع يقول :

صحيح أن الرسول بشر ولكنه ميزته عليكم أنه يوحى إليه . يعرف هذا كل
أمة بعث بها رسول ، وهؤلاء الرسل فيهم كل صفات البشرية ، ولكنهم
مؤيدون من الله . منصورون على من خالفهم ، وأن هذا القرآن وحي ككل
وحي سابق ، فينبغي أن يعقل المكلفون فيه هذه الحقيقة ، وليعلموا أن قرى
كثيرة لم تستجب لوحي الله فكان عاقبتها الهلاك والدمار .

ولاحظ نهاية المقطعين :

نهاية المقطع الاول :

« ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون » .

ونهاية المقطع الثاني :

« وكم أهلكنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . . إلى-
حتى جعلناهم حصيدا خامدين » .

و يأتي المقطع الثالث :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهم واتخذناه
من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم
الويل مما تصفون . وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن
عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من
الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش
عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا
برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم
معرضون . »

لقد بين المقطع الاول والثاني حالة الكافرين في الإعراض عن الوحي ، وفي الغفلة واللهو والموقف غير الجدي . ولما كان هذا كله نابعا عن التصور الخاطيء لقضية خلق الكون وعن عدم معرفة الجلال الإلهي وحقوقه ، وعن الشرك والتصورات المضحكة التي لا تقوم على دليل . فإن هذا المقطع الذي مر معنا تحدث عن هذه المعاني كلها ويلاحظ أن المقطع قد ختم بهذه الجملة « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » . وهي تبين ارتباط هذا المقطع بما قبله وبالمقدمة .

وإذ يقرر المقطع الثالث هذه المعاني كلها . مما له علاقة بجلال الله ، وفساد الشرك وكونه لا دليل عليه ، ليصحح موقف الإنسان في الحياة ، فإن المقطع الرابع يأتي ليؤكد وحدانية الله ، وانها الدعوة التي حملها كل رسول ، وأن أي دراسة للكون توصل إلى هذه الحقيقة :

إن خالق هذا الكون واحد ،

يقول المقطع الرابع :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين . أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون . وجعلنا في الأرض رواسي أن تنمد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون . وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون » .

ويأتي بعد ذلك المقطع الخامس وهو أطول المقاطع في السورة . ويلاحظ منذ بدايته ، إنسجامه مع السورة كلها في خطابه ومعانيه . فهو مثلاً مبدوء بكلمة

«وما» ككل المقاطع ويخاطب الرسول ﷺ كذلك كمثلها لاحظ : بداية المقطع الثاني الذي بدأ الرد على الأفكار التي طرحها الكافرون .
«وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً» .

وبداية المقطع الرابع :

«وما أرسلنا من قبلك من رسول ...» .

وبداية المقطع الخامس الذي فيه نظرنا الآن «وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد...»
واطول المقطع نستعرض جملة معانيه حسب تسلسل آياته ثم بعد ذلك نذكر ارتباط هذا المقطع بما قبله .

تذكر الآيات الأولى فيه أن محمداً ﷺ ميت ككل بشر . وإذا مات هو فلن يخلد أعلاه ، وما في الحياة كله ابتلاء ، والمرجع إلى الله ، فمن ينبغي أن يخشى من الموت ﷺ أم هم ؟ تقول الآيات :

«وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن ميت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون» .

ثم يتحدث المقطع عن موقف الكافرين إذا رأوا رسول الله ﷺ وكلامهم وإبعاد الله لهم ، وسؤالهم متى تحقيق هذا الوعيد والجواب :

«وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون. خُلِقَ الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأنيهم بغتة فتبتهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون» .

ثم يبين المقطع أنه إذا استهزى برسول الله ﷺ فإن كل نبي سابق قد استهزى به :

«ولقد استهزى برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون» .

ثم يؤمر الرسول ﷺ أمرين كل منهما مبدوء بكلمة « قل » .

الأول : « قل من يكلموكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون . أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يُصبحون . بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون » .

وواضح أن هذا رد على موقفهم ، وتبيان لهم أنهم لو عرفوا الله حق المعرفة ما وقفوا هذا الموقف .

الثاني : « قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون » . وفي هذا كذلك رد عليهم أن محمداً ﷺ لا يقول من عند نفسه فإذا لم يسمعوا فهم السبب . فاستهزأؤهم في غير محله بل هم الجديرون بالاستهزاء . ثم يبين المقطع حالهم إذا عاقبهم الله في الدنيا وماذا أمامهم في الآخرة : « ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

ثم يبدأ المقطع يقص علينا من قصص الانبياء بحيث نأخذ من كل قصة نبي عبرة تنسجم مع موضوع السورة . وقبل أن نبدأ استعراض هذه القصص واحدة فواحدة ، ونرى انسجام كل قصة مع السورة فإننا بشكل عام : نلاحظ فيما مضى معنا من المقطع . أن الحديث منصب على نفس المعاني التي مرت في المقاطع السابقة : موقف الكافرين من الوحي والرسول ، وعاقبة هذا الموقف ومناقشته .

ونبدأ الآن في استعراض القصص :

١ - « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون » .

وبينة علاقة القصة بالسورة ، فالسورة من بدايتها تتحدث عن الذكر المنزل « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » والقصة هنا تشير إلى أن ما أنزل على محمد ﷺ قد أنزل مثله على موسى وهارون ، فلا مجال إذن لإنكاره ، ويلاحظ أن القصة الأولى منسجمة تمام الانسجام مع معاني المقطع الاول فكأنها مثال عليه .

٢ - « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجبثنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وإنا على ذاكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصناءكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جُذاداً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا لاكم أنتم الظالمون . ثم نكبوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأَخسرين ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » .

٣ - « ولو طأ آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث لئنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناهم في رحمتنا إنه من الصالحين » .

٤ - « ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا لئنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين »

ويلاحظ أن القصص الثلاثة . هذه قصة إبراهيم ولوط ونوح عليهم السلام لها علاقة في المقطع الثاني ، إذ أنها تؤكد نفس معانيه « وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين . ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نساء وأهلكنا المسرفين . . . » .

لاحظ كلمة « فأنجيناهم » هنا وورودها في القصص الثلاثة .

٥ - « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون . ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين » .

٦ - « وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » .

٧ - « وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ، وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين » .

٨ - « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » .

٩ - « وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » .

١٠ - « والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية

للعالمين . إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .
هذه عشر قصص وهي بمجموعها وهذه الآية الأخيرة التي أعقبتها تؤكد
المقطع الرابع :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .
وكما ترى فإن المقطع الخامس يؤكد بمجموعه المعاني الموجودة في المقاطع
السابقة ، ولعل خاتمة المقطع يتبين لك فيها هذا الارتباط ، فقد تحدث عن
اقتراب يوم القيامة وقد بدأت فيه السورة ، وعن مصير الكافرين والمؤمنين في
ذلك اليوم ، ووعد الله للمؤمنين بالنصر وتأمل تنمة آيات المقطع :

« وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون . فمن يعمل من الصالحات وهو
مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون . وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا
يرجعون . حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون .
واقرب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في
غفلة من هذا بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم
أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون . لهم فيها
زفير وهم فيها لا يسمعون . إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون
لا يسمعون حسيسها وهم فيما انتهت أنفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع
الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون . يوم نظوي السماء
كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين . ولقد
كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون . إن في هذا
لبلاغاً لقوم عابدين » .

وأخيراً يأتي المقطع السادس ليبين :

أن محمداً ﷺ رحمة للبشر وأنه مأمور أن يدعو الناس إلى التوحيد
والإسلام ، وأن عليه أن يبلغ ، وأن يوم القيامة آت ، وأن الله يعلم السر والجهر
وتحتم السورة بدعاء للنبي ﷺ .

وإذا تأملت المقطع الأخير تجد ارتباطه الوثيق بكل مقاطع السورة، وتذكر الآن معاني السورة ثم تدبر آخر مقطع :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . قل إنما يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد فهل أنتم مسلمون . فان تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون . إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون . وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » .

* * *

ولعل هذا المرور الخاطف على هذه السور الثلاث وضح لنا تناسق السورة القرآنية ووحدتها وانسجامها وترابطها ، وهذا الذي رأيناه هنا نستطيع أن نراه في كل سورة قرآنية من الفاتحة إلى سورة الناس بما في ذلك السور الكبيرة كالبقرة وآل عمران .. ونتيجة لهذا القول نقول : إن الترتيب في كل سورة من سور القرآن كائن بشكل معجز فهو مع كماله في بابه لا يستطيع أن يدركه إلا إنسان بلغ الذروة في نضج التأمل . فهل يمكن أن يكون هذا وليد بيئة أمية ؟ .

* * *

— ب —

والآن ننتقل لإثبات الأمر الآخر :

إن القرآن كله مترابط فيما بينه ، يشكل وحدة منتظمة مترابطة . أول سورة من سور القرآن هي الفاتحة ويلاحظ أنها أوجزت معاني القرآن كله . فمعاني القرآن كلها تدور حول العقائد ، والعبادات ، ومناهج الحياة ، والسورة بدأت بالعقيدة « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين » وثنت بالعبادات « إياك نعبد وإياك نستعين » وثالث بمناهج الحياة « إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » وبينت أخيراً أن مناهج المسلمين متميز « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ويلاحظ أن آخر مقطع فيها مبدوء بكلمة « إهدنا » ويأتي في أول سورة

البقرة «الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» فالرابطة إذن بين سورة الفاتحة والبقرة والقرآن كله واضحة .

ننتقل الآن إلى سورة البقرة والسور التي تليها إلى سورة يونس وهي المسماة بالسبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والانعام ، والأعراف والأنفال ، والتوبة ، لنرى هل هناك رابطة بين هذه السور :
نظرة على سورة البقرة نلقيها ترينا :

١ - ان السورة مبدوءة بأحرف «الم» ويأتي بعدها عشرون آية تتحدث عن أقسام الناس في المصطلح القرآني . متقين ، وكافرين ، ومنافقين ، ونصف كلا من هؤلاء .

٢ - تأتي بعد ذلك خمس آيات مبدوءة بكلمة «يا أيها الناس» وفيها دعوة إلى الناس جميعاً أن يكونوا من الفئة الأولى «المتقين» وإن طريق التقوى هو عبادة الله ، وتصف الآيات مظاهر قدرة الله ، وكون القرآن لا شك فيه ، ومصير الذين لا يسلكون هذا السبيل ومصير الذين يسلكونه .

٣ - تأتي بعد ذلك ثلاث آيات تتحدث عن الله عز وجل والقرآن ، وموقف المهتدين منه ، وضلال الضالين به وصفاتهم «الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه . ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون» ومناقشة من يكفر بالله عز وجل .

٤ - تأتي بعد ذلك آية مبدوءة بكلمة «هو» تتحدث عن الله أنه خلق كل شيء في الأرض للبشر .

٥ - تأتي بعد ذلك عشر آيات تتحدث عن قصة آدم عليه السلام ، ونزوله إلى الأرض ، وتختتم بالقاعدة التي تحاسب عليها البشرية «فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» .

بعد ذلك يقص الله من قصص بني إسرائيل وموقفهم من الهدي المنزل عليهم . ثم من قصة إبراهيم عليه السلام وعبوديته لله ودعوته ووصاياه ، ثم قواعد حول قبله المسلم بعد قصة إبراهيم ، ثم أوامر لها علاقة بالعبادة والتقوى ثم فريضة الله على المسلمين في أمر القتال الآية ٢١٦ .

٦- « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ثم تأتي آية مبدوءة بكلمة « يسألونك » الآية فيها استفتاء من الصحابة عن قضية لها علاقة بالقتال ثم تفصيلات في أمور كثيرة . حتى تختم السورة . ومن السهل جداً على دارس السورة أن يجد وحدتها ، وليس هذا ما نريده الآن بل نريد إثبات الصلة بين هذه السورة والسور الست التي تليها .

ولعلك تدهش إذا قلنا لك ان السور الست الطوال التي تأتي بعدها إنما تشرح وتفصل هذه المقاطع التي ذكرناها لك بشكل واضح لا يلتبس على المتأمل . وهي تشرح هذه المقاطع بالتسلسل الموجود في سورة البقرة وكأن هذه المقاطع تحتاج إلى زيادة إيضاح فجاءت كل سورة تشرح كل واحدة منها مقطعاً وهاك الدليل :

١ - سورة البقرة مبدوءة بأحرف « ألم » وسورة آل عمران مبدوءة بنفس الأحرف : سورة البقرة مبدوءة بآية « ذلك الكتاب لا ريب فيه » . سورة آل عمران مبدوءة بهاتين الآيتين « الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق » .

العشرون آية الأولى في البقرة تتحدث عن المتقين والكافرين والمنافقين . سورة آل عمران كلها توضح ملامح هذه الفئات الثلاث ، والحدود التي ينبغي أن تقف عايتها الجماعة المسلمة في علاقتها مع الفئتين الآخرين .

٢ - بعد العشرين آية من سورة البقرة تأتي الآية المبدوءة بـ « يا أيها الناس » والتي تبين للإنسان طريق التقوى وأن التقوى هدف « اعبدوا ربكم الذي خلقكم

والذين من قبلكم لعلكم تتقون ... »

وتأتي سورة النساء بعد سورة آل عمران مبدوءة بآية :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » نفس النداء .
نفس المعاني ، وكأنك عندما تدرس سورة النساء إنما تدرس التقوى طريقاً وسلوكاً .

٣- وبعد هذه الآيات تأتي الآيات التي مرت معنا ، والتي نتحدث عن
نقض العهد . وتأتي بعد سورة النساء سورة المائدة وهي مبدوءة بالأمر بالوفاء
بالعقود « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وفي السورة أكثر من آية تذكر
العهود .

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا »
وكان السورة تذكر المعاني الأساسية للعهود الأساسية التي من تمسك بها اهتدى
بهدى القرآن وإلا ضل .

٤- وبعد آيات البقرة هذه تأتي الآية « هو الذي خلق لكم ما في الأرض
جميعاً » وتأتي بعد سورة المائدة سورة الأنعام التي تتردد فيها كلمة « هو »
« وهو » مرات كثيرة . الآية الثانية « هو الذي خلقكم من طين » والآية (١٩)
« ودو القاهر فوق عباده » والآية (٦١) « وهو الذي يتوفاكم » و ...
وهكذا مرات ، وآخر آية في السورة تكاد تكون معنى حرفياً لآية البقرة
« وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات
ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم » فكان سورة
الأنعام كلها تفصيل لمجمل الآية في البقرة .

٥- وتأتي بعد ذلك في البقرة قصة آدم ، وتنتهي بالقاعدة التي ذكرناها
« فمن تبع هداي .. » وتأتي بعد سورة الأنعام سورة الأعراف والآية الثانية
فيها « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » والآية الأولى فيها تقول « المص كتاب
أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ، اتبعوا »

وتأتي بعد ذلك قصة آدم وقصص عن أمم وكيف كان موقفهم من الهدى المنزل عليهم فكأن السورة كلها عرض عملي وتاريخي ومناقشة في جو القاعدة التي انتهت بها قصة آدم في سورة البقرة .

٦- وكما أنه بعد آية القتال في سورة البقرة تأتي كلمة « يسألونك » وفيها استفتاء عما له علاقة في القتال ، فان سورة الأنفال بعد الأعراف مبدوءة بكلمة « يسألونك » .

والسورة كلها والسورة التي بعدها وهي سورة « التوبة » تتحدثان عن القتال وأدب الحرب ، ويلاحظ أن السورتين في القرآن مكتوبتان بلا فاصل « البسملة » فكأن السورتين شرح وتوضيح للفريضة التي ذكرها الله في سورة البقرة . ونظن أن قد وضحت الرابطة التي تربط هذه السور فيما بينها . ولكنك ستري أعجب إن شاء الله تعالى :

١- سورة آل عمران شرحت العشرين آية كلها في البقرة أما سورة يونس فتفصل الآية الأولى من سورة البقرة « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » لاحظ الآن سورة يونس : تبدأ السورة بهذه الآية : « الر تلك آيات الكتاب الحكيم » .

ثم تقول « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ، أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إنَّ هذا لساحر مبين » إذن تبدأ السورة بتعطيم الشبه الموجودة في أذهان الناس حول القرآن ، ويستمر هذا المعنى حتى ينتهي عند الآية (٣٨) بهذا الشكل :

« وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » ثم يأتي حرف « أم » فكأنه استمرار للمقطع المبدوء بحرف الاستفهام الهمزة « أكان » .. « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

اذن لا زالت السورة تدحض شبه المرتابين والمكذبين ، ويستمر هذا المقطع حتى الآية (٥٧) المبدوءة بـ « يا أيها الناس » وكأن السورة حتى هذه الآية تفصل الجزء الأول من الآية الأولى من سورة البقرة « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه » وتأتي الآية (٥٨) لتبدأ السورة في تفصيل الجزء الثاني من الآية « هدى للمتقين » تقول آية يونس « يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

وتختتم السورة بهذه الآية (١٠٤) :

« قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين ، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم » .

« قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ، واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » وبهذا تنتهي السورة .

٢ - وسورة النساء شرحت التقوى في الآية (٢١) من سورة البقرة أما سورة هود فانها تفصل الأمر « اعبدوا » من نفس الآية .

واقراً الآن سورة هود تجد ، « الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله ... » ولعلك لاحظت كلمة « ألا تعبدوا إلا الله » ثم استمر في التلاوة لتجد في الآية الخامسة والعشرين :

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله » ثم استمر حتى الآية الخمسين تجد « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا

الله .. » ثم استمر حتى الآية (٦١) تجدد : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله .. » ثم استمر حتى الآية (٨٣) تجدد « وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله » وإلى آخر آية في السورة « والله غيب السموات والأرض وإليه يُرْجَعُ الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون » ولعلك لاحظت فيها الأمر « فاعبدوه » .

٣ - وسورة يوسف تبين مقنعة للانسان أن هذا القرآن من عند الله فهي تفصل - والله أعلم - الآية التي بعد ما مر في البقرة « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » فإن سورة يوسف تبدأ « الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » وتختتم السورة « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

٤ - وبعد الآية (٢٦) في البقرة تأتي الآيتان :
« إن الله لا يستجيب أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يُضِلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون » .

وادرس الآن سورة الرعد لتجدها تفصيلاً لهذه المعاني .
فمما يلفت النظر في سورة الرعد ، أن الآية الثانية فيها « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » وأن الآية الثامنة « الله يعلم ما تحمل كل أنثى .. »

والآية (٢٦) « الله ييسر الرزق لمن يشاء ... »
فكان كل مقطع في السورة مبدوء بكلمة « الله » فالمقاطع كلها تفصل

إذن آية البقرة الآنفه الذكر « إن الله لا يستحيي » فاذن سورة الرعد تعرفنا على الله أكثر ويلاحظ أنه في المقطع الثاني من سورة الرعد ، ترد هذه الآيات في خاتمته ، وهي كما ترى تأكيد لمعنى الآيتين المذكورتين في البقرة :

« أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

ولا يشك الإنسان وهو يقرأ آتي البقرة (٢٧) و (٢٨) ويقرأ سورة الرعد أن سورة الرعد تفصيل لتلك الآيتين .

ونستطيع الآن بعد أن استعرضنا مثالين يثبتان وجود الترابط بين سور القرآن ككل أن نضع أسس نظرية في هذه القضية فنقول :

إن كل مجموعة سور من القرآن تشكل كلاً متكاملًا، وهذه المجموعات كلها إنما تفصل المعاني التي ذكرتها سورة البقرة على الترتيب مع تبيان وتوضيح وتفصيل ، وقد رأينا مثالين على ذلك ، ويلاحظ أن كل مجموعة من السور قد عرضت الأسس النظرية والعملية للإسلام ، بحيث أن من يقرأ أي مجموعة من هذه المجموعات ، يتذكر بكل الحقائق الأولية في الإسلام . كما يلاحظ أن كل مجموعة من هذه المجاميع قد عرضت هذه الحقائق بلغة وطريقة عرض ونغمة جرس تختلف عن الأخرى ، مما يبهز الإنسان ولا يستطيعه مخلوق : أن تعرض قضية واحدة على عشرات الأوجه وبطرق كثيرة من العرض . المعاني في البقرة مرتبة ترتيباً معيناً كل مجموعة سور تشكل وحدة . تعرض المعاني القرآنية على

ترتيب عرضها في سورة البقرة ، هذه المجموعة تتدرج من الطول إلى القصر ، كل وحدة تذكر الإنسان بالمعاني الأساسية بطريقة عرض تختلف عما قبلها . ولو تأملت سورة العصر فما بعدها لرأيت نفس ترتيب العرض في سورة البقرة مع فارق القصر ، فهل يمكن أن يكون هذا من عند بشر ! ولعلنا استطعنا بفضل الله بعد ما تقدم توضيح هذه الآيات وتفهم معناها مما وصف الله به كتابه :

١ - « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

٢ - « كتاباً متشابها مثاني » .

٣ - « إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » « وإنه في أم الكتاب لدينا لغلي حكيم » فبسبب مما رأيناه كان القرآن مفصلاً ، وكان متشابهاً ، وكان مثاني ، وكان مذكراً . لأن كل جزء منه يذكر بما ينبغي أن يتذكره الإنسان . وبمثل هذا وبمثل ما يأتي بعد كان هذا الكتاب على غاية الحكمة ولا يعلوه كتاب أبداً عرفه البشر .

- ٢ -

ومن خصائص هذا القرآن التي تشير إلى ربانية مصدره ، ما أشار إليه القرآن بقوله :

« قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض » « لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه » « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . لقد أخبر الله في الآية الأخيرة أنه سيكشف للناس خفايا هذا الوجود ، ودقائق هذا الإنسان وأن هذا الكشف فيه دليل صادق على أن القرآن حق ، إذ ما سيعرفه الإنسان سيطلق ما في القرآن وهذا لا يكون إلا إذا كان منزل القرآن هو الله العالم بأسرار السموات والأرض ولئن كانت الآية الأخيرة نبوءة كاملة في حد ذاتها ، تحققت بما كشف الإنسان حتى الآن فان ما سنذكره من أمثلة سيكون برهاناً كاملاً على نسبة القرآن لله جل جلاله :

لقد تحدث القرآن بلغة واضحة عن كثير من القضايا الكونية ، مما لم يكن معروفاً قطعاً قبل أربعة عشر قرناً في أي مكان من العالم ، فضلاً عن أن يكون معروفاً في جزيرة العرب حيث الأمة الأمية ، التي كانت معارفها عن الكون محدودة وسطحية ، فكان حديث المحيط بسر كل شيء . وكلما تقادم الزمان أكثر كلما ظهرت دقة القرآن أكثر . فيصبح الإنسان أمام الحقيقة التي لا شك فيها أن خالق الكون ومنزل القرآن واحد ، الله رب العالمين ، وهذه أمثلة وفي القرآن المزيد لمستزيد :

١ - قال الله تعالى :

« وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » .

يقول العلم اليوم ان الحليب قبل أن يصبح في الثدي ، يمر على عمليتي تصفية . الأولى تصفيته من الفضلات وذلك بعد الهضم ونزول السائل الحليبي إلى الأمعاء ، إذ تقوم الزغيبات المعوية بامتصاص المواد الغذائية طارحة إياها في الدم ومبقية الفضلات في الأمعاء حيث تطرح خارج الجسم . وأما المواد الممتصة التي طرحت في الدم فان قسماً منها يغذي جسم الكائن الحي وقسماً آخر تصفية الغدد اللبنية من الدم وترسله إلى الضرع حليباً خالصاً سائغاً للشاربين .

إذن قال العلم هذا الحليب يصفى أولاً من الفضلات ثم من الدم .

وقال القرآن « من بين فرث (والفرث هو الفضلات) ودم لبناً خالصاً ... »

وهذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها فضلاً عن أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة ، وما يملك إنسان يحترم عقله أن يماري في هذا أو يجادل ، ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة ، يكفي وحده لإثبات الوحي من الله بهذا القرآن .

٢ - قال الله تعالى :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يَصْعَدُ في السَّمَاءِ » .

« منذ اكتشاف الطبقات العليا من الجو بفضل الطيران والبالونات ، إستطعنا أن ندرك ظاهرة كونية تنتج عن نقص أو كسجين الهواء في طبقات الجو العليا ، إذ يشعر الصاعد في هذا العلو ببعض الصعوبة في التنفس ويحس بالضيق ، والآية القرآنية صرحت بأن من يرتفع في السماء يشعر بعوارض الضيق ، ولذلك يستعمل الطيارون الذين يصعدون إلى الإرتفاعات العالية أجهزة التنفس الصناعية حتى يتفادوا هذه الحالة ولقد لفتت هذه الظاهرة نظر هواة التسلق حتى قبل ارتياد الطبقات الجوية العليا . ويلاحظ أن الآية لم تعبر عن لفظ الصعود في الجبال بل عبرت عن الصعود في السماء . كما أن بلاد العرب ذات سطح منبسط وصحارى ممتدة وليس فيها جبال عالية بحيث يأخذ الساكن فيها فكرة عن تسلق الجبال وما يشعر المتسلق فيها من ضيق » .

٣ - قال تعالى :

« ومن كل شيء خلقنا زوجين » .

وقال « سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

القاعدة في اللغة العربية أن (كل) إذا أضيفت إلى معرفة عمت أجزاؤها وإذا أضيفت إلى نكرة عمت أفرادها وفي الآية الأولى اضيفت (كل) إلى نكرة لذلك تعم جميع الأشياء .

يقول صاحب ظلال القرآن « وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الارض وربما في هذا الكون ، إذ أن التعبير لا يخصص الأرض قاعدة الزوجية في الخلق وهي ظاهرة في الأحياء ولكن كلمة شيء تشمل غير الأحياء أيضاً ، والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية ، وحين

تذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرناً وأن فكرة عموم الزوجية حتى في الأحياء لم تكن معروفة حينذاك فضلاً على عموم الزوجية في كل شيء . حين تذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم وهو يُطلعنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير . كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة في طريق الوصول وهي لا تكاد ...

إن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء موجب وسالب .

٤ - قال تعالى : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم » . وقال « ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون » .

وقال : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » وقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق » .

يتم الإخصاب بين الحيوان المنوي للرجل وبويضة المرأة في أعلى القناة الواصلة بين المبيض والرحم ، فيبدأ الجنين خلية واحدة ولكن الإنسان كله بكل عناصره وخصائصه يكون مختصراً في تلك الخلية الواحدة ، ثم تنحدر في اتجاه الرحم مستغرقة في رحلتها ما يقارب الأسبوع ، تكون خلاله قد تكاثرت حتى أصبحت كتلة من الخلايا تلتصق هذه الكتلة بجدار الرحم فتنهشه ربما بواسطة أنزيمات معينة حتى تعلق به كنقطة صغيرة تتغذى على دم الأم وليس أدق من كلمة العلقة في وصف شكل ونشاط الجنين في هذه المرحلة .

ثم تأخذ هذه العلقة في النمو ، وتأخذ خلاياها في التنوع ، ويكون شكلها مستديراً بغير انتظام ، وتبقى كذلك بضعة أسابيع يكون الدم فيها في (برك) صغيرة لا في شرايين محددة ، إن شكلها لا يختلف عن شكل قطعة من اللحم المضغ وإن كان طولها لا يتعدى بضعة مليمترات .

ثم ينشأ طراز من العظم أكثر شفافية وأقل صلابة وأشد رخاوة من العظم العادي هو الغضروف الذي ترسب حوله مادة العظم فيما بعد ، وتنشط الخلايا في كافة أجزاء المضغة مكونة الأنسجة والأجهزة التي تكسو العظام المتكونة لحماً .

وهنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيراً بعد تقدم علم الأجنة التشريحي . وذلك أن خلايا العظام هي التي تتكون أولاً في الجنين ، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظم ، وتنام الهيكل العظمي الغضروفي للجنين . وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني «فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً» فسبحان العليم الخبير .

في كل المراحل السابقة لا توجد فروق بين جنين الإنسان و جنين الحيوان ولكن ما إن يوشك الشهر الثاني للحمل على الانتهاء حتى تتضح الخصائص الإنسانية لهذا الجنين فإذا به خلق آخر . . .

إن الجنين الإنساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد ، وهو ينشأ «خلقاً آخر» في آخر أطواره الجنينية بينما يقف الجنين الحيواني عند التطور الحيواني لأنه غير مزود بتلك الخصائص . ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبة الحيوانية فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطوراً آلياً كما تقول النظريات المادية فهما نوعان مختلفان مختلفا بتلك النفخة الإلهية التي بها صارت سلاسة من الطين إنساناً . واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأ بها الجنين الإنساني خلقاً آخر . إن

الانسان والحيوان يتشابهان في التكوين الحيواني ، ثم يبقى الحيوان حيواناً في مكانه لا يتعداه ، ويتحول الانسان خلقاً آخر قابلاً لما هو مهياً له من الكمال بواسطة خصائص مميزة وهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلي من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان «فتبارك الله أحسن الخالقين» .

وإن الناس ليقفون دهشين أمام ما يسمونه «معجزات العلم (١)» حين يصنع الانسان جهازاً يتبع طريقاً خاصاً في تحريكه دون تدخل مباشر من الانسان . فأين هذا من سير الجنين في مراحل تلك وأطواره وتحولاته ، وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة في طبيعتها وتحولات كاملة في ماهيتها ؟

غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضين العيون مغلقين القلوب . لأن طول الألفة أنسأهم أمرها الخارق العجيب ، وأن مجرد التفكير في أن الانسان هذا الكائن المعقد كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشيأته في تلك النقطة الصغيرة التي لا تراها العين المجردة ، وان تلك الخصائص والسمات والشيأ كلها تنمو وتفتح وتحرك في مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقاً آخر . فاذا هي ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى . وإذا كان الطفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوراثة البشرية العامة . هذه الوراثة وتلك التي كانت كامنة في تلك النقطة . . .

إن مجرد التفكير في هذه الحقيقة التي تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب .

كل هذا يتم في القرار المكين الذي هو الرحم وان من يدرس تشريح الرحم وموضعه المكين الامين في أسفل بطن المرأة ويرى ذلك الوعاء ذا الجدار العريض السميك ، ثم يرى هذه الأربطة العريضة ، والأربطة المستديرة ، وهذه الأجزاء من البريتون التي تشده إلى المثانة والمستقيم ، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشده أزله وتحميه من الميل أو السقوط . تطول معه إذا ارتفع عند تقدم الحمل ،

(١) لا يجوز اطلاق المعجزة الا على الأمر الخارق للعادة الذي يجري على يد الرسل بقدرة الله.

وتقتصر الى طولها الطبيعي تدريجياً بعد الولادة . إن من يدرس كل ذلك ثم يعرف تكوين الحوض وعظامه يعرف جيداً صدق قوله تعالى :
« ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » .

هـ - « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناهم وما أنتم له بخازنين » .

« ألم ترى أن الله يزرعي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » .

إن العوامل المسببة للأمطار محورها الكهربائية الجوية وقد أشير إليها إشارات واضحة كما سنرى في هاتين الآيتين كما ضمت الآيتان معاني أخرى .

لقد كان الناس قبل يحملون وصف الرياح « باللواقح » على أنها لواقح للزرع والشجر وهذا منهم إغفال للنصف الثاني من الآية . إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه إزكاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه لا إنزال الماء من السماء يشربونه ، أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء من السماء يسقاه الناس فقد تحتم أن يكون « اللواقح » معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ويكون مع ذلك - من ناحية - شبيهاً بلمقاح الأحياء من زروع وحيوان ، ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب ، وما عليك الآن إلا أن تتذكر بعض الحقائق العلمية حتى ترى سر الإعجاز في الآية :

إن تكاثف السحاب مطراً أثر عن الكهربائية ، إذ من السحاب ما كهربائيته سالبة ، ومنه ما كهربائيته موجبة ، والرياح هي أداة اتحاد أنواع السحب حتى يتكون المطر . وهذا هو المراد كما هو ظاهر في الآية من وصف الرياح بأنها لواقح . فالملاحظة هنا بين قطرات أو بين سحب وسحاب والشبه تام بين التلقيح الكهربائي والتلقيح النباتي فكما تتحد الخليتان في حالة التلقيح النباتي لتنشأ بعد

ذلك خلية واحدة لها غير خواص الخليتين الأصليتين فكذلك في حالة اتحاد سحب وسحاب اذ ينشأ عنهما برق ورعد ومطر، اذ ينزل المطر كأثر عنه التفريغ الكهربائي السحابي .

فآية الحجر تلك هي مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن لأن تلاقي السحاب وأثره في نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث .

ثم زادت آية النور معنى الإعجاز « ثم يؤلف بينه » فان التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائي حتى يتجاذب ويتعبأ في الجو تعبئة تتفق مع ما سيخلق عنها من برق وصواعق ومن مطر أو برد .

فاذا كان السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض نشأ السحاب الركام عظيما، فاذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض - كما هو الغالب - نزل المطر الناشيء عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا ، وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات وهو الودق ، فاذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية في ذلك السحاب الركام من القوة والاضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية علوية ومطرية سفلية تكون البرد ونما حتى يصير أثقل من أن يظل في أسر تلك القوى فيسقط على الارض والانسان لا يعرف كثيراً عن الظروف التي يتكون فيها البرد. ولكنه يعرف أنها ظروف يسودها اضطراب جوي عظيم . هذا الاضطراب قد أشارت إليه الآية والى طبيعته اشارتين :

الاولى : حين شبهت السحاب الركام الذي يتكون البرد داخله بالجبال . ومشهد السحاب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فاذا المشهد مشهد الجبال حقا بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها وانه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس إلا

بعدما ركبوا الطائرات .

والثانية : حين أشارت إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوينه بنصها على عظم برقه وشدهته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض أو ما فوق ذلك « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » .

٦ - « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » .

نحن نعلم أن الجو هو تراكم طبقات متتابعة ، تقل فيما بينها كثافة الهواء ابتداء من الأرض ، وفي وسط كهذا يجب أن يكون مسلك الشعاع الضوئي منحنيا طبقا للقانون الثاني للعالمين (الهيثم - ديكارت) وهو قانون الانكسار . . . ان قانون (الهيثم - ديكارت) يقول بأن الشعاع الضوئي الذي ينتشر في مجال ذي كثافة متغيرة باستمرار ينحط في مسيره خطا منحنيا ذا تجويف متجه نحو النقط الأكثر كثافة وفي هذا المجال يقبض الظل « قبضا يسيرا » بالنسبة لما قد يكون عليه في الفراغ الذي لا يوجد فيه انكسار . ذلك توافق عظيم بين ما كشفه الإنسان مما لم يكن معروفا زمن تنزل القرآن وبين القرآن .

٧ - « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » وهكذا يبدو الكون من خلال الآية - بسبب استعمال اسم الفاعل « موسع » الذي يفيد الاستمرار في هذه الحالة - وكأنه في حالة توسع مستمر وكأنه يزداد على الدوام ، هذه المسألة أصبحت الآن من مسلمات العلوم وهي التي هالت (انشتين) عندما اكتشف عالم الطبيعة (هابل) أن الكواكب السديمية تبتعد عن (سد يمنا) واستنبط عالم الرياضة البلجيكي (لو متر) من ذلك نظرية امتداد الكون ، أوليس عجيبا مذهلا أن يضع الوحي دائما معالمه المضيئة أمام الفكر العلمي حتى كأنها تصف له الطريق وهل يستطيع أحد أن يقول بأن معالم كهذه قد انبثقت من عقل أمي .

٨ - « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون » .

« يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً » .

إن في هاتين الآيتين إشارتين واضحتين إلى موضوع دوران الأرض فالآية الأولى تلفت النظر إلى أن الإنسان لأول وهلة يرى الجبال ثابتة ، ولكنها في واقع الأمر تسير تبعاً لسير الكرة الأرضية ذاتها ويذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في حديث الآخرة ولكن نهايتها : « صنع الله الذي أتقن كل شيء » تدل على أنها في عالمنا هذا .

والآية الثانية تشير إلى نفس المعنى وإن كانت الإشارة أبعد وذلك : لنفرض أن الشمس والأرض ثابتتان إذن يكون قسم من الأرض نهراً دائماً وآخر ليلاً دائماً ، فإذا ما فرضنا أن الشمس هي التي تدور حول الأرض فإن في هذه الحالة المنبع الضوئي هو المتحرك وإذن فالنهار هو السائر والليل تابع .

وعلى عكس ذلك في حالة دوران الأرض فالمنبع الضوئي ثابت نسبياً^(١) أي بالنسبة للأرض — وإن كان هو في حد ذاته متحركاً وفي حالة ثبات المنبع الضوئي يكون الليل هو السائر وحركة النهار تابعة وهذا الذي ذكرته الآية إذ قالت : « يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً » فالليل هو الذي يطلب النهار ولا يكون هذا إلا إذا كانت الأرض هي التي تدور حول نفسها ، ولزيادة التوضيح نقول : إذا عمل الفعل — في اللغة العربية — بمفعوليه فالأول منهما يكون فاعلاً في المعنى والثاني مفعولاً ، ولا يصح تقديم ما هو مفعول في المعنى على ما هو فاعل بالمعنى في حالة وجود اللبس وآية : « يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً » عمل فعل بمفعولين كل منهما يصلح أن يكون فاعلاً ومفعولاً . فلا بد إذن أن الفاعل في المعنى يكون هو المقدم فلما قال الله عز وجل « يغشي الليل النهار » دل على أن الليل هو الفاعل في النهار في المعنى وهو الفاعل في قوله عز وجل : « يطلبه حثيثاً » يقول ابن مالك :

(١) يقول علماء الكون اليوم إن للشمس ثلاث حركات . حركة عمودية باتجاه كوكب الجاثي مع الكواكب السيارة ، وحركة حول نفسها ، وحركة مع مجرتها .

والأصل سبق فاعل معنى كمن
من ألبس من زاركم نسج اليمن
ويلزم الأصل لموجب عرى
وترك ذاك الأصل حتماً قد يرى

٩- والآيات القرآنية في هذه الناحية كثيرة لمن أراد أن يتبع وكلها تشير إلى شيء واحد : إن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر فإنك إذ تجد في كلمتين حقيقة علمية ما عرفها الناس إلا في زمن متأخر تصبح أمام شيء خارق جداً جداً .

فعندما يقول : « والجبال أوتاداً » تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التي تقول بأن للجبال جذوراً وتدية في الأرض يعدل امتدادها ضعفي ارتفاع الجبل عن الأرض .

وعندما يقول :

« إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها » تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التي تعب العلم حتى وصل إليها وهي ان الاضطرابات سابق البركان وإن باطن الأرض أثقل من قشرها وإن كانت الآية لم تأت لبيان هذا ولكنها مع هذا لم تتناقض مع النظريات العلمية .
وعندما يقول في قراءة صحيحة :

« وجعل فيها سُجُجاً » عن السماء تجد نفسك أمام حقيقة علمية غير متوقعة فالسراج في اصطلاح القرآن الشمس وفي الماضي لم يكن تعرف إلا شمس واحدة وإذا بالعلم اليوم يقول هذه النجوم كلها شمس .

وعندما يقول :

« والشمس تجري لمستقر لها » تجد نفسك أمام أدق الحقائق عن الشمس التي التي تبين أخيراً أنها تشارك مجرتها في دورتها وتدور حول نفسها وهي

مع هذا تسير في اتجاه عامودي نحو كوكبة الجاثي ويتوقع العلم حدوث حالة ما لها في يوم من الأيام .

وعندما يقول :

« يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » تجد نفسك أمام مسألة كروية الأرض إذ التكوير إنما يكون للشيء الدائري كما تجد نفس المعنى في قوله : « والأرض بعد ذلك دحاها » فالأدحية والأدحوة مبيض النعام .

وعندما يقول :

« وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم » تجد نفسك أمام الحقيقة العلمية التي تقول انه لولا الجبال لكانت قشرة الأرض في حالة تشقق دائم وبالتالي في حالة ميدان واضطراب شديدين .

وعندما يقول :

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً فففتحناهما » تجد نفسك أمام ما كشفه العلم بعد زمن في كلا تفسيري الآية سواء فسرنا « رتقاً » بأنهما كانتا شيئاً واحداً وهذا ينسجم مع أدق النظريات العلمية خاصة السديمية أو فسرنا « رتقاً » بأن الأرض كانت لا تنبت والسماء لا تمطر وهذا ينسجم مع النظريات التي تقول، أن الأرض في الأصل كانت كتلة نارية كالشمس فلم يكن وقتذاك شيء حي أو ماء ، وكلا التفسيرين أشار إليه ابن كثير .

وهذا وأمثاله كثير ولو أنصف العقل عرف أن هذا القرآن أنزله خالق السموات والأرض العليم بهما « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

* * *

ومن خصائص هذا القرآن التي تشير إلى ربانية مصدره ما أشار إليه القرآن بقوله :

«وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم» .

لقد تكلم القرآن عن الماضي وتكلم عن المستقبل وفي كلامه عن الماضي أو المستقبل تنزيه عن الخطأ وجل عن الباطل ، وهو في كلا الأمرين يقدم الدليل الكامل على أنه من عند الله .

وقد حاول ناس أن يقطعوا ببعض أخباره عن الماضي متصورين أن بعد الزمان يجعل كلامهم مقبولاً عند غير المؤمنين ، وهم يدعون في ذلك النقد العلمي ، والنزاهة التاريخية ، ولكن العلم أثبت بالكشوف المحسوسة تخريفهم وصادق القرآن .

« فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عاداً وثموداً ، وأنكر الكوارث التي أصابتهم بغير حجة ، إلا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفي الجراف . فما لبثوا طويلاً حتى تبين لهم أن عاداً (Oadita) وثمود (Thamudida) مذكورتان في تاريخ بطليموس وأن اسم عاد مقرون باسم إرم في كتب اليونان فهم يكتبونها (ادراميت) ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد إرم ذات العماد وعثر المنقب (موزيل التشيكي) صاحب كتاب الحجاز الشمالي على آثار هينكل عند مدين منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه إشارة إلى قبائل ثمود .

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ، ونكبة جيشه ، واهتمامه بتعطيل الكعبة ، وبنائه القليس في صنعاء لصرف العرب عن الكعبة إليها ثم تنكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقباً بالأمير الحبشي من قبل « ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل » .

ويروي الرحالة (بروس) الذي زار بلاد الحبشة في القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون في تواريتهم أن أبرهة قصد إلى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذي يصفونه بصفة الجدري ، ولا يقل عن هذه الأسانيد جميعاً سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بجيل واحد بل أقل من جيل .

إنه ما من شيء تحدث عنه القرآن في الماضي إلا كانت وقائع التاريخ القديم ونصوصه وحفرياتة تؤيده من أدق التفاصيل - حيث يتحدثنا القرآن عن شك بعض النصارى أنفسهم في صلب المسيح ، فتكون فرقة كبيرة من فرقهم قديماً لا تؤمن بصلب المسيح - إلى أكبر الوقائع حيث يتحدثنا القرآن عن الطوفان العظيم الذي تذكره مصادر التاريخ القديم كلها، سواء المصادر المصرية ، أو اليونانية ، أو البابلية ، ويأتي النقيب الحديث ليرى طميه ويحدد مكانه .

وعندما نعلم أن قسماً من أخبار القرآن كان معروفاً عند العرب ، وقسماً كان مجهولاً لا يعرف شيء عنه ، كقصص الطوفان . إذ يقول القرآن عنها « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » ولم يكن هناك مصدر آخر غير الوحي كما هو ثابت تاريخياً يأخذ عنه محمد ﷺ . يتبين كنتيجة لهذا كيف أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون مصدره غير الله عز وجل .

« لا يأتيه الباطل من بين يديه » .

وأما حديثه عن المستقبل ، وتصديق المستقبل حديثه . فذلك أدل في بابه على أنه من عند الله . فما من كلمة قالها القرآن قديماً نقضتها الوقائع على مر الأيام ، حتى هذا الزمان وإلى آخر الزمان . سواء في ذلك ما في القرآن من تشريع أو إخبار أو بيان ولتشريع القرآن محل آخر ندرسه فيه .

وقد رأينا مثلاً في الخاصية السابقة على أن بيانه عن الكون كان موافقاً - ولا يمكن ألا يكون - لكل ما اكتشفه الإنسان من حقائق . ونريد هنا

أن نتحدث عن شيء مما أخبر به عن المستقبل ووقع ، وقبل أن نبدأ بضرب الأمثلة نحب أن نذكر كيف أن في هذه الخاصية دليلاً لا يدحض على أن القرآن من عند الله وذلك :

إن علم الإنسان محدود بالزمان الحاضر والماضي ، أما المستقبل فهو غيب مستور مجهول ، والإنسان يستطيع أن يوازن ويقايس ليصل إلى احتمال في أمر هذا المستقبل ، قد يقع وقد لا يقع وهو أبداً لا يستطيع أن يجزم ، فعندما يحدثنا كتاب عن بعض ما سيأتي حديثاً جازماً ، ثم يقع هذا المخبّر عنه تماماً وقوعاً مطابقاً مرات دون أن يخرم ذلك مرة ، إننا في هذه الحالة لا بد واجدون غير علم الإنسان وإحاطته ، انه لا بد أن يكون ذلك أثراً من علم محيط منكشف أمامه المستقبل كالحاضر والماضي إنه علم الله عز وجل .
وهذه أمثلة مما في القرآن :

١ - « والله يعصمك من الناس » :

روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت فقلت ما شأنك يا رسول الله ؟ قال : « ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة » قالت : فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال : من هذا ؟ فقال : أنا سعد بن مالك ، فقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك يا رسول الله : قالت فسمعت غطيظ رسول الله في نومه .

وروى الترمذي والحاكم عن عائشة وروى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال :

كان النبي ﷺ يحرس بالليل فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : (يا أيها الناس انصرفوا فقاء عصمني الله) .

من هذين الأثرين يتبين لنا أن رسول الله ﷺ كان يحب أن يحرس وكان

يجب أن يحتاط في أمر حماية نفسه وقد حرسه الصحابة حتى نزول هذه الآية التي تجزم أن الرسول ﷺ معصوم من الناس .

لن تستطيع يد قاتل أن تمتد إليه ، وهذا اخبار عن غيب إذ من الذي يستطيع أن يجزم أنه لن يقتل قتلاً مع توفر دواعي التعرض للقتل خاصة لرجل كمحمد ﷺ عاداه الناس جميعاً وصار للعداء مظهر الدم في أمة تأصل فيها معنى الثأر . إن مثل هذا لا يجزم به إنسان متماسك عقلياً ، إن لم يكن مصدر ذلك العلم المحيط .

وتذكر لنا السيرة محاولات كثيرة أعدها اليهود لاغتياله ، ومحاولات كثيرة أعدها المشركون كلها لم تبلغ شيئاً في الوقت الذي لم يكن أي مانع بشري يحول دون تنفيذ الجريمة إلا عناية الله . وعدا عن محاولات الاغتيال فقد كانت معارك الرسول ﷺ كثيرة وكانت خطرة وكان الرسول ﷺ هو هدف العدو فيها ، وما حدث أبداً أن ولى الرسول ﷺ العدو ظهره وكان أقرب أصحابه إلى العدو ساعة المعركة وكانوا يلوذون به إذا حمي الوطيس كما يذكر ذلك صناديدهم ، ومع هذا وذاك فالآية تجزم أن هذا الإنسان معصوم لن يقتل وقد كان .

لقد انتقل الرسول عليه السلام إلى الرفيق الأعلى بيد القدرة الإلهية لا بتسليط إنسان -- ونذكر هنا أثرين يوضحان حماية الله لرسوله في أشد ساعات الخطر تحقيقاً لوعده .

— روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة وروى مسلم في صحيحه عن جابر قال :

كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاع نزل نبي الله ﷺ تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبي ﷺ أتخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله بمنعني منك ضع السيف فوضعه .

— وروى الشيخان: في غزوة حنين اذكشف المسلمون وولوا مدبرين فطفق الرسول ﷺ يركض جهة العدو راكباً بغلته وعمه العباس آخذاً بلجامها يكفها عن الإسراع فأقبل المشركون اليه فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب. كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه فوالله ما نالوا منه نيلاً بل أيده الله بجنده وكف عنه أيديهم بيده.

إن نبوءة تقول لإنسان وهو معرض كل يوم لخطر القتل: لن تقتل. لا يمكن أن يجزم بها رجل يحترم نفسه أن يكذبه الناس ما لم يكن ذلك وحياً من الله الذي يعلم الغيب وبيده الموت والحياة.

٢— «سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر»

نزلت هذه الآية في مكة كما روى البخاري عن عائشة: (نزل على محمد بمكة وإني بلحارية ألعب): «بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» والمسلمون وقتذاك مستضعفون في مكة قليلون رمتهم العرب عن قوس واحدة ولم تكن هناك أية فكرة قتال، ولو كان قتال فلم يكن متوقعاً في ميزان القوة أن يغلب المسلمون، ومع ذلك تنزل هذه الآية المنبئة فلا يفهم المسلمون المراد منها حتى عمر. روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال:

لما نزلت «سيهزم الجمع ويولون الدبر» قال: عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب في الدرع وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ. وقد وقعت الواقعة بعد فترة طويلة تميز بها معسكر الكافرين عن معسكر المؤمنين وأصبح للمسلمين دار، وللمشركين دار، واصطدم بالجمعان، وكان رسول الله ﷺ عارف يومها أنه اليوم الموعود. روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: أنشدك

عهديك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض . فأخذ أبو بكر (رض) بيده وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك . فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » وقد انتصر جمع الإيمان ، وهزم جمع الكافرين وصدق القرآن العظيم ، وآمن المؤمنون أن هذا إنما هو علم الله الذي لا يخطئ .

٣ - « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء » .

— كان المشركون يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة ، يقولون لهم إن الروم أهل كتاب وقد غلبتهم المجوس ، وانتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي انزل عليكم ، فسنگلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية ..

ولقد كان الإنخبار بهذا النصر وبأنه كائن في وقت معين إخباراً بأمرين كل منهما خارج عن تناول الظنون . ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفي من دلائله أنها غزيت في عقر دارها ، وهزمت في بلادها ، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك — إلى أمد طويل — قائمة فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر ، ولذلك كذب به المشركون وتراهنوا على تكذيبه ، على أن القرآن لم يكتب بهذين الوعدين بل عززهما بثالث حيث يقول : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس . سيقع فيه ها هنا نصر للمسلمين على المشركين ، وإذا كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعداً عند الناس أشد الاستبعاد ، فكيف الظن بوقوعهما مقترنين في يوم ؟

لذلك أكد القرآن أعظم التأكيد بقوله « وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ولقد صدق الله وعده فتمت للروم الغلبة على الفرس بإجماع المؤرخين في أقل من تسع سنين ، وكان يوم نصرها هو اليوم الذي

وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى. كما رواه الترمذي عن أبي سعيد ورواه الطبري عن ابن عباس وغيره : فكانت نبوءة ثلاثة في الآية تحققت .

٤ - « ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قولُ البشر سأصليه سقر » .

« تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد » .

النص الاول :

في الوليد بن المغيرة كما هو معروف من أسباب النزول .

والنص الثاني في عم النبي ﷺ وزوجة عمه ، والنصان يخبران في حياة الثلاثة انهم سيدخلون النار وهذا يعني أنهم سيموتون على الكفر ولن يدخلوا في الاسلام وواضح في ذلك الإخبار عن الغيب . فكم من مشرك كان مثلهم ضاللاً وكفراً وعتوا وكيداً بالمسلمين ، ثم كان بعد من المسلمين كأبي سفيان وخالد وعمر بن العاص .. وظواهر الأمر لم تكن تدل على أن الوليد مثلاً أبعد من أبي سفيان عن الاسلام . فلوليد تلك الشهادة العظيمة التي رأيناها سابقاً في القرآن كما ان الآخر عم النبي ﷺ ولكنها النبوءة التي لا تخالف إذ تقول فيكون ما قالت ولم يحدث ان القرآن ذكر انساناً بأنه من أهل النار ثم أسلم .

٥ - « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » .

منع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية واشترطت عليهم قریش إذا جأؤھا فی العام المقبل ان يدخلوها عزلاً من كل سلاح إلا السيوف في القرب ؛

فهل كان للمسلمين ان يثقوا بوفاء المشركين بعقدتهم وقد بلوا منهم نكث
العهود ، وقطع الارحام ، وانتهاك شعائر الله ؟ اليسوا اليوم يحبسون هديهم أن
يبلغ محله ؟ فماذا هم صانعون غداً ؟

على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون
جانبيهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم ؟ الا تكون
هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى فخ ؟ وآية ذلك . اشتراط تجردهم من
السلاح إلا السيف في القراب وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى أنهم لن
ينالوا بأيديهم ورماحهم ولكن لا يأمنون معه ان ينالوا بسهامهم وبنبالهم .

في هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالامور الثلاثة مجتمعة : الدخول
والأمن وقضاء الشعيرة . فدخلوها في عمرة القضاء آمين ، ولبثوا فيها ثلاثة
أبام حتى أتموا عمرتهم ، وقضوا مناسكهم كما أخرج ذلك الشيخان . وكان
من بعد ذلك الفتح القريب .

٦ - كان القرآن بمكة يقص على المسلمين ما يثبت به فؤادهم ، ويعدهم
الأمن والنصر الذي كان لمن قبلهم « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم
لهم المنصورون وأن جندنا لهم الغالبون » .

« انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

كان هذا يوم كانوا في مكة حيث كانوا ينامون على خوف ، ويستيقظون
على خوف . ثم هاجروا إلى المدينة فكيف كان الحال ؟

روى الحاكم وصححه (لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة
وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح
ولا يصبحون إلا فيه فقالوا : أترون انا نعيش آمين مطمئين لا نخاف إلا الله
فنزلت الآية ، « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في
الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم
وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » ... وروى ابن أبي حاتم عن البراء قال :

نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد. فانظر بعد ذلك ماذا كان من نصر وماذا كان من أمن وماذا كان من استخلاف. بلدة عدد سكانها مئآت تقوم بها دولة كل من حولها يعادها ، واذا بها بسنوات تضرب كل جزيرة العرب وتنتصر عليها ، وتضرب أكبر دولتين في العالم دولة الفرس والروم فتنتصر عليهما ، ثم تنساح في الارض فلا يستعصي على سيوف أهلها شعب ولا بلد .

٧ - « وما أنتم بمعجزين في الارض ومالككم من دون الله من ولي ولا نصير »
« وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء » .

إن الكلام عن الشيء فرع تصوره هذا بالنسبة للانسان . أما بالنسبة للذات الإلهية ، فإن الكلام عن شيء أثر العلم به . وأنت ترى في هاتين الآيتين خطاباً للانسان انه لن يعجز الله ، ولكن يلاحظ في الآية الاولى انه مخاطب الانسان على الارض فقط ، وفي الآية الثانية مخاطبه على الارض وفي السماء. فزيادة « في السماء » اذن في الآية الثانية زيادة ذات دلالة كبيرة ، هذه الزيادة فيها معنى النبوة التي تبشر بإمكانية صعود الانسان إلى السماء وتخطيه في كل احواله بأنه خاضع لقهر المشيئة الإلهية غير خارج عما تريد هذه الذات .

يا انسان لن تعجزني على الارض ، وإذا صعدت إلى السماء فلن تعجزني ، ولم يصعد الانسان إلى السماء إلا في عصرنا هذا ، فكأن الخطاب اذن لإنساننا الحالي وذلك من أسرار الإعجاز .

وفي كل حال يظهر لك كيف ان الزمان يظهر ما في القرآن من حق ، وكيف ان هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٨ - « والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » .
« وآية لهم أننا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » .

الآية الاولى ذكرت اصنافاً مما يركبه الانسان وله فيه رينة ، وبعد ان عد هذه الاصناف ذكر انه سيخلق ما لم يعلمه الصحابة المخاطبون الاول بهذه

الآية ، ومن جو الآية نفهم ان هذا الشيء سيخلقه الله عز وجل هو مما يركب وفيه زينة بنفس الوقت غير الخيل والبغال والحمير .

والآية الثانية تحدد نوع تحديد بعض صفات هذه المركوبات وتقول : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » . ترى ما هذا الذي هو من جنس الفلك ويركبه الانسان ؟

لقد كان يومها في مستقبل العيب السفينة الفضائية والطائرة والسيارة والقطار وكل هذه المركوبات التي رأيناها حديثاً تدخل لغوياً في كلمة « وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » .

واذن فنحن امام آيتين تبشران بمركوبات جديدة للانسان ، وقد كان ما بشر به القرآن ، يبقى معنى لا بد من الاشارة اليه وهو اننا نلاحظ تطور المركوبات يوماً بعد يوم كل يوم يأتي بجديد لا يعلمه الانسان قبله وهذا الشيء نفسه نفهمه من آخر الآية الاولى « ويخلق ما لا تعلمون » .

فالقرآن في الحقيقة يخاطب الانسان أبداً في كل زمان ومكان . فعندما أسمع الخطاب اليوم « ويخلق ما لا تعلمون » أفهم ان في غد شيئاً جديداً ، ويكون اذن ما تراه من تطور كل يوم في عالم المركوبات داخل ضمنا في الآية .

واخيراً نقول : ان بعض الصحابة منذ تنزل القرآن فهم ان الله سيخلق للانسان ما يركبه غير ما يعهده الناس قديماً يسير في البر كما تسير السفن في البحر .

٨ - « وقطعناهم في الأرض أمماً » .

« وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » .

« ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » .

هذه الآيات في اليهود وإن واقع التاريخ ، ومستقبل الزمان بالنسبة لعصر تنزل القرآن ، هو الذي يفسرها . فكان ما حدث تفسير القدرة الإلهية للعلم الإلهي ، إذ كان اليهود مشردين طوال هذا الزمان ، كما أخبر الله « وقطعناهم

في الارض أمماً » ومع هذا التقطيع كان العذاب المتواصل من لدن عصر القرآن إلى هذا الزمان .

والتاريخ يقص علينا قصة هذه الحقبة من تاريخ اليهود ، وانه اضطهاد دائم ، وذلة دائمة ، من ملاحقة الاسبان لهم ، إلى مطاردة الكنيسة في كل مكان ، إلى ما وقع لهم في روسيا ، وآخر انباء هذا العذاب ما ساءهم إياه النازيون مما يعرفه أهل الأرض جميعاً . هذه صورة مما وقع لهم في الغرب ، والصورة الأخرى التي وقعت لهم في الشرق والغرب انهم أبداً محكومون من غيرهم ، وانهم أبداً يعانون حياة الذلة ، وفي هذا وذلك عذاب « وإذ تأذن ربك لبيعن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » .

ثم حدث ان عظفت عليهم الشعوب والحكومات . امريكا ، وانكلترا وروسيا ، وفرنسا ... والناس فكان لهم ما يسمى دولة فارجمع بعد ما ذكرناه إلى الآية الثالثة ترى كيف تمت النبوة « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » .

عذاب متواصل وذلة دائمة إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، فلما كان هذان الحبلان . صار لهم دولة ، ولكن الآية الاولى تذكر ان العذاب لن ينقطع عنهم إلى يوم القيامة . لذلك فهم على موعد معنا نحن المسلمين « انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » . وفي التوراة الحالية المحرفة هذا القول « سأجمعك يا إسرائيل في ارض الميعاد ثم أذبحك ذبحاً » وسيعملون ماذا سيفعل بهم جند الله بعد أن تنتهي هذه الردة عن الاسلام إن شاء الله .

٩- والذي يريد أن يتتبع هذا النوع مما في القرآن يجد الكثير . ففي آية « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » نبوءة تحققت وفي آية « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » نبوءة تحققت وفي آية « سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » نبوءة تحققت . مظهرها ما كشف الانسان من علم وما يكشف ، وفي آية « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا » نبوءة تحققت وفي

آية « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » نبوءة تحققت .
والشيء الذي نريد ان نخرج به هو أن القرآن إذا قال فذلك العلم الذي لا
يخطئ لأنه علم الله المحيط .

غير أن فهمنا للقرآن قد يخطئ وهذا هو البلاء الكبير عندما نفهم القرآن
فهماً خاطئاً ، ونعطيه للناس ، بل نلزمهم به أو يلتزمون . وهذا خطر كبير .
لذلك ينبغي أن نكون على حذر عندما نقرأ تفاسير القرآن : وكل مفسر فهم
القرآن على ضوء ثقافة عصره فقدم لنا فهمه للقرآن تفسيراً للقرآن وشتان بين
الفهم الخاطيء للقرآن وحقيقة القرآن .

- ٤ -

شيء آخر يملك على ان هذا القرآن مصدره الله عز وجل ، وانه ما كان
ليكون هكذا لولا انه منزل من عند الله الذي أحاط علمه بكل شيء . هذا
الوجه الذي نريد ان نتحدث عنه الآن هو الذي اشارت اليه الآيات القرآنية
التالية :

« ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » .
« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من
الكتاب ويعفو عن كثير » .
« وما أنزلنا اليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة
لقوم يؤمنون » .
« ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه » .

* * *

إن الدراسات النقدية للتوراة لم تعترف بالصحة إلا لسفر واحد من أسفارها .
هو سفر « ارمياء » كما يذكر (مونتيه) في تاريخ الكتاب المقدس ، وليس
الانجيل بأسعد حالاً . فقد ألغى مجمع أساقفة (نيقية) كثيراً من أخباره مما
زرع الشك حول ما تبقى منه وهو الاناجيل . وهذه الأخيرة بدورها لا تعتبر

الآن من الصحاح ، لأن النقد أثبت أنها قد وضعت بعد المسيح بأكثر من قرن أي بعد عصر الحواريين الذين تنسب اليهم التعاليم المسيحية وعلى هذا فان شكوكاً كثيرة تحوم الآن حول القيمة التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية .

ان انجيلا واحداً نطق به عيسى على انه كلمة الله ، فلم يكن الانجيل أربعة ولم كان بينها اختلاف وتعارض وزيادة ونقص ، ولقد لعن ارمياء في سفره المذكور (أقلام النساخ الكاذبة) .

ومن هنا كان للقرآن فيما يتعلق بهذه الكتب مواقف كل منها يشير إلى ربانية مصدره ، حيث ان هذه المواقف كلها تدل على علم مطلق لا يأتيه الشك ، حتى يتحدى في بعض المواقف ان يأتوا بالتوراة ليشبوا ما يدعون مما يذكر القرآن خلافه « كل الطعام كان حلالاً لبني اسرائيل إلا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » .

— أول هذه المواقف أن التوراة والزبور والانجيل ، هذه الموجودة حالياً ليست هي بالضبط الكتب السماوية الاصلية بل داخلها تحريف وتبديل ، ونُسي قسم منها وقد رأينا موقف النقد العلمي العقلي النصراني من هذا الموضوع وكلمة ارمياء التي تتفق مع ما ألح القرآن عليه :

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » . « يحرفون الكلم من بعد مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به » .

— الموقف الثاني :

ذكر القرآن الكريم كثيراً مما كان في التوراة والانجيل من معان ووحى ، وعندما نستعرض هذه النصوص ونقرأ التوراة والانجيل فأننا نجد هذه النصوص قد طابقت ما في التوراة والانجيل ، مما يدل على ان قسماً من التوراة والانجيل

لم يحرف ، وعلى أن الله العليم بما أنزل هو منزل القرآن . اذ لا شك تاريخياً
كما مر ان محمداً ليس له أي اطلاع على كتب دينية او غير دينية :
وهذه الامثلة :

١ - يقول القرآن :

« وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد
حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار» . «وإذ قال الله يا عيسى
ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما
يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي
ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن
اعبدوا الله ربي وربكم» .

ويقول انجيل يوحنا الفقرة الثالثة الباب السابع عشر (وهذه هي الحياة
الابدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) .

ويقول انجيل مرقس الباب الثاني عشر (٢٨) (فجاء واحد من الكتبة وسمعهم
يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله أية وصية هي أول الكل فأجابه
يسوع ان أول كل الوصايا اسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد وتحب الرب
اهلك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه
هي الوصية الاولى) .

ويقول انجيل متى الباب التاسع عشر (١٦) (وإذا واحد تقدم وقال : أيها
المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الابدية فقال له لماذا تدعوني
صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله) .

وهذه نصوص صريحة في الاناجيل الحالية تثبت ان دعوة عيسى كانت للتوحيد
وانه رسول ثم كان الانحراف وأتى القرآن ليصحح الانحراف .

٢ - يقول القرآن على لسان عيسى «ومصافاً لما بين يدي من التوراة»

ويقول « وأنزلنا الانجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة » .
ويقول مخاطباً لنا « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك
وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .
ويذكر انجيل متى اصحاح (٥) على لسان عيسى : لا تظنوا أنني جئت
لأنقض الناموس أو الانبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل فاني الحق اقول لكم
إلى ان تزول السموات والارض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من
الناموس حتى يكون الكل فمن نقض احدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس
هكذا يدعى أصغر في ملكوت السموات واما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً
في ملكوت السموات فاني اقول لكم : ان لم يزد بركم على الكتبة والقديسين
ان تدخلوا ملكوت السموات » .

٣ - يقول القرآن :

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف
والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له » .
وفي الاصحاح (٢١) من سفر الخروج .

وهذه هي الاحكام التي تضع امامهم (من ضرب انساناً فمات يقتل قتلاً
ومن ضرب اباه أو امه يقتل تتلاً وان حصلت أذية تعطى نفساً بنفساً وعيناً بعين
وسناً بسن ويداً بيد ورجلاً برجل وكياً بكى وجرحاً بجرح ورضاً برضى) .

٤ - يقول القرآن :

« هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها » . « ولقد خلقنا
السموات والارض وما بينهما في ستة ايام » . « هو الذي خلق لكم ما في الارض
جميعاً » .

وتقول التوراة في الاصحاح الاول من سفر التكوين بعد ذكر قصة الخلق .
(وقال الله نعمل الانسان فخلق الانسان ذكراً وانثى وباركهم الله وقال لهم
أثمروا واملأوا الارض وأخضعوها وتسلطوا وكان .. يوماً سادساً) .

وفي الاصحاح الثاني من سفر التكوين :

— (فأكلت السموات والارض وكل جندها) .

— (هذه مبادئ السموات والارض حين خلقت يوم عمل الرب الاله الارض والسموات) .

— (وجعل الرب الاله آدم تراباً من الارض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية) .

— (فأوقع الرب الاله ثباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من اضلاعه وملاً مكانها لحماً وبني الرب الاله الضلع التي اخذها من آدم امرأة وأحضرها إليه) .

ه — يقول القرآن :

« ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم » ويقول « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » ويقول « ألم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً » ويقول « وما من دابة إلا على الله رزقها » .

وفي سفر أيوب اصحاح (٣٨) اجاب الرب ايوب وقال : (شد الآن حقوبك كرجل — أي قف باستعداد — فاني اسألك فتعلمني : اين كنت حين اسست الارض ؟ اخبر ان كان عندك فهم من وضع قياسها وعلى أي شيء قرت قواعدها أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله . من حجز البحر بمصاريح حين اندفق من فم الرحم هل تربط انت عقد الثريا أو تفك ربط الجبار اتخرج المنازل من اوقاتها وتهدي الشمس مع بناته من يهيء للغراب صيده إذا نعب فراخه إلى الله فأجاب ايوب الرب وقال : ها انذا حقير فماذا أجابوك وضعت يدي على فمي » .

٦ - يقول القرآن :

« ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ويقول « ليس كمثله شيء » ويقول « لله ملك السموات والارض » .

وتقول التوراة سفر الخروج :

« الرب يملك إلى الدهر إلى الأبد » (ص ح ١٥ وفي الاصحاح (٣٧) « عند الله جلال مرهب القدير لا ندركه عظيم القوة والحق وكثير البر » وفي الاصحاح (٣٣) « هوذا الله يتعالى بقدرته من مثله » « هوذا الله عظيم ولا نعرفه وعدد سنيه لا يفحص » .

٧ - يقول القرآن :

« وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون » . ويقول « ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بشما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح » ويقول « وانظر إلى إلهك الذي ظلمت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً » .

وفي الاصحاح (٣٢) من سفر الخروج (فانصرف موسى ونزل من الجبل ..) وكان عندما أقرب إلى المحلة انه أبصر العجل والرقص فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه ...

ثم أخذ العجل الذي صنعوه وأحرقه بالنار حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء .

٨ - يقول القرآن متحدثاً عن موسى :

« قال رب ارني أنظر اليك قال لن تراني » .

وفي الاصحاح (٣٣) من سفر الخروج (فقال موسى : ارني مجدك) (١٨) . قال لا تقدر أن ترى وجهي لأن الانسان لا يراني ويعيش) (٢٠) .

٩ - يقول القرآن :

«وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين احساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً» .

وفي الاصحاح العشرين من سفر الخروج : (انا الرب الهك الذي اخرجك من ارض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى امامي لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة بما في السماء . . . لا تسجد لمن ولا تعبدن لاني أنا الرب الهك غيور واصنع احساناً إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي ..)

١٠ - يقول القرآن في سورة يوسف عن يوسف

« إذ قال يوسف لآبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » ويقول سفر التكوين الفصل (٣٧) (قال رأيت حلماً ايضاً كان الشمس والقمر واحد عشر كوكباً ساجدة له) .
ويقول القرآن على لسان اخوة يوسف .

« اقتلوا يوسف أو اطرحوه ارضاً يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابت الحب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين » .
وفي سفر التكوين

(والآن تعالوا نقتله ونطرحه في بعض الآبار ونقول : ان وحشاً ضارياً افترسه ونرى ما يكون من أحلامه ، وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دماً اطرحوه في هذا البئر التي في البرية) .
ويقول القرآن :

« يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب .. »
« وجاؤا على قميصه بدم كذب » .
وفي سفر التكوين :

(فأخذوا قميص يوسف وذبجوا تيساً من المعز وغمسوا القميص في الدم ..
وحش ضار أكله افترس يوسف افتراسا) .

ويقول القرآن :

« وراودته التي هو في بينها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال
معاذ الله إنه ربي احسن مثواي » .

وفي سفر التكوين :

(وكان بعد هذه الأمور ان امرأة مولاه طمحت عينها إلى يوسف وقالت
ضاجعني فأبى وقال لامرأة مولاه هوذا مولاي لا يعرف معي شيئاً مما في البيت
وجميع ما هو له جعله في يدي ... فاتفق في بعض الايام انه دخل البيت ليتعاطى
أمره ولم يكن في البيت أحد من أهله فأمسكت بثوبه وقالت ضاجعني) .

ويقول القرآن : « وقال الملك إني ارى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع
عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ افتوني في رؤياي إن
كنتم للرؤيا تعبرون قالوا اضغاث احلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين » .

ويقول سفر التكوين :

(ان فرعون رأى حلماً كأنه واقف على شاطئ النهر فإذا بسبع بقرات
صاعدة منه وهي حسان المنظر وسمان الابدان فترعت في المرج وكان سبع
بقرات أخرى صاعدة وراءها من النهر وهي قباح المنظر وعجاف الابدان
فوقفت بجانب تلك على شاطئ النهر فأكلت البقرات القباح المنظر العجاف
الابدان السبع بقرات الحسان المنظر السمان ...

ثم نام فحلم ثانية فرأى كأن سبع سنابل قد نبقت في ساق واحدة وهي
سمان جياذ وكان سبع سنابل دقاقاً قد لفحتها الريح الشرقية نبقت وراءها
فابتلعت السنابل الدقاق السبع السنابل السمينه الممتلئة واستيقظ فرعون فاذا هو
حلم فلما كانت الغداة انزعجت نفسه فبعث ودعا جميع سحرة مصر وجميع

حكماؤها فقمص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون) .

* * *

من هذه النقول نعرف معنى الآية القرآنية التي ختمت بها سورة يوسف « ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه » ونعرف كذلك وحدة الوحي ووجوده إذ رأينا ان سيدنا محمداً ﷺ لم يتلق أي تعليم سابق مما يوهم ان مثل هذا التلاقي وليد دراسة ، كما ان البيئة العربية لم تكن منتشرة فيها هذه المعاني ابداءً ، ولم تكن تعرفها ، بدليل الآية التي ذكرت في سورة يوسف عقب القصة « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ اجمعوا امرهم وهم يمكرون » .

فعندما يتم التلاقي بين معنى ذكره الانجيل أو التوراة أو الزبور مع معنى موجود في القرآن ، مع ملاحظة ما ذكرناه آنفاً فذلك دليل لا يلحظ على ان هذا القرآن من عند الله « لكن الله يشهد بما انزل اليك أنزله بعلمه » .

— الموقف الثالث :

رأينا فيما مضى ان التوراة والانجيل والزبور في الأصل من عند الله ، ورأينا كذلك أنها قد داخلها تحريف وتبديل وتغيير ونسيان وضياح ، والشيء العادي إذن بعد هذا ، أن تحدث انحرافات ضخمة نتيجة لهذا ، ومفاهيم خاطئة ، وتصورات فاسدة ، واختلافات كثيرة ، ويأتي القرآن ليصحح لهم هذه المفاهيم كلها ، وهذه الأخطاء كلها ، وهذه الانحرافات كلها . فيبين ويوضح ويوبخ ويعاقب ويدعو وينذر ، ويعلل ويوضح ، ويطالب ويأمر ، وينهي يجزم وحزم وتعليم وإرشاد وأستاذية مطلقة ، وسيادة بينة . فرداً اليهود والنصارى معاً إلى القصد وإلى الطريق المستقيم . « ان هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا ليبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » .

وهذه أمثلة:

١ - أعطى قسم من الكتابيين العصمة لبعض البشر ممن ليسوا بأنبياء ، فاطاعوهم وعطّلوا نصوص الكتب السماوية ، كما هو مشاهد الآن عند النصارى مع البابا . فقال لهم « اتخلّوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » . وقال :

« يا أهل الكتاب لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل » .

٢ - ووصف بعض الكتابيين الله بصفات خلقه . فقالوا عنه انه خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع فقال لهم ولغيرهم . « ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » .

٣ - ووقف اليهود من عيسى بن مريم وأمه موقفاً منكراً فقال عنهم : « فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّهه لهم » .

٤ - وأله بعض النصارى عيسى بن مريم فقال : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابنُ مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » . وقال بعض النصارى بالتثليث فرد عليهم :

« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد » ووضع عيسى واهله في المحل الصحيح « ما المسيح ابنُ مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل واهله صِدِّيقَةٌ » كانا يأكلان الطعام » .

٦ - وتصور بعض الكتابيين أن إثمهم يحمله غيرهم وأن الإنسان آثم بالأصل فقالوا بالخطيئة الأزلية ورفعها بالمسيح « فقال ليس بأمانيكُم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به » .

وقال :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » :

والأمثلة كثيرة جداً على هذا في القرآن ، كثرة تلفت النظر لدرجة أن الإنسان لا يشك بتاتاً إذا طالع هذه الكتب كلها . إن القرآن قد استوعب معانيها وأصلح ما أفسدوه فيها ، وأقام الناس على الحق الذي لا شبهة فيه ، ويخرج أخيراً بهذه النتيجة .

إن الحديث عن الكتب السماوية وأهلها في القرآن يدل على علم محيط كامل بهذه الكتب وأهلها ، ويدل على علم محيط كامل في مواطن الخلاف التي لم يكن منها شيء معروف في جزيرة العرب ، ويدل على علم محيط كامل في مواطن الانحراف ، وكذلك بالتناقض بين النصوص ، كأثر عن هذا الانحراف واستعمال دقيق كامل للمصطلحات الكتابية . هذا مع أمية الرسول ﷺ ووجود هذه الكتب في غير اللغة العربية ، وعدم انتشارها ، وجهل البيئة العربية بمضامينها ، وثبوت أن الرسول ﷺ لم يتلق تعليماً من أحد .

إن هذا كله لا شك يثبت أن هذا القرآن وحي من عند الله .

* * *

- ٥ -

وآخر ما نريد ذكره في فصل المعجزة القرآنية . هذه الخطوط العامة حول لغة القرآن ، وأسلوب القرآن ، وفي ذلك برهان أي برهان على كون هذا القرآن من عند الله .

إن المبتدئ في طريق ليس له فيها تجربة سابقة ولا لأحد قبله زيادة فيه ، يختلف وضعه عن المجرب الخبير ، أو من صاحب المجربين واستفاد من خبرتهم ، كما يقال هذا في الحل والترحال ، يقال مثله عن عالم الأدب ، لم كان حسان بن ثابت في الجاهلية أقوى شاعرية منه في الإسلام ؟

لأن المعاني التي كان يتحدث عنها في الجاهلية معان مطروقة من شعراء قبله . قالوا فيها كثيراً ، وفتحوا فيها آفاقاً واسعة استفاد منها ، فقال وأجاد .

أما في الإسلام فالوضع يختلف . فقد أتى الإسلام بمفاهيم جديدة وقيم ومثل عليا تختلف عما في الحياة الجاهلية ، وأقام نظاماً للحياة على أسس معاكسة تماماً لما كان عليه الناس ، والمعرفة بين جديد وقديم . فكان إذن هو يتحدث عن هذا الشيء الجديد كله رائداً غير مسبوق ، فشئ عادي إذن أن يكون شعره الإسلامي أضعف من شعره الجاهلي . إن زهير بن أبي سلمى لم يكن شعره بهذه الجودة لو لم يستفد من تجربة حنجر الشعرية ، ولولا شعر زهير ما كان الخطيئة جيد الشعر ومعاني هؤلاء واحدة .

هذه قضية ينبغي أن تكون على ذكر منا ، ونحن نتحدث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن .

وجرت عادة الناس أن لغة الأدب غير لغة القانون ، ولغة المخاطبة غير لغة الشعر ، وطريقة التعبير عن القضايا العلمية ، تختلف عن طريقة التعبير في قضايا الخيال والتصور أو العاطفة ، وفي الأدب عادة يشطح الخيال فيقرب البعيد ويبعد القريب فيكون كذب وشطط وإسفاف ومجاجة ..

وهذه قضية ثانية ينبغي أن تكون على ذكر منا كذلك والاديب عادة ينتزع الصورة من بيئته ، ومن محيطه مما يشاهده أو يسمعه فيحلل ويركب ويغوص ويخلق ويدفق ، ولكنه لا يخرج عن بيئته ومحيطه : من زهير إذ يقول :

ترى العين والآرام في عرصاتها واطلاؤها ينهضن من كل مجثم
إلى علي بن الجهم إذ يقول للخليفة :

انت كالكلب في الحفاظ على الود وكالتيس في قراع الخطوب
وهذه قضية ثالثة كذلك ينبغي أن نتذكرها أثناء الحديث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن .

وأي شاعر تكلم ، وأي أديب قال أو كتب ، لو عرض عليه ما قال بعد مدة من قوله أو كتابته ، لغير أو بدل أو قدم أو آخر ، وأي قول قيل يمكن أن ينتقله الناقدون . فيرون كلمة أجود من كلمة ، وحرفاً أجمل من حرف ، وجرساً اللطف من جرس ، أو أكثر مناسبة ، وقد تجد القصيدة الجيدة فتجد فيها كلمة غير مناسبة لما قبلها ، أو جرساً غير منسجم مع معنى ، إلى آخر ما هو معروف عند نقاد الكلام ، ولا تخلو قصيدة قيلت من أن توجد كلمة فيها يوجد غيرها أفصح منها أو أدق تعبيراً أو أجود معنى .

وفيما رأيناه من نقد الخنساء لحسان في أوائل هذا البحث مثال كاف ، فإذا ما اتضحت هذه القضايا كلها نقول : إن إنساناً يعقل لا يستطيع أبداً أن يتصور أن هذا القرآن من عند محمد ﷺ أو سواه من البشر ، بل لا بد أن يكون مصدر هذا القرآن الذات العليا ذات الله عز وجل :

١ - فالقرآن لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية . فما فيه من صور وما فيه من أمثال جل عن طوق الفكر وبعد عن قدرة البشر . خذ مثالين على ذلك :

أ - «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » إن هذا النص وخاصة المثل الثاني منه لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية ولا وليد العصر الذي وجد فيه ولا تعرف لماذا ؟ إقرأ هذا التعليق : (في هذه الآية إشارة إلى الأمواج الداخلية والسطحية فأضخم أمواج المحيط وأشدّها رعباً هي أمواج غير منظورة تتحرك في خطوط سيرها الغامضة بعيداً في أعماق البحار وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة أن سفن البعثات إلى القطب الشمالي كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى بالماء الميت ، والذي عرف الآن بأنه أمواج داخلية . وفي عام ١٩٠٠ لفت الانظار كثير من مساحي البحار

الإسكندنافيين إلى وجود أمواج تحت سطح الماء والآن بالرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التي ترتفع وتهبط بعيداً أسفل السطح فإن حدوثها على نطاق واسع في المحيط قد أصبح أمراً معروفاً جيداً ، فهي تقذف بالغواصات في المياه العميقة كما تعمل شقيقاتها السطحية على قذف السفن . ويظهر أن هذه الأمواج تتكسر عند التقائها بتيار الخليج ، وبتيارات أخرى قوية في بحر عميق ، فالآية القرآنية تقول : « في بحر لجي » إذن الكلام عن بحر عميق « يغشاه موج من فوقه موج » إذن أمواج داخلية وأمواج سطحية « من فوقه سحب » إذن الكلام عن مكان يكثر فيه الضباب والصورة إنما تنطبق على الإنسان إذا كان تحت الأعماق أي تحت الأمواج الداخلية . مثل هذا التصوير معجز لا يتصور من رجل الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرناً .

ب - « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .. « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » مثل هذه الصبورة مما لا يخاطر على قلب بشر في التعبير عن سعة علم الله بالكلمات التي تعبر عن هذا العلم الذي لا يتناهى بهذا التصوير البالغ الروعة الموجز الواضح السهل . أن تنقلب الأشجار كلها أقلاماً والبحار كلها حبراً وفوق البحر أبحر وتبدأ الأقلام بالكتابة وينفد ماء البحر وتبقى بعد ذلك الكلمات لا تتناهى ، إن الأمة التي كان تصورها عن الإله أن تصنع صنم التمر ثم تعبده ثم تأكله ، ليس بالامكان ان يصدر عن فرد من أبنائها مثل هذا التعبير والتصوير ولكنه كلام الله .

٢-والقرآن الكريم نزل منجماً خلال ثلاث وعشرين عاماً وكتاب تم جمعه وكماله خلال هذه الفترات الطويلة لا بد إلا إذا كانت المسألة غير عادية أن يكون هناك اختلاف في أسلوبه قوة وضعفاً ما بين بدايته إلى نهايته ولا بد أن يكون هناك اختلاف في المضامين . وهذا شيء يلاحظ عند كل من تعاطى

صناعة الكلام ، وصناعة الأفكار ، وصناعة الإصلاح وصناعة الأمم . التجربة تغير الرأي ، والتجربة تقوي الأسلوب ، وليست آراء الإنسان بعد عشرين عاماً من العمل الاصلاحى هي نفسها قبل العشرين ، ولكنك في القرآن تجد ظاهرة الوحدة في الاسلوب سواء في ذلك ما نزال أولاً أو ما نزل أخيراً وسواء في ذلك النص التشريعي ، أو النص الوعظي أو النص الوصفي أو النص القصصي ، وظاهرة الوحدة في المعاني فلا تجد معنى متأخراً ينقض معنى متقدماً ، بل يتممه وكل ذلك يتم بلا تدبير أو ترتيب أو تفكير يخرج النص الموحى به من فم رسول الله ﷺ فيأخذ محله في القرآن ، ويبقى كما هو بلا تغيير ولا تبديل ، ويبقى هذا الاسلوب متميزاً متفرداً ما عرف له مثيل من قبل ومن بعد مختلفاً عن أسلوب محمد ﷺ نفسه في الكلام مع بقاء معاني القرآن أعظم وأحكم وأروع ما سمعته أذن الانسان . فالمسألة بانصاف ليست بشرية الصنع وهذه أمثلة على وحدة الأسلوب ووحدة المعاني .

١ - من النصوص التشريعية في القرآن :

«يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدةً فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وابتناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله والله عليم حكيم » .

ومن النصوص القصصية :

«وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين» .

«وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » .

ومن النصوص الوعظية :

«يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعد لك» ، في

أي صورة ما شاء ركبك كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراماً
كاتبين يعلمون ما تفعلون إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم .

ومن النصوص الوصفية :

« ألم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجاً . وجعلنا
نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً . وبثينا فوقكم سبغاً
شداداً . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وانزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً . لنخرج به
حباً ونباتاً . وجنات الفافأ . »

هذه النصوص كما ترى بعضها نزل سابقاً وبعضها نزل لاحقاً، وكل يتحدث
عن معنى . ولكن هل تجد اختلافاً في الأسلوب ؟

إن إنساناً ذا عقل لا يستطيع أن يحكم على هذه الظاهرة إلا أنها خارقة للعادة .

— أول آية نزلت في الخمر قوله تعالى :

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرأ ورزقأ حسناً . »

فتعبير السكر والرزق الحسن دل على أن السكر غير الرزق الحسن ، فكانت
أول آية غمزت من الخمر . ثم تأتي الآية الأخرى « يسألونك عن الخمر والميسر
قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما . »

ثم تأتي الآية الأخرى

« لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »

« ثم تنزل الآية الأخيرة »

« إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه »
فهل تجد تناقضاً بين أول آية ذكرت الخمر وآخر آية . وعلى هذا فقس . فالقرآن
تكامل خلال ثلاث وعشرين عاماً . ما نقض معنى متأخر معنى متقدم بل أكمله
وأوضحه وتممه . وصدق الله العظيم « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافاً كثيراً . »

٣ — والقرآن الكريم طرق معاني ما طرفها أحد من قبل في أمة العرب .

فالمفروض لو كان الأمر بشريا ، أن يرى آثار ذلك من ضعف صياغة ، وقلب كلمات ، وتلعم وتكلف إلى غير ذلك ، إلا أن الواقع غير ذلك فقد تحدث القرآن عن الجنة والنار والملائكة والانسان والجن والأخلاق والسياسة والكفر والإيمان ، وتحدث عن الذات الإلهية ، وناقش المعارضين ، وأفحم المجادلين ، وهو في ذلك كله في أعلى طبقات البلاغة ، وفي أعظمها ، وكل من أتى بعد وتحدث عن أي معنى طرقة القرآن ، كان فيما قال أقل إلى درجة الثلاثين إذا قيس ما قيل إلى لغة القرآن . لدرجة أنك لا تستطيع أن تجد في اللغة العربية كلها كلمة تحل محل الكلمة القرآنية بجمالها وجرسها ، وما تعطيه من معنى ، ومناسبتها لما قبلها وبعدها . هذه البلاغة العظيمة كلها لم يرافقها شحطة فكر ، ولا كذبة خاطر ، ولا لفظة غير واقعية . بل الحق الذي لا يناقش فيه واحد .

ونرى ذلك بشكل مضطرد من أول القرآن لآخره . كتاب ضخم لا يتخلف فيه حرف عما قلناه ، وزيادة على ذلك فإن الكلمة القرآنية ، والآية القرآنية تكاد تعطيك معناها وإن لم تعرفه ، وتكشف لك عما فيها وإن لم تفهم ، فجرس الحرف ، ومحل الكلمة في الآية ، ومحل الآية في السورة ، كل ذلك عجيب ، .مظهر عجبه أن هذا الكتاب على كونه أعلى طبقة من طبقات البلاغة عرفه الانسان . فانه سهل لدرجة أنه يفهمه كل إنسان ، ولكن كل إنسان يأخذ منه على قدر طاقته العقلية والروحية والقلبية . وكلما ارتقى أكثر كان في القرآن أكثر ، وكلما أتى جيل وجد في القرآن جديداً تفهمه الأجيال كلها . ولا تحيط بما فيه الأجيال كلها وصدق الله « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

يقرؤه عالم الإقتصاد المختص ، فيستخرج منه أرقى ما ترقى به الحياة الإقتصادية للإنسان ، ويكتب في ذلك كتاباً ضخماً وفي القرآن مزيد لمستزيد .

يقرؤه عالم الجيولوجيا فيجد فيه أعجب ما اكتشف علم الجيولوجيا في القرن العشرين ، فيؤلف في ذلك كتاباً ضخماً وفي القرآن مزيد لمستزيد .

ويقرؤه عالم الفلك فيجد فيه أعجب ما عرف الإنسان في الفلك وفي القرآن
مزيد ...

ويقرؤه عالم الاجتماع فيرى أن الحياة الاجتماعية إذا خرجت عن سنن
القرآن كان في ذلك دمارها .

ويقرؤه ويقرؤه أصحاب كل اختصاص فيرون أنهم لا يسعهم أن يكونوا
إلا تلاميذ صغاراً ولا يحيطون بأسراره علماً .

ويقرؤه الرجل العادي فيفهمه فيتذكر ويبكي ويتعظ . إنه كتاب كل إنسان
وإن كان بيانه أرقى من كل بيان ، وكلمته أفصح من كل كلمة ، حتى أنك
لو فتشت في كل قواميس اللغة عن كلمة تحل محل الكلمة القرآنية فتكون أجمل
منها أو أحكم أو أفصح أو حاولت أن تقدم كلمة منه عن محلها أو تحذفها أو
تؤخرها بحيث يكون ما فعلت أحسن مما كان فإنك لا تستطيع مهما بذلت من
جهد . بل تنقطع أنت وشيطانك ويبقى القرآن هو القرآن . وزيادة على ذلك فإنك
لا تجد الكلمة التي تعطيك المعنى المقصود بأبعاده كلها كالكلمة القرآنية .
وهذه أمثلة توضح هذا الذي قدمناه هنا .

١ - « ولنكم في القصاص حياة » .

قارن هذا التعبير بأي كلمة قالتها العرب في معناها أو يمكن أن تقولها فإنك
ستجد الفارق الكبير بين التعبير القرآني وأي تعبير آخر . فمثلاً قال العرب في
معنى الآية ما يلي : (قتل البعض أحياء للجميع) وقالوا (أكثروا القتل ليقتل
القتل) وقالوا (القتل أنفى للقتل) ولعل آخرها أجودها فلنقارنه في الآية لنجد
أن التعبير القرآني أفصح وأبلغ وأحكم في ستة أوجه وبعضهم أوصلها إلى
أكثر من عشرة :

أ - إن التعبير القرآني أخصر لأن المقارنة ما بين كلمتي (القصاص حياة)
و (القتل أنفى للقتل) .

ب - إن قولهم (القتل أنفى للقتل) فيه التباس إذ ظاهره أن القتل سبب لانتفاء

نفسه بخلاف لفظ القرآن فإنه واضح فيه أن نوعاً من القتل وهو القصاص سبب لنوع من أنواع الحياة .

ج- في قولهم (القتل أنفى للقتل) كررت كلمة القتل مرتين اما التعبير القرآن فذكرت فيه كلمتا قصاص وحياة .

د- في قولهم (القتل أنفى للقتل) لم يشمل إلا نوعاً مما ينبغي القصاص فيه . أما التعبير القرآن فشمل القتل وغير القتل ، من ما القصاص فيه سبب من أسباب الحياة السعيدة الآمنة .

هـ- إن القصد من القصاص حفظ الحياة الإنسانية ولذلك كان تعبير القرآن أجود ، إذ أوضح المقصود مباشرة من تعبيرهم الآخر إذ ذكر المقصود تبعاً .

و- وأخيراً فإن تعبيرهم قاصر وموهم وخاطيء : إذ قد يكون القتل سبباً لكثرة القتل كالقتل ظلماً ، فتعبيرهم عمم مع أنه ما كل قتل نافياً للقتل على خلاف التعبير القرآن . فانه صحيح شامل غير موهم ، صادق ظاهراً وباطناً . كيف قلبته اعطاك معنى صحيحاً .

وفي تعريف كلمة القصاص وتنكير كلمة الحياة في التعبير القرآن ، معاني عظيمة كبيرة أما هنا فليس في تعريف ولا إخبار أي ميزة .

٢- «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل»
هذا مقطع أمرت به الأمة الإسلامية بالاستعداد ، وكان هذا الأمر لها في كل زمان ومكان . وشمل كل ما يلزم من أمر الإعداد والاستعداد ولنحاول أن نفهم النص :

من : في اللغة العربية تأتي للجنس أحياناً وهذا معناها هنا ، والتموه فسرّها الرسول ﷺ بالرمي فلما قال الله «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» صار المعنى وأعدوا لهم ما تستطيعون إعداده مما يرمى به ، أي من جنس ما يرمى به ، فشمل ذلك السهم والصاروخ والمدفع والقنبلة الذرية ، وكل ما يمكن

أن يخترعه الإنسان من أدوات الرمي ، ولما قال «ومن رباط الخيل» أي وجنس رباط الخيل ، فشمّل ذلك كل ما يركب للمعركة أي شمل التعبير كل الآليات .

أرأيت الإعجاز الواضح إذ يسع النص القرآني الزمان كله ، والمكان كله ، ولو أذاك حاولت أن تغير كلمة أو حرفاً من هذا التعبير لبدا القصور ، فإنك ستجعل النص لزمان دون زمان أو قاصراً على جزء مما ينبغي إعداده .

٣ - «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» .

هذا التعبير القصير الذي عبر عن المرأة بأنها لباس للرجل ، وكذلك الرجل بالنسبة للمرأة كم فيه من معان ؟

أ - يشترط في اللباس أن يكون خاصاً بصاحبه ، وملكاً له وحده ، وكذلك المرأة ينبغي أن تكون كلها لزوجها لا لغيره . لا خدها . ولا عينها . ولا جسمها ولا ...

ب - ويشترط في اللباس أن يكون ساتراً لعورة الرجل ، وكذلك لعورة المرأة ، وكذلك المرأة بالنسبة للرجل أو العكس ، زوجتي ينبغي أن تكون ساترة لعيوبي لا تفضحني أما إذا كانت أداة فضيحة فهذا شيء لا يحتمل .

ج - ويشترط في اللباس أن يكون طاهراً وكذلك المرأة أو الرجل .

د - ويشترط في اللباس أن يكون مناسباً لمكانة الإنسان الاجتماعية وكذلك الرجل مع المرأة .

فهل تجد في اللغة العربية كلها كلمة تحمل محل هذه الكلمة بحيث يبقى الجمال والكمال والحرس والانسجام مع السابق واللاحق وتعطي هذه المعاني كلها .

٤ - «نساؤكم حرث لكم»

الحرث هي الأرض التي تفلح ليلقى فيها البذر ويلقى البذر من أجل الثمر فالرجل مهمته لقاء البذر والمرأة مهمتها حضانة هذه البذر . الأرض يعنى

بها حتى تقطف الثمرة ، وتختار صالحة للزراعة ، ولا يلقي الانسان بذاره في الارض ويتركها ، ولا يبذر في غير أرضه وقد تختلف طريقة البذار ويبقى محل البذار واحداً .

هل تجد كلمة في اللغة العربية تحل محل كلمة حرث ، لو قلت « أرض » لما أعطت المعنى المراد ولو قلت ولو قلت فلن تجد أجمل وأكمل وأكثر معاني وأجود وأصدق منها في محلها .

٥ - « فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا »

الطين المشوي يسمى آجرا أو قرميدا بعد عملية صنعه ترى هل تحل واحدة من الكلمتين في محل هذا التعبير الجميل المصاغ هذه الصياغة العظيمة ، ثم التعبير القرآني يدل على أن الآجر من ساعة الطلب غير موجود وفي ذلك لفظة تدلنا على حماقة فرعون وبطره إذ لم يقدر الزمان الكافي لعمل يحتاج إلى زمن طويل وهل يحل محل كلمة الصرح كلمة أخرى .

٦ - « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مبفصلات »

ترى لو تقدمت كلمة متأخرة على أخرى متقدمة ، فهل يبقى الجمال والتناسق واللطافة والوزن والنغم والخفة على الاذن كما هي موجودة في هذه الصياغة ؟ حتماً لا . . .

٧ - « كلا لمن لم ينته لنسفعن بالناصية »

لو سألك سائل ماذا تعني كلمة سفن في اللغة العربية فانك لا تعرف الا إذا رجعت إلى قاموس ولكنك إذا رجعت إلى الآية وتلوتها فان قلبك يكاد يحس بمعناها وإن لم تعرف معناها وذلك سر من أسرار القرآن يحسه كل من له صلة في هذا القرآن .

وبعد فالقرآن لا يمكن أن يكون وليد بيئة ولا يمكن أن يكون الكمال فيه

والتناسق فيه والترتيب فيه والجمال فيه والوحدة فيه والاختيار العظيم فيه إلا
من عند الله العظيم العليم

* * *

والذي ذكرناه في هذه الفقرة الخامسة هو من خصائص القرآن المذكورة
في الآيات :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان
من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » « قرآنا عربيا غير ذي عوج »
« الله نزل أحسن الحديث »

* * *

وبهذا نختم الحديث عن المعجزة القرآنية ، ولم نذكر إلا الطرف الأقل عنها.
ولأففي القرآن مناحي لو بحثت لكان هنا محلها ككون القرآن فيه تبيان كل شيء
« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » .
و ككون القرآن يهدي دائما وفي كل شيء لأقوم الطرق ،
« ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم »
وغيرها وغيرها مما وصف الله به كتابه ، وتجده مصداقه فيه ، إلا أن بعضا
مما له علاقة بما ذكرناه سنراه في الرسالة الثالثة التي تأتي بعد هذه الرسالة :
«الاسلام» .

ولعل فيما كتب في هذا الفصل كفاية لطالب الحق ليؤمن أن هذا القرآن من
عند الله ، وأن محمد رسول الله ، وإذا بقي في قلبه شك ، فليجرب أن يؤلف
مثل سورة مهما كانت قصيرة من سور القرآن ، فان عجز فليجرب أن يتعاون مع
الآخرين ممن هم أبلغ ، فان عجزوا فقد قامت عليهم الحجة ولم يبق إلا الضلال
والحماقة وعمى القلب وموت الضمير .

« وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم
من دون الله إن كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها
الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون
بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

« قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كنزتم به من أضل ممن هو في شقاق
بعيد » .

* * *

وإلى الفقرة الثانية من هذا الفصل :

* * *

الفقرة الثانية معجزات أخرى

إن قدرة الإنسان محدودة بما حداها الله عز وجل به من عالم القوانين والأسباب ، فما كان ضمن هذه الدائرة استطاعه الإنسان وإلا لا . فالإنسان مثلاً يستطيع إذا توفر لديه أو كسجين وهيدروجين والأدوات اللازمة لحدث التفاعل بينهما أن يصنع منهما ماء فهذا داخل ضمن قوانين الكون واستطاعة الإنسان ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ماء من عدم مطلق . ويستطيع الإنسان أن يتحكم بالكثرونات وبروتونات النحاس فيصبح النحاس ذهباً إذا توفرت لذلك شروط وأدوات معينة . ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ذهباً من لا شيء ، والبخار الموجود في الجو ينعقد مطراً إذا وجدت شروط معينة من برودة وكثافة وغيرها ، ويستطيع الإنسان ببعض الوسائط أن يوفر هذه الشروط بالجو فينزل مطراً اصطناعياً كما يقولون . ولكن لا يستطيع الإنسان بمجرد الكلام أن ينزل مطراً .

إذن رغم ما أعطى الله الإنسان من إمكانيات يستطيع بها تسخير هذا الكون لصالحه ، فإن قدرة الإنسان محدودة ضمن قوانين هذا الكون . ويبقى الله وحده ذا السلطان المطلق ، والقدرة المطلقة التي يخلق بها ما شاء من الممكنات .

بعد هذا نقول : إن مما يعرف به الإنسان أنه رسول الله هو أن تظهر معه آثار قدرة الله . فتظهر على يديه خوارق لعادات وقوانين وأسباب هذا الكون مما لا يمكن أن يكون للجهد البشري فيه علاقة ، فيعرف الناس بذلك أن هذا الإنسان رسول الله . بدليل أنها ظهرت معه آثار قدرة الله . وتقوم

بذلك حجة الله على خلقه بأنه أرسل رسولا ، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بأنه صادق في دعوى الرسالة ، ولا يكون لأحد عذر في عدم متابعة الرسول بعد ذلك .

وكما تقوم الحجة على من عاصر الرسول ﷺ تقوم على من بعدهم بثبوت معجزاته تاريخياً إذ الثابت تاريخياً كالثابت مشاهداً في إقامة الحجة .

* * *

ولم يوجد رسول أبداً في تاريخ العالم كانت له معجزات كثيرة ثابتة ثبوتاً تاريخياً يتحدى أدق معايير النقد التاريخي مثل ما كان لحاتم رسل الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم . فإن معايير النقد التي وضعها علماء المسلمين لاستخلاص الوقائع الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ ما وصل إليها العالم قط ولا يرقى إلى نتائجها شك .

والدارس لهذه المعجزات الثابتة تاريخياً يرى بوضوح لا مزيد عليه ، آثار قدرة الله المباشرة مؤيدة لرسول الله ﷺ بأشكال وصور ومظاهر تحيط بكل الأوضاع . مما لا يبقى ريباً لمرتاب ، إلا إذا مات إنصافه مع قلبه فعمي بذلك عقله .

وهذه نماذج من هذه الوقائع التي لا تفسر إلا بالقدرة الإلهية المؤيدة لرسول الله ﷺ مع ملاحظة أن المعجزة الأساسية لرسول الله وبها قامت الحجة على خلق الله في كل العصور هي القرآن ، الذي رأينا بعض ما فيه مما يشهد أنه كتاب الله في الفقرة السابقة ومع ملاحظة أننا لم نرد الاستقصاء هنا وإنما أردنا ضرب الأمثلة فقط ، وإلا فمعجزات الرسول عليه السلام كثيرة جداً .

- ١ -

أخرج مسلم والبيهقي وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : قال : سرنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع فقال رسول الله ﷺ يا جابر ناد بوضوء . فقلبت ألا وضوء ؟ ألا وضوء ؟ قلت يا رسول الله ما وجدت

في الركب من قطرة وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله ﷺ الماء فقال لي : انطلق إلى فلان الأنصاري فانظر في أشجابه من شيء فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجده فيها إلا قطرة في عزلاء شجب يابسة مما لو أني أفرغته لشربه واحد فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته قال :

اذهب فأتني به فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشيء لا أدري ما هو ويغمزه بيده ثم أعطانيه فقال :

« يا جابر ناد بجفنة الركب فقلت » .

يا جفنة الركب ، فأتيت بها تحمل فوضعت بين يديه فقال رسول الله ﷺ بيده هكذا فبسطها في الجفنة وفرق بين أصابعه ثم وضعها في قعر الجفنة وقال : خذ يا جابر فصب علي وقل بسم الله فرأيت الماء يغور من بين بين أصابعه ففارت الجفنة وفارت حتى امتلأت فقال يا جابر ناد من كانت له حاجة بماء فأتى الناس فاستقوا حتى رووا ورفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي مملوءة .

وأخرج الشيخان من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتي بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء وأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم » .

وأخرج الشيخان من طريق ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ دعا بماء فأتي بقدر رحراح فيه شيء من ماء فوضع أصابعه فيه فجعلت أنظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه فجعل القوم يتوضئون فحزرت من توضأ منه ما بين السبعين إلى الثمانين .

وأخرج الشيخان عن أنس (رض) أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا بالزوراء فدعا بقدر فيه ماء فوضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف

أصابه فتوضأ أصحابه به جميعاً . قلت لأنس كم كانوا قال : زهاء ثلاث مائة .

وأخرج أحمد والبيهقي والبخاري والطبراني وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم وليس في العسكر ماء فقال رجل : يا رسول الله ليس في العسكر ماء . قال هل عندكم شيء ؟ قال : نعم . فأتي بإناء فيه شيء من ماء فجعل رسول الله ﷺ أصابعه في فم الإناء وفتح أصابعه قال : فرأيت العيون تنبع من بين أصابعه فأمر بلالا ينادي في الناس الوضوء المبارك .

وأخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إنكم تعدون الآيات عذاباً وكنا نعدّها بركة على عهد رسول الله ﷺ قد كنا نأكل مع النبي ﷺ ونحن نسمع تسبيح الطعام وأتي النبي ﷺ بإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فقال النبي ﷺ حي على الطهور المبارك والبركة من الله حتى توضأنا كلنا .

وأخرج البخاري عن مسور بن مخرمة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نزل بالحديبية على ثمد قليل الماء يتربضه الناس تربضاً فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكوا لرسول الله ﷺ العطش فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يحيش لهم بالري حتى صدروا عنه وكانوا بضع عشرة مائة من أصحابه .

وأخرج البخاري عن البراء (رض) قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا .

وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع (رض) قال : قدمنا مع رسول

الله ﷺ الحديبية ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة ما ترونها فقعد رسول الله ﷺ على جباها يعني الركبة فيما دعا وإما بزق فيها فجاشت فستقينا وأستقينا .

وأخرج مسلم عن معاذ بن جبل (رض) أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك فقال : إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من ماء شيئاً فأتاها والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء فغرف من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء ثم غسل وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ثم قال رسول الله ﷺ : يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد مليء جناناً .

وأخرج الشيخان عن عمران بن حصين (رضي الله عنهما) قال : كنا في سفر مع رسول الله ﷺ فشكا إليه الناس العطش فدعا علياً ورجلاً آخر فقال : اذهبا فابغياي الماء فانظما فلقيتا امرأة بين مزادتين أو سطيحين من ماء على بعير هافقلا لها أين الماء قالت عهدي بالماء أمس هذه الساعة (أي يبعد مسيرة يوم كامل) فانطلقا بها إلى رسول الله ﷺ فدعا بإناء فأفرغ فيه من أفواه المزادتين فمضمض في الماء وأعادته في أفواه المزادتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي (أي مصب الماء من القرية) ونودي في الناس أن اسقوا واستقوا فسقى من شاء واستقى من استقى وهي قائمة تنظر ما يفعل بمائها وأيم الله لقد أقبلوا عنهما وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملاء منها حين ابتدؤا فيها فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لها فجمعوا من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً كثيراً فقال لها رسول الله ﷺ : تعلمين والله ما رزئنا من مائك شيئاً ولكن الله عز وجل هو سقانا . قال : فأنت أهلها وقد احتبست عنهم فقالوا : ما حبسك يا فلانة ، قالت : العجب لقيني رجلان وذهبا بي إلى هذا الذي يقال له : الصابىء ففعل بمائي كذا وكذا الذي قد كان فوالله لأنه أسحر من بين هذه

وهذه وقالت بأصبعها الوسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء تعني السماء والأرض أو أنه لرسول الله حقاً .

قال : فكان المسلمون بعد يغيرون على ما حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم الذي هي فيه فقالت يوماً لقومها ما أرى إلا أن هؤلاء القوم يدعونكم عدداً فهل لكم في الإسلام فأطاعوها فدخلوا في الإسلام .

وأخرج مسلم عن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر فأسرى ثم نام فلما استيقظ إلا والشمس في ظهره فدعا بميضأة (١) كانت معي فيها شيء من ماء فتوضأ منها ثم قال إحفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ فصار حتى امتد النهار فقال الناس هلكننا وعطشنا فقال لا هلك عليكم .

ثم قال انطلقوا إلى عمري يعني القدح الصغير فدعا بالميضأة فجعل النبي ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم فقال النبي ﷺ أحسنوا الملء كلكم سيروى حتى ما بقي أحد .

- ٢ -

أخرج البخاري عن ابن عمر (رض) أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأناه النبي ﷺ فمسحه فسكن .

ووأخرج أحمد وابن سعد والدارمي وابن ماجه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس (رض) أن النبي ﷺ كان يخطب إلى جذع قبل أن يتخذ المنبر فلما اتخذ المنبر وتحول إليه حن الجذع فأناه فاحتضنه فسكن فقال ﷺ لو لم أحتضنه لحن إلى يوم القيامة .

وأخرج الدارمي والترمذي وأبو يعلى والبيهقي وأبو نعيم عن أنس (رض) قال : كان رسول الله ﷺ يقوم إلى جذع فلما اتخذ المنبر وقعد عليه خار الجذع كخوار الثور حتى ارتج المسجد بخواره فنزل إليه رسول الله ﷺ

(١) الميضأة : إناء يوضع فيه الماء .

فالتزمه فسكت فقال : والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا إلى يوم
القيامة حزناً على رسول الله ﷺ .

وأخرج ابن سعد وابن راهويه في مسنده والبيهقي عن سهل بن سعد
الساعدي (رض) أن رسول الله ﷺ كان يقوم إلى خشبة فلما اتخذ المنبر
حنت الخشبة فأقبل الناس عليها فرقوا من حنينها حتى كثر بكاءهم فنزل
ﷺ فأتاها فوضع يده عليها فسكنت .

وأخرج الدارمي وابن ماجه وابن سعد وأبو يعلى وأبو نعيم والبيهقي عن
أبي بن كعب (رض) قال : كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع فصنع المنبر
فلما جاوز ذلك الجذع إليه خار حتى تصدع وانشق فنزل ﷺ فمسحه بيده
حتى سكن .

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن أم سلمة (رض) قالت : كان لرسول
الله ﷺ خشبة يستند إليها إذا خطب فصنع له منبر فلما فقدته خارت خوار
الثور حتى سمعها أهل المسجد فأتاها ﷺ فاحتضنها فكسنت .

وأخرج ابن أبي شبة والدارمي وأبو نعيم عن أبي سعيد الخدري (رض)
قال : كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع فصنع له منبر فلما قام عليه
حن الجذع حنين الناقة إلى ولدها فنزل إليه رسول الله ﷺ فضمه إليه
فسكن .

وأخرج البخاري عن جابر بن عبد الله (رض) قال : كان جذع يقوم
إليه النبي ﷺ فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع صوتاً مثل أصوات العشار ..
(النياق) .. حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت .

قال التاج السبكي : حنين الجذع متواتر لأنه ورد عن جماعة من
الصحابه إلى نحو العشرين من طرق صحيحة كثيرة تفيد القطع بوقوعه ، وقال
القاضي عياض بالشفاء : إنه متواتر . وقال البيهقي : قصة حنينه من الأمور

الظاهرة التي نقلها الخلف عن السلف .

- ٣ -

أخرج البخاري عن أنس (رض) قال : أصابت الناس سنة (جذب) على عهد رسول الله ﷺ فبينما رسول الله ﷺ على المنبر يوم الجمعة يخشب أتاه أعرابي فقال : يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا ، فرفع رسول الله ﷺ يديه وما نرى في السماء قزعة ، فوالذي نفسي بيده ما وضعهما حتى ثار سحب كأمثال الجبال ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأيت الماء يتحادر على لحيته فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى فقام ذلك الأعرابي فقال : يا رسول الله تهدم البناء فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال : اللهم حوالينا ولا علينا فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرج حتى صارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهراً ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجوّد» وأخرج مسلم مثله .

وأخرج البخاري عن ابن عمر (رض) قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه رسول الله ﷺ على المنبر يستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس (رض) أن ناساً من مضر أتوا النبي ﷺ فسألوه أن يدعو الله أن يسقيهم فقال : اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً مريعاً غداً طبقاً نافعاً غير ضار عاجلاً غير راث فأتطقت عليهم حتى مطروا سبعة ٥

- ٤ -

وأخرج الدارمي وأبو يعلى والطبراني والبزار وابن حبان والبيهقي وأبو نعيم بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأقبل أعرابي فلما دنا قال له النبي ﷺ أين تريد قال إلى أهلي قال هل لك في خير قال وما هو قال

تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله قال من شاهد على ما تقول ؟ قال هذه الشجرة فدعاها رسول الله ﷺ وهو بشاطئ الوادي فأقبلت تحذ الأرض خذاً حتى جاءت بين يديه فاستشهدها ثلاثاً فشهدت أنه رسول الله ثم رجعت إلى منبتها ورجع الأعرابي إلى قومه فقال إن ينبعوني آتاك بهم وإلا رجعت إليك فكنت معك .

وروى البخاري في تاريخه والبيهقي والدارمي والترمذي بسند صحيح عن ابن عباس (رض) الله عنهما قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : بم أعرف أنك رسول الله ﷺ ؟ فقال : إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتؤمن بي ؟ قال : نعم . فدعاه فجعل ينقر (أي يشب) حتى أتاه فقال : ارجع فعاد إلى مكانه فأسلم الأعرابي ،

وفي رواية : فجعل ينزل من النخلة شيئاً فشيئاً حتى سقط على الأرض فأقبل وهو يسجد ويرفع حتى انتهى إلى النبي ﷺ ثم قال له ارجع فعاد فأسلم الأعرابي وقال : أشهد أنك رسول الله .

وروى الإمام أحمد والطبراني والبيهقي عن يعلى بن مرة الثقفي (رض) قال : كنت مع النبي ﷺ في مسير فذكر الحديث إلى أن قال : ثم سرنا حتى نزلنا منزلاً فنام النبي ﷺ فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيتها ، وفي رواية : طافت به ثم رجعت إلى مكانها فلما استيقظ ﷺ ذكرت له ذلك فقال : هي شجرة استأذنت ربها في أن تسلم عليّ فأذن لها .

وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود (رض) قال : آذنت (أي أعلمت) النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا له شجرة وأن الجن قالوا : من يشهد لك (أي بأنك رسول الله) فقال ﷺ هذه الشجرة ، ثم دعاها للشهادة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع .

وأخرج الإمام أحمد والبيهقي والطبراني بسند صحيح عن يعلى بن سبابة (رض) قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فأمر ودّيتين (أي نخلتين صغيرتين) فانضممتا .

وأخرج البزار عن بريدة بن الحصيب (رض) قال :
سأل أعرابي النبي ﷺ آية (أي علامة) تدل على أنه رسول الله فقال
له : قل لتلك الشجرة : رسول الله يدعوك . فدعاها فمالت الشجرة عن
يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها ثم جاءت تحذ الأرض
تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدي رسول الله فقالت : السلام عليك
يا رسول الله ، قال الأعرابي : مرها فلترجع إلى منبتها فرجعت فدلّت عروقها
فاستوت فقال الأعرابي : ائذن لي أسجد لك ، أي بعد أن آمن به ﷺ كما
صرح به في رواية فقال له ﷺ لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة
أن تسجد لزوجها . فقال الأعرابي : فأذن لي أقبل يدك ورجليك فأذن
له .

قال الشيخ أحمد الدحلان في السيرة النبوية : وأحاديث كلام الشجر له ﷺ
كثيرة شهيرة رواها أهل السنن عن كثير من الصحابة منهم عمر بن الخطاب ،
وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأسامة بن
زيد ، وأنس بن مالك ويعلى بن مرة وغيرهم ورواها عنهم أضعافهم من
التابعين .

وقال القاضي عياض في الشفاء عنها : فصارت في انتشارها من القوة حيث
هي ، قال الشهاب الخفاجي : يعني أنها نقلت عن كثير من الصحابة والتابعين
حتى بلغت التواتر المعنوي وصارت في مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العقلاء.

- ٥ -

يقول الله تعالى :

« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا
سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ » :

روى البخاري عن ابن مسعود (رض) قال : انشق القمر في عهد رسول
الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال عليه الصلاة والسلام :
« اشهدوا » .

وروى البخاري ومسلم عن أنس (رضي الله عنه) : أن أهل مكة سألو رسول الله ﷺ أن يرهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما .

وروى الترمذي من حديث ابن عمر في قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين فلقة دون الجبل وفلقة فوق الجبل ، فقال رسول الله ﷺ اشهدوا .

وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا سحرنا محمد فقالوا إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس . »

وروى أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال :

اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي ﷺ إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فلقتين ، فسأل ربه فانشق .

ونقل الخطيب في تفسيره عن حذيفة وقد خطب في المدائن قوله : « ألا إن الساعة قد اقتربت وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم . »

وكفى ذكره في القرآن الكريم حتى يحكم بتواتره إذ الآيات واضحة فيه ولا يمكن أن تفسر بغيره ولذلك أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه كما قال القاضي عياض والسبكي وغيرهم .

ونقل صاحب كتاب إظهار الحق عن المقالة الحادية عشر من تاريخ فرشته ، أن أهل مليلبار من إقليم الهند رأوه أيضاً « أي حادث انشقاق القمر » . وذكر الحافظ المزي عن ابن تيمية أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد في بلاد الهند بناء قديماً مكتوباً عليه بني ليلة انشق القمر .

وقد أثار بعض مبشري النصارى شبهات حول هذا الموضوع ، من ناحية أن هذا الحدث كان ينبغي أن يذكر في كل التاريخ العالمية لو كان صحيحاً متناسين أن الخسوف مثلاً قد يقع في منطقة من العالم ، ويبقى ساعات ولا يراه إلا أهلها . وقد ناقش مقالته صاحب الكتاب المذكور آنفاً . وننقل جزءاً من مناقشته للأمر قال :

١ - إن انشقاق القمر كان في الليل ، وهو وقت الغفلة والنوم والسكون عن المشي ، والتردد في الطرق ، سيما في موسم البرد ، فإن الناس يكونون مستريحين في داخل البيوت وزواياها ، مغلقين أبوابها ، فلا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا مَنْ انتظره واعتنى به ، ألا ترى إلى خسوف القمر فإنه يكون كثيراً وأكثر الناس لا يحصل لهم العلم به حتى يخبرهم أحد به في السحر .

٢ - إن هذه الحادثة ما كانت ممتدة إلى زمان كثير فما كان للناظر أن يذهب إلى الغير الذي هو بعيد عنه وينبهه أو يوقظ النائم ويريه .

٣ - إنها لم تكن متوقعة الحصول لأهل العلم ينظرونها في وقتها ، ويرونها كما أنهم يزرون هلال رمضان ، والعديد والكسوف والخسوف في أوقاتها غالباً لأجل كونها متوقعة الحصول ، ولا يكون نظر كل واحد إلى السماء في كل جزء من أجزاء النهار أيضاً فضلاً عن الليل ، فلذلك رأى الذين كانوا طالبين لهذه المعجزة ، وكذلك من وقع نظره في هذا الوقت إلى السماء ، كما جاء في الأحاديث الصحيحة أن الكفار لما رأوها قالوا سَحَرَكُمُ ابن أبي كبشة فقال أبو جهل هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا رأوا ذلك أم لا . فأخبر أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقاً وذلك لأن العرب يسافرون في الليل غالباً ويقيمون في النهار ، فقالوا هذا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ ... ثم نقل ما ذكرناه قبل هذا النقل .

٤ - إنه قد يحول في بعض الأماكن وفي بعض الأوقات في الديار التي ينزل

فيها المطر كثيراً فإنه يكون في بعض الأمكنة سحب غليظ ونزول المطر بحيث لا يرى الناظر في النهار الشمس ولا هذا اللون الأزرق إلى ساعات متعددة . وكذا لا يرى في الليل القمر والكواكب ولا اللون المذكور في بعض أمكنة أخرى . لا أثر للسحاب ولا للمطر ، وتكون المسافة بين تلك الأمكنة والأمكنة الأولى قليلة ، وأهل البلاد الشمالية كالروم والفرنج في موسم نزول الثلج والمطر لا يرون الشمس إلى أيام فضلاً عن القمر .

هـ - ان القمر لاختلاف مطالعه ليس في حد واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين فيظهر في بعض الآفاق وبعض المنازل على أهل بعض البلاد دون بعض ...

- ٦ -

أخرج البخاري عن البراء (رض) : أن عبد الله بن عتيك لما قتل أبا رافع ونزل من درجة بيته سقط إلى الأرض فانكسر ساقه قال فحدث النبي ﷺ فقال : أبسط رجلك فبسطتها فمسحها فكأنما لم أشكها فقط .

وأخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن سهل بن سعد (رض) أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه فلما أصبح قال : أين علي بن أبي طالب قالوا : يشتكي عينيه قال : فارسلوا إليه فأتى به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع .

وأخرج البخاري عن يزيد بن أبي عبيد قال :

رأيت أثر ضربة في ساق سلمة بن الأكوع فقلت ما هذه الضربة ، قال : ضربة أصابني يوم خيبر فقال الناس : أصيب سلمة فأتيت رسول الله ﷺ فنفت فيها ثلاث نفثات فما اشتكيت منها حتى الساعة .

وأخرج النسائي والترمذي والحاكم والبيهقي وصححوه وأخرجه البرهان

الحلبي من طرق متعددة حتى قال الشهاب الخفاجي في شرح الشفاء فلم يبق فيه شبهة :

عن عثمان بن حنيف (رض) أن رجلاً أعمى قال :
يا رسول الله ادع الله لي أن يكشف عن بصري فقال له رسول الله ﷺ انطلق
فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي
الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري اللهم شفعه
فيّ فما قام القوم من مجالسهم إلاّ ورجع الرجل وقد أبصر وكان عثمان بن
حنيف وبنوه يعلمونه للناس فيدعون به عند تعسر قضاء الحاجات فتقضى « .
وأخرج ابن عدي وأبو يعلى والبيهقي من طريق عاصم بن عمر بن قتادة
عن جده قتادة بن النعمان : أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته
فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله ﷺ فقال : لا فدعا به فغمز
حدقته براحته فكان لا يدري أي عينيه أصيبت »

وأخرج البيهقي من وجه آخر عن قتادة مثله وزاد بعد قوله « براحته » وقال
« اللهم اكسه جمالاً » . وأخرج ابن سعد عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن
عين قتادة بن النعمان أصيبت فسالت على خده فردها رسول الله ﷺ فكانت
أصح عينيه » .

وأخرج البيهقي وأبو نعيم والطبراني من طرق أن عين قتادة أصيبت يوم
أحد فوقعت على وجنته فردها ﷺ فكانت أحسن عينيه .
ولفظ رواية الطبراني وأبي نعيم عن قتادة قال : كنت يوم أحد اتقي السهام
بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي
فأخذتها بيدي وسعيت إلى رسول الله ﷺ فلما رآها في كفي دمعت عيناه
فقال : اللهم ق عين قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه فاجعلها أحسن عينيه
وأحدّهما نظراً فصارت كذلك .

والظاهر أن إحدى عينيه أصيبت في بدر والأخرى في أحد .

وأخرج الامام أحمد والطبراني عن الوازع قال قدمت على رسول الله ﷺ والأشج في ركب ومعنا رجل مصاب فقلت يا رسول الله إن معي خالاً مصاباً فادع الله له قال: اثني به فأتيت به فأخذ طائفة من ردائه فرفعها حتى رأيت بياض إبطيه ثم ضرب ظهره وقال: اخرج عدو الله فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول ثم أقعده بين يديه فدعا له ، ومسح وجهه فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة رسول الله ﷺ يفضل عليه .

وأخرج أبو يعلى والبيهقي بسند حسنه ابن حجر في المطالب العالية عن أسامة ابن زيد قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الحجة التي حجها حتى إذا كنا ببطن الروحاء نظر إلى امرأة تؤمه فحبس راحلته فلما دنت منه قالت يا رسول الله : هذا ابني ما أفاق من يوم ولدته إلى يومي هذا فأخذه رسول الله ﷺ منها ووضع بين صدره وواسطة الرجل ثم تغل في فيه وقال : أخرج يا عدو الله فإني رسول الله ثم ناولها إياه وقال خذيه فلا بأس عليه قال أسامة فلما قضى رسول الله ﷺ حجه انصرف حتى إذا نزل ببطن الروحاء أته تلك المرأة بشاة قد شوتها ...

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والبيهقي والطبراني وأبو نعيم من طريق سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أمه أم جندب قالت : رأيت رسول الله ﷺ عند جمرة العقبة فرمى ورمى الناس ثم انصرف فجاءت امرأة ومعها ابن لها به مس (أي جنون) قالت : يا رسول الله ابني هذا به بلاء لا يتكلم فأمرها النبي ﷺ فجاءت بتور (إناء من حجارة فيه ماء) فأخذه ﷺ بيده فمج فيه ودعا فيه وأعاده فيه ثم أمرها فقال : اسقيه واغسله فيه قالت فتبعته فقالت هي لي من هذا الماء قالت خذي منه فأخذت منه حفنة فسقيتها ابني عبد الله فعاش فكان من يره ما شاء الله أن يكون قالت ولقيت المرأة فزعمت أن ابنها برأ وأنه غلام لا غلام خير منه « ولفظ أبي نعيم » برأ وعقل عقلاً ليس كعقول الناس .

وأخرج أحمد والدارمي والطبراني والبيهقي وأبو نعيم عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن امرأة جاءت بابن لها فقالت يا رسول الله إن بابني هذا جنونا وأنه يأخذه عند غداثنا وعشائنا فيمسه علينا ، فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفي .

وأخرج الحاكم عن أبي بن كعب قال :

كنت عند النبي ﷺ فجاء اعرابي فقال يا نبي الله إن لي أخاً به وجع قال وما وجعه قال به لم (أي جنون) قال فائتني به فأتاه به فوضعه بين يديه فعوذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب واربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين : «والهكُمُ إلهٌ واحدٌ .. وآية الكرسي وثلاث آيات من آخر سورة البقرة وآية من آل عمران : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. » وآية من الأعراف : إِنَّ رَبَّكُمُ ... وآخر سورة المؤمنين : فتعالى اللهُ الملكُ الحقُّ ... » وآية من سورة الجن ، وأنه تعالى جبارٌ بنا .. » وعشر آيات من أول الصفات وثلاث آيات من آخر سورة الحشر وقل هو الله أحد والمعوذتين فقام الرجل كأنه لم يشك شيئاً قط .

ورواه عبد الله بن الإمام أحمد في الزوائد بسند حسن .

-٧-

ومعجزة أخرى متواترة النقل نقدم لها بما يلي :

لقد صعد الإنسان إلى ارتفاعات كبيرة في هذا القرن ، ولكن رغم هذا فإنه باق ضمن إطار معين محدود في السرعة والزمان والمكان . فهو ما جاوز بعد دائرة الأرض ومجاوزته دائرة المجموعة الشمسية مستحيل وأقرب نجم إلى مجموعتنا الشمسية على ما يقال يبعد حوالي أربع سنين ضوئية أي لو سار الإنسان بسرعة ٣٠٠٠٠٠٠ كلم في الثانية فإنه يصل بعد أربع سنوات وهذا مستحيل المستحيلات .

وهنا يظهر الفارق بين المعجزة والعادة ، المعجزة تتعلق بقدرة الله المباشرة أما العادة فهي خاضعة للأسباب التي جعل الله عز وجل هذا العالم يسير عليها . فقد أسرى برسول الله ﷺ من مكة الى القدس وعرج به الى ما فوق السماء السابعة ورجع بمدة زمنية قصيرة جداً لم تتجاوز دقائق أو سويغات قليلة فكان في ذلك معجزة دلت على قدرة الله وعلى ان محمداً رسول الله ﷺ . وقد يقول قائل : ان المعجزة حتى تقوم بها الحجة على الناس ينبغي أن تكون مشاهدة يراها الناس والإسراء والمعراج لم يرهما أحد وإنما أخبر عنهما محمد رسول الله ﷺ نفسه والإخبار بالمعجزة وحده من صاحبها لا تقوم به الحجة على الناس .

والجواب ان الحجة قامت بسبب ان الرسول ﷺ أخبر عن قضايا ما كان يستطيع الإخبار عنها لولا أنه أسرى به وعرج وبهذا قامت الحجة على الناس . اذ أن الناس عندما أخبرهم بما حدث له سأله دليلاً فقدم لهم جواباً عن كل ما سأله وهذه أمثلة :

١- أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك عن أنس... فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا يا أبا بكر هل لك في صاحبك يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر ثم رجع في ليلة فقال أبو بكر : ان كان قاله فقد صدق . وانا لنصدق فيما هو أبعد من هذا ، نصدق على خبر السماء . فقال المشركون لرسول الله ﷺ : ما علامة ما تقول : قال : مررت بعير لقريش وهي في مكان كذا وكذا فنفرت الإبل منا واستدارت وفيها بعير عليه غراران غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر فلما قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

٢ - أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ لما كذبتني قريش حين أسرى بي الى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه .

٣- أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي وصححه والبزار والطبراني وابن مردويه عن شداد بن أوس : « ... فأتاني أبو بكر فقال : يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمسك في مظانك فقلت علمت أنني أتيت بيت المقدس الليلة فقال يا رسول الله انه مسيرة شهر فصغه لي قال ففتح لي صراط كأني انظر اليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته عنه قال أبو بكر أشهد أنك رسول الله فقال المشركون انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة فقال : إن من آية ما أقول لكم أنني مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم فجمعهم فلان وأن مسيرهم ينزلون بكذا ثم كذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينتظرون حتى كان قريباً من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ .

وليس في هذا النص والنص الأول تناقض فالنص الأول يتحدث عن جمل عليه غرارة بيضاء وأخرى سوداء انكسرت رجله أما هذا فيتحدث عن الجمل الأول في القافلة وعليه غرارتان سوداوان .

٤- أخرج أحمد وابن أبي شيبة والنسائي والبزار والطبراني وأبو نعيم بسند صحيح من طريق زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لما كان ليلة أسري بي فأصبحت بمكة قطعت وعرفت أن الناس مكذبني فقعده معتزلاً حزيناً فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزىء :

هل كان من شيء قال نعم قال وما هو ؟ قال : إني أسري بي الليلة ، قال : إلى أين - قال : إلى بيت المقدس قال ثم أصبحت بين ظهرانينا قال نعم فلم ير أن يكذبه مخافة أن يحجده الحديث إن دعا قومه إليه قال :

أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم ما حدثتني قال نعم قال : هيا معشر بني كعب بن لؤي فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال حدث

قوبلك بما حدثتني فقال رسول الله ﷺ :

إني أسري بي الليلة قالوا إلى أين قال : إلى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت بين ظهرانيها قال نعم قال : فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً قالوا وتستطيع أن تنعت المسجد وفي القوم من سافر إليه قال رسول الله ﷺ فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال فنعته وأنا أنظر إليه فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب .

٥ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر من طريق أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حدث عن ليلة أسري به ... ثم أصبح بمكة يخبرهم العجائب : أني أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بي إلى السماء ثم رأيت كذا وكذا فقال أبو جهل ألا تعجبون مما يقول محمد قال فأخبرهم بعير قريش قال لما كانت في مصعدي رأيتها في مكان كذا وكذا وإنها نفرت فلما رجعت رأيتها عند العقبة وأخبرهم بكل رجل وبغيره كذا ومتاعه كذا فقال رجل أنا أعلم الناس ببيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ، فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس فنظر إليه فقال بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا فقال صدقت .

٦ - وأخرج أبو نعيم عن محمد بن كعب القرظي قال بعث رسول الله ﷺ دحية الكلبي إلى قيصر صاحب الروم وذكر قصة اجتماع أبي سفيان بهرقل وأسئلة هرقل لأبي سفيان إلى أن يذكر ما يلي على لسان أبي سفيان .

قلت أيها الملك ألا أخبرك عنه خبراً فعرف أنه قد كذب . قال وما هو قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح : قال وبطريق إيلياء عند رأس قيصر قال البطريق قد علمت تلك الليلة قال فنظر إليه القيصر وقال ما

علمك بها ، قال إني كنت لا أبيت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة اغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غابني فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجناه فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً فدعوت النجاجة فنظروا إليه فقالوا هذا باب سقط عليه النحات والبنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى فرجعت وتركت مفتوحاً فلما أصبحت غدوت فإذا الحجر الذي من زاوية الباب منقوب وإذا فيه أثر مربوط الدابة فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي وقد صلى الليلة في مسجدنا ، فقال قيصر يا معشر الروم أليس تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبياً بشركم به عيسى وهذا هو النبي الذي بشر به عيسى فأجيبوه إلى ما دعا إليه فلما رأى نفورهم قال يا معشر الروم دعاكم ملككم يخبركم كيف صلابتكم في دينكم فثمتوه وسببتموه وهو بين أظهركم فخروا له سجداً .

٧- وأخرج مسلم من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : لقد رأيتني من الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا نبأتهم به .

* * *

وهناك سؤال آخر يسأله بعض الناس وهو أين هي السماء التي عرج إليها رسول الله ﷺ .

والجواب أن القرآن قد ذكر السماء في كثير من آياته وأراد بها المعنى اللغوي لها . وذكر أحياناً السماء وأراد بها معنى إصطلاحياً له ارتباط بالمعنى اللغوي ، ففي اللغة كل ما علاك فهو سماء : قال الله تعالى « أنزل من السماء ماء » ، « أو لم ير الذين كنزوا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » فهنا قصد المعنى اللغوي فقط « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم » « الله الذي خلق سبع سموات » ذكرت هنا السماء بالمعنى الاصطلاحي .

« إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أظن السماء وحق لها أن تثبط ليس فيها موضع أربع أصابع إلا ... » فالمقصود بالسموات هذه سكن الملائكة ، والتي فيها الجنة في السماء السابعة ، وسقفها عرش الرحمن ، فهذه السموات هي التي عرج إليها رسول الله ﷺ كما سئرى في الأحاديث بعد قليل . أما أين هي فالله أعلم بذلك . إذ هي من المغيبات عنا أما ما يتصوره بعض الناس بأن هذه الزرقة هي هذه السموات فهذا خطأ ووهم ، إذ هذه الزرقة ترى من الأرض فقط فاذا ما ارتفع الإنسان في الفضاء غابت فهي انعكاسات أضواء وأنوار وأجواء .

وإذن فنحن نؤمن أن هناك سموات سبعة ، وعرشاً فوقها ، اثبتناها باثبات الله إياها ، وإخبار رسول الله ﷺ عنها ، ولا نجزم بمكانها وإن كنا نجزم أنها في جهة فوق بالنسبة لسكان الأرض ، ولا نعرف عنها إلا ما أخبرنا الله ورسوله ، هذه السموات هي التي كان إليها الخروج وهي التي تصعد إليها أرواح البشر ، وتنزل الملائكة والروح منها .

* * *

ويتساءل آخرون : ما الحكمة في الإسراء والمعراج ؟

والحكمة — والله أعلم — تكمن في ناحيتين :

الأولى : أن الله أرى رسوله ما دعا إليه فقد أمر الرسول ﷺ أن يدعو إلى الإيمان بالجنة ، ورأى الجنة وأن يدعو إلى الإيمان بالرسول ورأى الرسل . صلوات الله وسلامه عليهم ، وإلى الإيمان بالملائكة ورأى الملائكة ، وإلى الإيمان بالله ورأى آثار قدرة الله وملكوته وقد ذكر الله في القرآن .

« لنريه من آياتنا ... »

الثانية : أن الله يُعيدُ رسوله لمرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية . هذه المرحلة تشبه المرحلة التي رأى فيها موسى آيات الله الكبرى وهي مجابهة فرعون .

فقد قال الله عن موسى « لنريك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طغى » إن موسى الذي سيقابل فرعون الطاغية قد هيء بهذه الرؤية لاحتقار كل القوى الأرضية ما دامت معه قوة الله : وسيدنا رسول الله ﷺ كان مأموراً في الصبر طوال المرحلة المكية ، وبعد الهجرة أمر بالمجابهة وكان الإسراء والمعراج قبل الهجرة بقليل . فكانت رؤية آيات الله الكبرى تمهيداً لهذه المرحلة التي سيقف فيها رسول الله ﷺ بالقلعة من أصحابه في وجه الدنيا كلها . قال الله في أوائل سورة النجم بعد الحديث عن المعراج « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ومن قبل كما ذكرنا أرى موسى من آيات الله الكبرى قبل مرحلة المجابهة .

* * *

وأخيراً بعد هذه المقدمات عن هذه المعجزة نبداً بذكر طرف عنها . قال الحافظ السيوطي :

اعلم أن الاسراء ورد مطولاً ومختصراً من حديث أنس وأبي بن كعب وبريدة وجابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان وسمرة بن جندب وسهل بن سعد وشداد ابن أوس وصهيب وابن عباس وابن عمرو وابن عمرو وابن مسعود وعبد الله بن اسعد ابن زرارة وعبد الرحمن بن فرطو وعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب ومالك ابن صعصعة وأبي أمامة وأبي أيوب وأبي حية وأبي الحمراء وأبي ذر وأبي سعيد الخدري وأبي سفيان بن حرب وأبي ليلى الانصاري وأبي هريرة وعائشة وأسماء بنتي أبي بكر وأم هانئ وأم سلمة .

وعد الإمام القسطلاني في المواهب اللدنية ستة وعشرين صحابياً وصحابية رووا حديث الاسراء والمعراج فهو إذن حديث متواتر مع نص القرآن عليه في سورتي الاسراء والنجم وهذه بعض روايات الحديث :

١ - اخرج مسلم عن طريق ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند

منتهى طرفه فركبته حتى أنبت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها
الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء
من خمر وإناء من لبن فأنحرت اللبن فقال جبريل انحرت الفطرة ثم عرج بنا
إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال
محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي
بخير، ثم عرج بي إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل
قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا
أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم
عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن
معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف
وإذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء
الرابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل
وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي
بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل
قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا
أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح
جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال
قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى
السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد
قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت
المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعود إليه ثم ذهب بي إلى
سدره المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر
الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها فأوحى إلي ما أوحى
ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى
فقال ما فرض ربك علي أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فأسأله

التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك فلإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم فرجعت إلى ربي فقلت يا ربي خفف عن أمتي فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت حط عني خمساً قال إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى حتى قال يا محمد إنهن خمس صلوات بكل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك الخمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرًا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فاخبرته فقال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه .

٢ - وأخرج مسلم عن أنس قال قال رسول الله ﷺ مررت ليلة أسري بي على موسى قائماً يصلي في قبره .

٣ - وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والترمذي والحاكم وصححا والنسائي وابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن حذيفة أنه حدث عن ليلة أسري بمحمد ﷺ فقال « ما زایل البراق حتى فتحت له أبواب السموات فرأى الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع ثم عاد » ولفظ ابن مردويه فأري ما في السموات وأري ما في الأرض .

٤ - أخرج مسلم من طريق مرة الهمداني عن ابن مسعود قال لما أسري برسول الله ﷺ فأنتهى إلى سدرة المنتهى وإليها ينتهي ما يصعد به وفي لفظ ما يعرج به من الأرواح حتى يقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض. إذ يغشى السدرة ما يغشى قال غشيها فراش من ذهب وأعطي رسول الله ﷺ الصلوات الخمس ونحوائيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً المقحّمات

وعندما يدعو رسول الله لإنسان فإنك تجد ما دعا له قد تحقق تماماً كما دعا ، وكثرة الحوادث في هذا الموضوع تجعل الانسان على اليقين الكامل . إن محمداً رسول الله وإن الله عز وجل يؤيد رسوله ويسدده ويستجيب دعاءه حتى لا يشك معه بقيمة الكلمة التي تخرج من فم رسول الله ﷺ

وقد قال القاضي عياض في الشفاء إجابة دعوة النبي ﷺ لجماعة دعا لهم أو عليهم متواترة معلومة ضرورة وأخرج الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان (رض) قال كان النبي ﷺ إذا دعا الرجل أدركت ولده وولد ولده « وهذه أمثلة منتقاة من عشرات أو مئات الحوادث من نوعها في كل منها دليل ما قلناه :

١ - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن علي رضي الله عنه قال بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت يا رسول الله تبعني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء فضرب بيده في صدري وقال اللهم اهدي قلبي وثبت لسانه فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بين اثنين .

٢ - أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن «بارك الله لك» وأخرجه ابن سعد والبيهقي من وجه آخر وزاد قال عبد الرحمن لقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة .

٣ - أخرج الترمذي والحاكم وصححه عن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال اللهم استجب لسعد إذا دعاك فكان لا يدعو إلا استجيب .

٤ - أخرج الشيخان عن ابن عباس (رض) قال دعا لي النبي ﷺ فقال : «اللهم فقهه في الدين» وأخرجه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم من

وجه آخر عنه بزيادة : «وعلمه التأويل» فصار حبر هذه الامة ولا سيما في علم التفسير .

وأخرج الإمام أحمد وأبو نعيم عن ابن عباس (رض) قال مسح رسول الله ﷺ رأسي ودعا لي بالحكمة فلم تخطئني دعوة رسول الله ﷺ .

٥ - أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال :

اشتكى ابن لابي طلحة فمات وأبو طلحة خارج فلما رأت امرأته أنه قد مات هيات شيئاً ونحته في جانب البيت فلما جاء أبو طلحة قال كيف الغلام قالت هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح وظن أبو طلحة أنها صادقة فبات فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات فصلى مع النبي ﷺ ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منهما فقال ﷺ لعل الله يبارك لكما في ليلتكما قال سفيان قال رجل من الأنصار فرأيت لهما سبعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن .

٦ - أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ما على وجه الأرض مؤمن ولا مؤمنة إلا وهو يحبني قلت وما علمك بذلك قال إني كنت أدعو أمي الى الاسلام فتأبى فقلت يا رسول الله ادع الله أن يهدي أم أبي هريرة الى الاسلام فدعا لها فرجعت فلما دخلت البيت قالت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فرجعت الى رسول الله ﷺ وأنا أبكي من الفرح كما كنت أبكي من الحزن وقلت يا رسول الله قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة الى الاسلام فادع الله أن يحبني وأمي الى عباده المؤمنين وأن يحبهم اليانا فقال ﷺ اللهم حب هذا وأمه الى عبادك المؤمنين وحبيهم اليهما فما أعلم مؤمناً ولا مؤمنة إلا وهو يحبني وأحبه .

٧ - أخرج الشيخان عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله ﷺ الى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع

ألا تسمعنا من هنيهاتك وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يحدو بالقوم بقوله :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتنينا وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ من هذا السائق قالوا عامر قال يرحمه الله قال رجل من القوم وجبت يا رسول الله هلا امتعتنا به فلما تصاف القوم تناول عامر سيفه ليضرب به ساق يهودي فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبته فمات منه. وأخرجه مسلم من وجه آخر وفيه فقال من هذا القائل قالوا عامر قال غفر لك ربك قال وما خص رسول الله ﷺ قط أحدا به إلا استشهد فقال عمر لولا متعتنا بعامر أي ما استغفر لإنسان يخصه قط إلا استشهد .

٨ - أخرج البخاري عن أبي عقيل أنه كان يخرج به جده عبد الله بن هشام إلى السوق ليشتري الطعام فيلتقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان أشركنا فان رسول الله ﷺ قد دعا لك بالبركة فيشركهم فربما أصاب الراحلة كما هي فيبعث بها إلى المنزل .

٩ - أخرج الشيخان عن أبي بكر رضي الله عنه قال طلببنا القوم فلم يدركنا منهم غير سراقه بن مالك على فرس له فقلت يا رسول الله هذا الطالب قد لحقنا قال لا تحزن إن الله معنا فلما كان بيننا وبينه قدر قيد رحين أو ثلاثة دعا رسول الله ﷺ فقال اللهم اكفناه بما شئت فساخنت به فرسه في الأرض إلى بطنها فقال يا محمد قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه فوالله لأعمين على من ورائي من الطالب فدعا له ﷺ فانطلق راجعاً .

١٠ - أخرج البخاري في الأدب والنسائي عن أم قيس أنها قالت توفي ابني فجزعت فقلت للذي يغسله لا تغسل ابني بالماء البارد فيقتله فانطلق عكاشة ابن محصن إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقولها فتبسم ثم قال طال عمرها فلا يعلم امرأة عمرت ما عمرت .

١١ - أخرج البيهقي وأبو نعيم من طريق يعلى بن الأشدق قال سمعت

الناطقة نابغة بني جعدة يقول أنشدت رسول الله ﷺ شعراً فأعجبه فنقال
جدت لا يفضض الله فاك قال يعلى فلقه رأيت له ولقد أتى عليه نيف ومائة سنة
وما ذهب له سن .

١٢- أخرج البخاري عن ابن عباس (رض) أن رسول الله ﷺ بعث
بكتابه إلى كسرى فلما قرأه كسرى مزقه فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن
يمزقوا كل ممزق فمزقوا .

١٣- وروى البيهقي بإسناد صحيح أنه صلى الله عليه وسلم دعا على الحكم
ابن أبي العاص وكان يختلج بوجهه أي يحرك وجهه وحاجبيه وشفتيه استهزاءً
بالنبي ﷺ فقال كن كذلك فلم يزل يختلج إلى أن مات .
١٤- وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل
عند النبي ﷺ بشماله فقال كل بيمينك قال لا أستطيع قال لا استطعت ما منعه
إلا الكبر . قال فما رفعها إلى فيه بعد .

- ٩ -

عند ما تدرس حياة رسول الله ﷺ تجدك دائماً أمام حادث تشعر فيه
أنك أمام قدرة الله المباشرة التي لا دخل لعالم الأسباب فيها ، ولا تستطيع
أبداً أن تجد تعليلاً لما تراه ، أو نقل اليك نقلاً صحيحاً ، إلا أن الله جلت حكمته
يجري على يد هذا الرسول العظيم ﷺ ما تقوم به الحجة على الكافر ، ويزداد
به المؤمن يقيناً ويخرج به الشاك عن شكه .

ولا يفوتنا هنا ونحن ننقل نوعاً آخر من أنواع معجزاته ﷺ أن نشير
مرة ثانية إلى أن هذه النقول هي أدق نقول تاريخية في العالم . لأن معايير
النقد التي وضعت لاستخراج صحيحها لا مثيل لها أبداً . مع ملاحظة أنها
منقولة في النهاية عن الصحابة الذين كانوا يعتقدون أن الكذب على رسول الله
ﷺ من أكبر الكبائر ، وقد رباهم رسول الله ﷺ على الصدق ، وما كان

أحدهم يسكت عن باطل رآه . فلو حدث أن صحابياً أخطأ في النقل فإنهم جميعاً كانوا يردون عليه إذا بلغهم خطؤه ، وإذن فنحن إذ ننقل هذه النقول ننقلها باطمئنان الواثق الى ما بين يديه ، ولئن كان في الاخبار المروية عن الرسول ﷺ ما هو ضعيف فالعلة تكمن في أجيال ما بعد الصحابة والتابعين ، وعلماء النقد عند المسلمين ما تركوا أمثال هذه تمر ونحن نحاول ألا ننقل إلا ما كان ثابتاً بعد النقد والا كشاهد. بعد هذا نبدأ بنقل مجموعة من الآثار تدور حول معنى واحد، يظهر فيه الإعجاز ، وما ننقله فيه غيض من فيض وكثير مما نقلناه مروي بعدة روايات عن عدة صحابة ومخرج في عدة كتب ولكننا اخترنا رواية من مجموع روايات الحادثة الواحدة وهاك هذه المختارات .

١ - روى البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في قصة حفر الخندق قال رأيت بالنبي ﷺ خمصاً شديداً وهو ضمير البطن من الجوع فأخرجت جراباً فيه صاع من شعير ولنا بهيمة وهي الصغيرة من أولاد المعز وفي رواية عن جابر رضي الله عنه أنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة فجأؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق فقال أنا نازل ثم أقام وبطنه معصوب بحجر ولبنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي ﷺ فضرب فعادت كثيراً أهيل فقلت يا رسول الله ائذن لي إلى البيت فاذن فقلت لا مرأتني رأيت بالنبي (ﷺ) شيئاً ما كان لي في ذلك صبراً فعندك شيء قالت عندي شعير وعناق فذبحت العناق وطبخت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جثت النبي صلى الله عليه وآله عليه وسلم والعجيب قد اختمر والبرمة بين الأثافي - أي الأحجار التي توضع عليها القدر - كادت أن تنضج وقالت امرأتني لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه فجثته فساررته فقلت يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطبخنا صاعاً من شعير فتعال أنت ونقر معك يعني دون العشرة وفي رواية فقلت طعيم لنا صنعته فقم انت يا رسول

الله ورجل أو رجلان وكنت أريد أن ينصرف وحده قال كم هو فذكرت له مقال كثير طيب قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي فصاح النبي ﷺ يا أهل الخندق إن جابراً صنع سؤراً فحيها بكم - أي هلموا سرعين - والسؤر الطعام الذي يدعى إليه .

وفي رواية فقال قوموا فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال ويحك جاء النبي ﷺ بالأنصار والمهاجرين ومن معهم قالت هل سألك قلت نعم وفي رواية قال لقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله تعالى وقلت جاء الخلق على صاع من شعير وعناق فدخلت على امرأتي أقول افتضحت جاءك رسول الله بالخبز اجمعين فقالت هل كان سألك كم طعامك فقلت نعم فقالت الله ورسوله أعلم نحن أخبرناه بما عندنا وفي رواية أنها خاصمته في أول الأمر وقالت بك بك فلما أعلمها بأنه أعلم النبي ﷺ ما يمكن ما عندها وقالت الله ورسوله أعلم لعلمها بإمكان خرق العادة ودل ذلك على وفور عقلها وكمال فضلها (رض) واسمها سميكة بنت معوذ الأنصارية .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تنزل برمتكم ولا يخبزن عجينةكم حتى أجيء وفي رواية قال جابر فبحث وجاء النبي ﷺ يقدم الناس فاخرجت المرأة له عجينة فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا وبصق فيها وبارك أي دعا بالبركة ثم قال لجابر ادع خابزه لخبز مع زوجتك ثم قال لها اقدحي أي اغرفي من برمتكم ولا تنزلوها وهم - أي القوم الذين جاؤا معه ألف - واقعدهم عشرة عشرة يأكلون فاقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا - أي مالوا عن الطعام - وإن برمتنا لتغط أي لتغلي وتغور كما هي وإن عجينة لخبز كما هو . وفي رواية فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه ادخلوا ولا تضاعطوا فاجعل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا اجمعين والتنور والقدر أملاً ما كانا فقال كلي واهدي فلم نزل نأكل ونهدي يومنا أجمع . وفي رواية فاكلنا واهدينا لجيراننا فلما خرج صلى الله عليه وسلم ذهب ذلك .

٢ - واخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فأصابنا جهد حتى هسمنا أن ننحر بعض ظهرنا

فأمر نبي الله ﷺ فجمعنا مزاولنا فبسطنا له نطعاً فاجتمع زاد القوم على النطع فتناولت لاحزر كم هو فحزرتة كربضة لعنز ونحن اربع عشرة مائة فأكلنا حتى شبعنا جميعاً ثم حشونا جرباننا ثم قال رسول الله ﷺ هل من وضوء فجاء رجل باداوة له فيها نطائنه ماء فافرغها في قدح فتوضأنا كلنا ندغمة دغفة اربع عشرة مائة .

٣- واخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما كان يوم غزوة تبوك اصاب الناس مجاعة فقالوا يا رسول الله لو أذنت لنا ننحر نواضحنا فأكلنا وادّنا فقال عمر يا رسول الله ان فعلت قل الظهر ولكن ادعهم بفضل ازوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله ان يجعل في ذلك الخير فقال رسول الله ﷺ نعم فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل ازوادهم فجعل الرجل يأتي بكف ذرة ويجيء الآخر بكف تمر ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال لهم خذوا في اوعيتكم فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة وأخرجه بنحوه ابن سعد والحاكم وصححه البيهقي وابو نعيم عن أبي عمرة الانصارية رضي الله عنه واخرجه ابن راهوية وابو يعلى وابو نعيم وابن عساكر عن عمر ابن الخطاب (رض) عنه بلفظ :

خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فأصابنا جوع شديد فقلت يا رسول الله اخرج الينا الروم وهم شباع ونحن جياع وارادت الأنصار أن ينحروا نواضحهم فنأدى في الناس من كان عنده فضل من زاد فليأتنا فحزرتنا جميع ما جاؤا به فوجدناه سبعة وعشرين صاعاً فجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه فدعا فيه بالبركة ثم قال أيها الناس خذوا ولا تنتهبوا فأخذه في الحرب والغنائم حتى جعل الرجل يعقد قسيه فيأخذه فيه حتى صلدوا وأنه نحو ما كان

يخزرون فقال النبي ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يأتي بهما عبد بحق إلا وقاه الله حرّ النار .

٤ - وأخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال قال أبو طلحة لأم سليم لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء قالت نعم فاخرجت أقراصاً من شعير ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ فقال أرسلك أبو طلحة قلت نعم فقال لمن معه قوموا فجئت أبا طلحة فاخبرته فقال أبو طلحة يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ والناس وليس عندنا ما نطعمهم قالت الله ورسوله أعلم فدخل رسول الله ﷺ فقال هلمي ما عندك يا أم سليم فأنت بذلك الخبز فأمر به فنت وعصرت عليه عكة لها فآدمته ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء أن يقول ثم قال ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم قال ائذن لعشرة حتى أكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون . واخرجه مسلم من عدة طرق وفي بعضها ثم أكل رسول الله ﷺ واهل البيت وأفضلوا ما بلغ جيرانهم وفي بعضها فقال بسم الله عظم فيه البركة .

٥ - وأخرج الدارمي وابن أبي شيبة والترمذي والحاكم والبيهقي وصححوه وأبو نعيم عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بقصعة فيها طعام فتعاقبوا إلى الظهر منذ غداوة يقوم قوم ويقعد آخرون فقال رجل لسمرة هل كانت تمتد قال ما كانت تمتد إلا من ههنا وأشار إلى السماء .

٦ - وأخرج البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة فقال هل مع أحد منكم طعام فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن ثم جاء رجل بغنم يسوقها فاشترى منه شاة فأمر بها فصنعت وأمر رسول الله ﷺ بسواد البطن أن يشوى قال وايم الله ما من الثلاثين ومائه إلا وقد حز له رسول الله ﷺ من سواد بطنها

إن كان شاهداً أعطاه وإن كان غائباً نبأ له قال وجعل منها قصعتين فأكلنا منها أجمعون وشبعنا وفضل من القصعتين فحملنا على البعير .

٧- وأخرج الطبراني في الاوسط بسند حسن عن أبي هريرة (رض) قال دعاني النبي ﷺ فقال انطلق إلى المنزل فقل هلموا الطعام الذي عندكم فأعطوني صحيفة فيها عصيدة بتمر فأتيته بها فقال لي ادع أهل المسجد فقلت في نفسي الويل لي مما أرى من قلة الطعام والويل لي من المعصية فدعوتهم فاجتمعوا فوضع النبي صلى الله عليه وسلم أصابعه فيها وغمز نواحيها وقال كلوا بسم الله فأكلوا حتى شبعوا واكلت حتى شبعت ورفعتهما فإذا هي كهيتهما حين وضعتها إلا أن فيها آثار اصابع النبي ﷺ .

٨- وأخرج أبو يعلى والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وأبو نعيم عن قيس بن النعمان (رض) قال لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر مستخفين مرا بعد يرعى غنماً فاستقياه اللبن فقال ما عندي شاة تحلب غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشتاء وقد اخرجت وما بقي لها لبن فقال ﷺ ادع بها فدعها بها فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها ودعا وجاء أبو بكر بمجن فحلب ﷺ وسقى أبا بكر ثم حلب فسقى الراعي ثم حلب فشرب هو ﷺ فقال الراعي من انت فوالله ما رأيت مثلك قط قال محمد رسول الله قال انت الذي تزعم قريش أنه صاب قال إنهم ليقولون ذلك قال فأشهد أنك نبي وان ما جئت به حق وانه لا يفعل ما فعلت إلا نبي .

٩- وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال والله الذي لا إله إلا هو ان كنت لاعتمد كبدي على الارض من الجوع وان كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ولقد قعدت يوماً على الطريق فمر بي أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته الا ليستبغني فمر ولم يفعل ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رأيته وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال يا أبا هريرة قلت لبيك يا رسول الله .

قال الحق ومضى فاتبعته فدخل واستأذنت فأذن لي فدخلت فوجد صلى الله عليه وسلم لبناً في قدح فقال من أين هذا اللبن قالوا أهده لك فلان أو فلانة قال صلى الله عليه وسلم أبا هريرة .

قلت لبيك يا رسول الله :

قال الحق بأهل الصفة فادعهم وادعهم لي قال وأهل الصفة اضياف الاسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال إذا أتته صلى الله عليه وسلم صدقة بعث بها اليهم ولم يتناول منها شيئاً فاذا أتته هدية ارسل اليهم فأصاب منها وأشركهم فيها فسأني ذلك وقلت وما هذا اللبن في أهل الصفة كنت أرجو أن أصيب من هذا اللبن بشربة اتقوى بها وإني لرَسُول فإذا جاؤا أمرني صلى الله عليه وسلم أن أعطيهم ما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت فقال أبا هريرة قلت لبيك يا رسول الله قال خذ فأعطهم فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد عليّ القدر أعطيه لآخر فيشرب حتى يروى ثم يرد عليّ القدح حتى انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده ونظر إليّ وتبسم وقال يا أبا هريرة قلت لبيك يا رسول الله قال بقيت أنا وأنت قلت صدقت يا رسول الله قال اقعد فاشرب فشربت فقال اشرب فشربت فما زال يقول اشرب فاشرب حتى قلت لا والذي بعثك بالحق ما أجده له مسلماً فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة صلى الله عليه وسلم .

* * *

وبعد هذا ننتقل إلى خاتمة هذا الفصل :

تعقيب

ان المعجزة منجزة على صحة دعوى الرسالة . غير أن بعض الناس يحاول

أن يتهرب من حجيتها بذكر أشياء خارقة للعادة تظهر على يد غير الرسل ، يراها الناس ثم يعتبر ذلك دليلاً على أنه لم تقم عليه الحجة بالمعجزة ، والحقيقة أن هناك أشياء كثيرة يراها الناس خارقة للعادة وليست كذلك . والمعجزة تختلف عن كل هذه الأشياء وبهذا تقوم الحجة على الناس ولنضرب أمثلة :

في دمشق من بلاد الشام يرى الناس في حي الاكراد ظاهرة عجيبة هي خروج رجل انسان من قبر صاحبه ، والرجل لم تتغير ولم يتبدل مع ان صاحبها متوفى من مئات السنين ، ونسمع كثيراً عن اخبار ناس سحرة يأتون أشياء عجيبة ، ونسمع كثيراً عن أشياء عجيبة تظهر على يد فقراء الهنود ، والرسول ﷺ اخبرنا عن خوارق تظهر على يد الدجال في آخر الزمان ويروي لنا الثقات ان هناك ناساً من صلحاء المسلمين تظهر على أيديهم خوارق للعادة . فمثلاً يذكر ابن تيمية أن الشيخ عبد القادر الجيلاني منقولة كراماته تواتراً .

فما مقام المعجزة التي تقوم بها الحجة بين هذه الأشياء ؟

كنا ذكرنا في مقدمة هذه الفصول أن المعجزة تكون بخلق الله المباشر دون أن يكون للأسباب الكونية فيها أي تعلق . على خلاف السحر فانه علم له قوانينه من أتقنها ظهر على يده منه ، وعلى خلاف الأعاجيب التي تظهر نتيجة الرياضات الروحية . فان ذلك أثر من أسباب وقوانين كونية تخضع لها عوالم الروح .

ومن هنا كانت هذه الأشياء في الحقيقة نتائج عادية لمقدسات خاصة ، أما معجزة الرسول ﷺ فتختلف عن هذا كله لأنها ليست وليدة علم أو قانون كوني وسبب ، أما الخارقة للعادة التي تظهر على يد رجل صالح ، فهي مثل المعجزة من حيث كونها خارجة عن الأسباب ، ومن حيث كونها بقدرة الله المباشرة .

ولكنها في العادة لا تكون إلا على يد إنسان متمسك بحبل رسول الله ﷺ فهي أثر من آثار اتباع الرسول . فهي كرامة لمن ظهرت على يده معجزة

لرسول . لانه لولا اتباعه للرسول ما اظهر الله على يديه مثل هذه الخوارق ،
فالكرامة والمعجزة من مشكاة واحدة ، ولكن المعجزة تظهر مع دعوى الرسالة ،
والكرامة تظهر تأييداً لصاحب الرسالة على يد انسان متبع للرسول .

ولا نحكم على الخارقة انها كرامة الا بعد التأكد من استقامة صاحبها على
امر الله وسنة رسوله .

ان سنة الله جرت ألا يظهر خارقة للعادة بكل شروطها على يد انسان كذاب
في دعوى الرسالة عنه ، وهنا سر الفرق الحقيقي بين المعجزة وكل خارقة
أخرى .

فصاحب الكرامة لا يدعي الرسالة ، ولذا فان ظهورها على يده لا يجعل في
الأمر التباساً ، خاصة وهو متبع لرسوله متمسك بشريعته .

واما المسيح الدجال فليس يدعي الرسالة وتظهر معه الخوارق تأييداً لها
حاشا ، ولكنه انسان جعله الله عز وجل أعظم فتنة للبشر إذ يدعي الألوهية
ويظهر معه شيء من آثار قدرة الله ليبقى العقل البشري مسؤولاً ، إذ العقل
يعرف الله بصفات الكمال وهذا الإنسان لا يمكن أن يكون هو الله . فما يظهره
الله على يده فتنة يختبر بها العباد ، ولا يلتبس ما يظهر على يده بالمعجزة التي
تقوم بها الحجة ، لأنه لا يدعي الرسالة أصلاً ، ولو كان يدعي الرسالة ما
ظهرت على يده مثل هذه الخوارق .

وإذن بعض ما يظهر للناس أنه خوارق للعادة ليس هو في الحقيقة من هذا
النوع .

وبعضها لا يظهر مع دعوى الرسالة فلا يلتبس بالمعجزة .

وتبقى المعجزة شاهدة على صحة دعوى الرسالة ، والكرامة إذا خرجت من
أهلها دليل على صدق التابع والمتبوع ، فلا التباس بين المعجزة وغيرها والحجة
قائمة على البشر بها .

ولا عذر لأحد لا يتبع صاحبها .

وأخيراً وقد انتهى هذا الفصل ،

نقول :

ان انساناً يرى معجزة المعجزات بين يديه (القرآن) ثم لا يؤمن بأن محمداً رسول الله، أعمى القلب والعقل .

وان انساناً تؤكد له أصدق الوثائق التاريخية كثرة معجزات محمد عليه السلام ثم لا يؤمن به ، مظلم الوجدان والضمير .

وان انساناً مثل هذا ليقولن في يوم :
« وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » .

* * *

وإلى الفصل الثالث لنرى برهاناً آخر على أن محمداً رسول الله .

الفصل الثالث النبوءات

ان المستقبل مجهول للانسان ، وكل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان بالنسبة للمستقبل هو من باب التوقعات التي تعتمد على المقدمات المؤدية للنتائج ، وحتى في هذه فمهما أوتي الإنسان من صدق الحدس ، وقوة الإدراك ، فان كلامه يبقى من باب التوقعات التي يمكن ألا تقع ، أما في حالة عدم وجود المقدمات التي تؤدي إلى النتائج . فالمسألة تبقى من باب التخرصات أو التوهيمات ، ووقوعها في هذه الحالة من قبيل المصادفات ، وعدم وقوعها هو الأصل ، لقد تنبأ اليهودي الشيوعي الحبيث «ماركس» أن الثورة الشيوعية ستكون في المانيا وانكلترا ، وكان يستبعد ان تقوم في روسيا فكانت في روسيا للملابسات خاصة ولم تكن في المانيا او انكلترا .

فاذا ما وجدنا ظاهرة عند إنسان ، هذه الظاهرة هي أنه تحدث عن المستقبل حديثاً ما خرمه المستقبل ، ولا في جزء من أجزائه ، فنحن إذن أمام ظاهرة تحتاج إلى تحليل وتعليل ، وليس كلامنا هنا إلا في حالة التصديق الكامل من الواقع للنبوءة الثابتة ، فليس كلامنا إذن في التوقعات ، وليس كلامنا في التكهينات الكهنية التي يكذب الواقع عشرات منها ، وليس كلامنا في النبوءات المدعاة التي يُدعى أنها قيلت قبل وقوع مضمونها . والحقيقة أنها قيلت بعده ، وليس كلامنا في أمر بُيِّتَ فتنبأ بوقوعه بعض من بيته ، وليس كلامنا في إنسان تحققت بعض نبوءاته وكذب الواقع بعضها ، وليس كلامنا في نبوءة كانت عن رؤيا منام أو ما يشبه رؤيا منام ، وليس كلامنا في نبوءة صدرت عن تابع نبي صديق فكانت كرامة له باتباعه لهذا النبي .

وانما كلامنا في إخبار عن المستقبل المجهول ، عن رجل يقول عن نفسه إنه رسول ، ويتحقق هذا المستقبل تحقّقاً تاماً لا يخرم منه شيء . فذلك إذن نبوة لا شك فيها واتصال بالله عالم الغيب والشهادة لا شك فيه .
هكذا يذكرون عن التوراة وهكذا ذكر القرآن يقول الله في القرآن :

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » .
ويذكرون عن التوراة : (فان احببت وقلت في قلبك كيف أستطيع أن اميز الكلام الذي لم يتكلم به الرب فهذه تكون لك آية إن ما قاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهذا الرب لم يكن تكلم به بل ذلك النبي صورته في تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه .) الباب الثامن عشر من كتاب الاستثناء الثانية ٢٢ » .

وهذه نبوءات تحدث بها السيد الرسول محمد ﷺ تجعلك على مثل الشمس مبصرة . إن محمداً رسول الله ﷺ وانه لا ينطق عن الهوى والذي نعرضه هنا في هذا الفصل قليل من كثير نجتزئ به حتى يأخذ الإنسان صورة واضحة المعالم عن هذا الموضوع ومن أراد التوسع فعليه بالكتب التي استقصت هذه الابحاث ، وسترى في الأمثلة التي سندكرها نبوءات عن حوادث معينة لأشخاص معينين ونبوءات وقعت قديماً وأخرى نراها الآن . ونبوءات عن حوادث خاصة أو عامة تقع للأمة الاسلامية أو بينها قريباً من حياة الرسول ﷺ أو بعيداً وهذه هي الأمثلة فتأملها :

١ - روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :
صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال :
اثبت أحد فانما عليك نبي وصديق وشهيدان .

وهذه نبوءة فيها أن عمر وعثمان يستشهدان . وقد قتل عمر أبو لؤلؤة ،
وقتل عثمان في الفتنة المعروفة .

٢ - وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي موسى الأشعري : « أنه توضأ في بيته ثم خرج فقال : لأزمن رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومي هذا

فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا خرج وجهه ههنا فخرجت على أثره أسأل عنه حتى دخل بئر (أريس) فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته وتوضأ فقامت إليه فاذا هو قد جلس على بئر (أريس) وتوسط قفها (حافة البئر) وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب فقلت لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم فجاء أبو بكر فدفع الباب فقلت من هذا؟ فقال: أبو بكر.

فقلت على رسلك ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن. فقال: ائذن له وبشره بالجنة فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القف ودلى رجله في البئر كما صنع النبي ﷺ وكشف عن ساقيه ثم رجعت فجلست وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني فقلت إن يرد الله بفلان خيراً - يريد أخاه - يأت به فإذا إنسان يحرك الباب فقلت من هذا؟

قال: عمر بن الخطاب.

فقلت: على رسلك.

ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فسلمت عليه وقلت:

هذا عمر يستأذن فقال: ائذن له وبشره بالجنة فجئت عمر فقلت: أذن ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ في القف عن يساره ودلى رجله في البئر ثم رجعت فجلست فقلت: إن يرد الله بفلان خيراً - يعني أخاه - يأت به فجاء إنسان فحرك الباب فقلت من هذا فقال: عثمان بن عفان فقلت: على رسلك وجئت النبي ﷺ فأخبرته فقال:

ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه فجئت فقلت: ادخل ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك وفي رواية أخرى فقال: اللهم صبراً

فدخل فوجد القف قد مليء فجلس وجاههم من الشق الآخر .
فهذه نبوءة في أن عثمان ستصيبه بلوى وقد كانت هذه البلوى هي ما حدث
له في الفتنة التي أدت إلى قتله عليه الرضوان ، ومما يرشح هذا المعنى ما رواه
ابن عبد البر في الاستيعاب عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :
« ادعوا لي بعض أصحابي فقلت أبو بكر ؟ قال : لا . فقلت : عمر ؟
قال : لا . فقلت : ابن عمك علي ؟ قال : لا . فقلت : عثمان ؟ قال : نعم .
فلما جاء قال لي بيده فتنحيت فجعل رسول الله ﷺ يساره ولون عثمان
يتغير فلما كان يوم الدار وحصر قيل له : ألا تقاتل ؟ قال : لا . إن رسول الله
عهد إلي عهداً وأنا صابر نفسي عليه .

٣ - روى الشيخان عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ كان يدخل
على أم حرام بنت ملحان - وهي من خالاته في الرضاع - فتطعمه وكانت أم
حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته فنام
رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك قالت : ما يضحكك يا رسول الله؟
قال : ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر
ملوكاً على الأسرة .

قالت : فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فدعاهما ثم وضع
رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك .
قالت : ما يضحكك يا رسول الله ؟
قال : ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله ، كما قال في المرة
الأولى .

قالت : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني منهم .
قال : أنت من الأولين .

وقد غزا معاوية بن أبي سفيان قبرص في سنة ثمان وعشرين هجرية ومعه
من كبار الصحابة أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ، وكانت مع عبادة
زوجه أم حرام بنت ملحان .

٤ - أخرج الشيخان أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يوماً : أيكم يحفظ ما قال رسول الله ﷺ في الفتنة التي تموج كموج البحر فقال : حذيفة رضي الله عنه : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها باباً مغلقاً . قال : أيفتح أم يكسر . قال : يكسر . قال : إذن لا يغلق أبداً فليل لحذيفة : من الباب ؟ قال هو عمر قيل له : أكان عمر يعلمه ؟ قال نعم كما يعلم دون غد الليلة اني حدثته حديثاً ليس بالأعاليط .

وأخرج الطبراني عن أبي ذر (رض) أن النبي ﷺ قال : لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم يعني عمر . ويروى معناه عن عثمان بن مظعون وخالد ابن الوليد . وكلنا يعلم أن الفتنة بين المسلمين وقعت بعد عمر . أما الردة فلم تكن فتنة بين المسلمين ، وإنما كفر بالاسلام حاربه المسلمون وهم يد واحدة .

٥ - وأخرج الشيخان عن مسلمة بن الأكوع (رض) قال : كان علي تخلف عن النبي ﷺ في خيبر وكان رمداً فقال :

أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ فخرج فلحق به فلما كان مساء الليلة التي فتح الله في صباحها قال رسول الله ﷺ لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه ، فإذا نحن بعلي وما نرجوه فقالوا : هذا علي فأعطاه الراية ففتح الله عليه .

ووردت القصة أيضاً من حديث ابن عمر وابن عباس وسعد وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري ، وعمران بن حصين وجابر وأبي ليلى ، أخرجها كلها أبو نعيم .

٦ - أخرج البخاري عن أبي بكرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ للحسن : إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . فهذه نبوءة عن انقسام وفرقة وصلح بواسطة الحسن ، وقد كان الانقسام وجرت الدماء ثم أصلح الله الحال عندما تنازل الحسن للمعاوية عن الخلافة ، وحقن دماء المسلمين .

٧ - وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص قول رسول الله له وقد مرض بمكة حتى أشرف على الموت : « لعلك تخلف - أي تعيش - حتى ينتفع بك اقوام ويستنصر بك آخرون » فشفاه الله وفتح الله العراق على يديه وهدى الله به أناساً أسلموا على يديه وغنموا معه . وأضر الله به ناساً من الكفار جاهدوهم وقتل منهم وسى .

٨ - وأخرج الشيخان عن أبي سعيد ومسلم عن أم سلمة وأبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال لعمار : تقتلك الفئة الباغية قال الحافظ السيوطي : هذا الحديث متواتر رواه من الصحابة بضعة عشر .

ففي الحديث ثلاث نبوءات أن هناك فئة باغية وأن عماراً سيمتل قتلاً ، وأن الفئة الباغية قاتلته وقد كان كل هذا إذ قتلته فئة معاوية ولم يكن بجانبها الحق ، وقد دخل كثير من الصحابة المعركة بجانب علي بعد مقتل عمار لكون الحديث حجة له في كونه على الحق .

٩ - أخرج البخاري عن عدي بن حاتم قال : بينما أنا عند النبي ﷺ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة وأتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال : يا عدي بن حاتم إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله - قلت فيما بيني وبين نفسي فأين ذعار طيء الذين سعروا البلاد - ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت : كسرى بن هرمز قال : كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفيه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد قال عدي :

قد رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى ، ولئن طالت بكم حياة سترون اثالثة .

قال البيهقي : قد وقعت الثالثة في زمن عمر بن عبد العزيز ثم أخرج عن عمر بن أسيد عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً ، والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول :

اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله نتذكر من يضعه فيهم فلا نجده فيرجع بماله قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس .

١٠ - أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري (رضى) قال : بينا نحن عند النبي ﷺ وهو يتقسم قسماً إذ أتى ذو الخويصرة فقال يا رسول الله : اعدل قال : ويلك ومن يعدل إذا لم اعدل ، خبت وخسرت إن لم اكن أعدل . قال عمر يا رسول الله : ائذن لي فيه أضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ فإن له اصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يملكون من الاسلام كما يملق السهم من الرمية آيتهم رجل اسود احدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر يخرجون على خير فرقة من الناس . قال أبو سعيد فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتي به حتى نظرت اليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته .

وأخرج مسلم عن عبيدة قال لما فرغ علي من أصحاب النهر قال : ابتغوا فيهم إن كانوا القوم الذين ذكر رسول الله ﷺ فان فيهم رجلاً مخدج اليد فابتغيناه فوجدناه فدعواناه إليه فجاء حتى قام عليه فقال : الله أكبر ثلاثاً . والله لولا أن تبطروا لحدثكم بما قضى الله على لسان رسول الله ﷺ لمن قتل هؤلاء ، قلت : انت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال أي ورب الكعبة . ثلاث مرات .

١١ - أخرج مسلم عن أسماء بنت أبي بكر (رضى) أنها قالت للحجاج سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن في ثقيف كذاباً ومبيرا . فأما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فلا أخالك إلا إياه) وقد روى ابن سعد والبيهقي عن عذر ما يشير إلى الحجاج ، وكذلك روى الإمام أحمد والبيهقي عن الحسن ما يشير إليه ، وأخرج البيهقي عن علي كذلك ما يشير إليه .

١٢ - وأخرج الشيخان عن جابر بن سمرة (رضى) قال : قال رسول الله

عليه السلام : إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله .

وأخرجه البخاري عن أبي هريرة .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن أبي محيريز قال : قال رسول الله ﷺ فارس نطحة أو نطحتان ، ثم لا فارس بعد هذا ابداً ، والروم ذوات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن .

ومعروف تاريخياً أنه بسقوط دولة الأكاسرة انتهى أمرهم تماماً ولم يستردوا ملكهم بتاتاً وبقي من يومها الامر للمسلمين ، وبسقوط دولة القياصرة في القسطنطينية انتهت دولتهم تماماً ولم يستردوها مرة ثانية وبقي من يومها الأمر للمسلمين ، مع ملاحظة أن الدولة الرومانية طال أمرها حتى سقطت بيد المسلمين سقوطاً نهائياً ، على عكس الدولة الفارسية وهذا ما أشار إليه الحديث الثاني .

١٣ - وأخرج أبو داود والترمذي عن سفينة قال قال رسول الله ﷺ الخلافة بعدي في أمي ثلاثون سنة ، ثم تصير ملكاً عضوضاً بعد ذلك وهكذا وقع خلافة أبي بكر سستان وثلاثة أشهر وعشرون يوماً ، وخلافة عمر عشر سنين وستة أشهر واربعة أيام ، وخلافة عثمان إحدى عشر سنة وإحدى عشر شهراً وثمانية عشر يوماً وخلافة علي أربع سنين وعشرة اشهر أو تسعة ، وخلافة الحسن ستة اشهر فكانت ثلاثين .

والحديث الذي رواه البزار بسند حسن صحيح يتحدث بشكل واضح عن مراحل الحكم في الأمة الإسلامية ، كما وقعت ونثبت هنا نص الحديث كما ورد في كتاب « الموافقات » و « الامامة » .

« إن أول دينكم نبوة ورحمة وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ، ثم يكون ملكاً عاضاً فيكم ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعه الله جل جلاله ثم يكون ملكاً جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل في الناس بسنة النبي ، ويلقي الاسلام بجرانه في الأرض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الارض

لا تدع السماء من قطر إلا صبته مدراراً ، ولا تدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئاً إلا أخرجته .

وواضح ان الدور الاول والثاني انتهى بزوال الخلافة الراشدة ، وأن الدور الثالث استمر حتى زوال الدولة العثمانية ، وأن الدور الرابع هو الذي نحن فيه وأن الدور الخامس قادم باذن الله .

١٤ - وأخرج مسلم عن أبي ذر (ر ض) قال قال رسول الله () « إنكم ستفتحون ارضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فان لهم ذمة ورحماً » والمقصود بالرحم أنهم أخوال ابراهيم بن السيد الرسول ﷺ : إذ المقصود في ذلك ارض مصر والآثار في الاخبار عن فتح مصر كثيرة .

١٥ - وأخرج البيهقي عن أبي هريرة (ر ض) قال : وعدنا رسول الله ﷺ غزو الهند وقد غزوناها .

١٦ - روى الستة إلا النسائي عنه عليه الصلاة والسلام :

« لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر . ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الانوف كأن وجوههم المجان المطرقة وينطبق الوصف تماماً على التتار ، أما اصحاب نعال الشعر فقد ذكر البيهقي : أن قوماً من الخوارج خرجوا بناحية الري وكانت نعالهم الشعر وقوتلوا .

١٧ - أخرج أبو يعلى عن معاوية بن خديج (ر ض) قال : كنت عند معاوية فأتاه كتاب عامله أنه اوقع بالترك وهزمهم فغضب معاوية من ذلك ثم كتب له لا تقاتلهم حتى يأتبك امرؤ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لتظهرن الترك على العرب حتى تلحقها بمنابت الشيخ والقيصوم وهما نبتان

يوجدان في بلاد العرب وقد حدث أن السلطان خلال أربع مائة عام كان للترك على العرب إلا مناطق الصحراء .

١٨ - روي البخاري « لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله » .

وفي حديث ابن الزبير

« بين يدي الساعة ثلاثون كذاباً » .

وأخرج أحمد عن حذيفة بسند جيد « سيكون في أمتي كذابون دجالون سبعة وعشرون ، أربعة نسوة وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي » .

وقد ظهر كثير من هؤلاء الكذابين حتى الآن ولعل ابرزهم في عصرنا غلام أحمد القادياني الذي ادعى انه نبي نسخت به شريعة محمد ﷺ ومن هذه السلسلة الحبشة مسيلمة ، والأسود العنسي وسجاح .

١٩ - روي البخاري والحاكم في المستدرک عن أبي هريرة « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى » . وروي ابن أبي شيبه وأحمد والحاكم وصححه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ليت شعري متى تخرج نار من جبل وراق تضيء لها أعناق البخت ببصرى كضوء النهار » ويبدو ان الحديث هنا عن بركان عظيم يخرج من أرض الحجاز من مكان عينه الرسول ﷺ .

وقد وقع هذا

قال النووي تواتر العلم بخروج هذه النار عن جميع أهل الشام قال السهمودي وكانت في زمنه وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة لكنها كانت خفيفة فلم يدركها بعضهم مع تكررها ، واشتدت في يوم الثلاثاء وظهرت ظهوراً عظيماً ثم في ليلة الأربعاء ثالث الشهر في الثالث الاخير من الليل حدث زلزلة عظيمة جداً أشفق الناس منها

واستمرت تزلزل بقية اليوم ثم إلى يوم الجمعة ولها دوي أعظم من الرعد فتموج الأرض وتتحرك الجدران حتى وقع في يوم واحد دون ليلته ثماني عشرة حركة . وكانت هذه كلها مقدمات لظهور هذه النار وقد وصف القسطلاني في كتاب أفردته لهذه الحادثة هذه النار فقال :

« إن ضوأها استولى على ما بطن وما ظهر حتى كأن الحرم والمدينة قد اشترقت بهما الشمس وتأثر من لهيبها النيران ، وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة ، ولونها هي يعتريه حمرة والقمر كأنه كسف » .

وقال القسطلاني كذلك : « أنها لم تزل مارة على سبيلها وهي تسحق ما والاها وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصى ، وإن طرفها الشرقي أخذ بين الجبال فحالت دونها ثم وقفت ، وإن طرفها الشامي وهو الذي يلي الحرم اتصل بجبل يقابله يقال له وعيرة على قرب من شرقي جبل أحد » . وقد ذكر هذه النار السمهودي في تاريخ المدينة ، وذكرها القاضي سنان والقاشاني والعماد بن كثير والمطري وغيرهم ...

٢٠ - وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم « وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » .

٢١ - روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ صنفان من أمتي من أهل النار لم أرهما بعد . قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت وكذا ...

وروى الامام احمد والحاكم عن ابن عمر : « يكون في آخر هذه الأمة رجال يركبون على الميائثر حتى يأتوا أبواب المساجد . نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف إلعنوهن فإنهن ملعونات ، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمهم كما خدمتكم نساء الأمم قبلكم » .

ولعل أدق وصف لما عليه وضع النساء في زماننا من تبرج وعري وتن وميوعة وفتنة ، هو ما وصفهن به الحديث الشريف ، وهذا لا شك معجزة واضحة. إذ ما كان أحد يستطيع أن يتصور أن تصبح المرأة المسلمة في مثل هذه الحالة التي عليها الآن ، حتى إنك لو كنت في بداية هذا القرن الرابع عشر الهجري لما استطعت أن تتصور بشكل من الأشكال هذا الوضع الحاضر لامرأة أصلها مسلمة .

٢٢ - أخرج أبو داود والبيهقي عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟

قال : بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قيل وما الوهن يا رسول الله : قال حب الدنيا وكراهية الموت. والمراقب لوضع المسلمين منذ ظهور ما يسمى بالمسألة الشرقية حتى الآن يجد هذه الظاهرة ظاهرة طمح الأمم بالعالم الاسلامي والكيد له والتخطيط لامتنعاص خيراته واضحة جداً مع ما وصف به رسول الله المسلمين .

٢٣ - أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : على انقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال وقد مر على الأمة الاسلامية مئات السنين واجتاح الطاعون كثيراً من بلاد الإسلام في كثير من الأعصار . والمدينة المنورة يأتيها في كل سنة مسلمون من كل الامصار وما حدث ولن يحدث بإذن الله ان رؤيت مرة ظاهرة انتشار الطاعون في المدينة ، وهذا شيء معروف مأثور متعارف عليه عند علماء الاسلام .

٢٤ - وهذه جملة أحاديث تراها في عصرنا هذا واقعاً يتحرك أمامك : « إن بين يدي الساعة فشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وقطع الارحام وفشو القلم وظهور الشهادة بالزور وكتمان شهادة الحق » .

« يأتي على الناس زمان لا يتبع فيه العليم ولا يستحيا فيه من الحليم ، ولا يوقر فيه الكبير ولا يرحم فيه الصغير يقتل بعضهم بعضاً على الدنيا ، قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً يمسي الصالح فيهم مستخفياً أولئك شرار خلق الله لا ينظر الله إليهم يوم القيامة » .

« لا تقوم الساعة حتى يجعل كتاب الله عاراً ويكون الاسلام غريباً ، وحتى تبدو الشحنة بين الناس وحتى يقبض العلم ويهرم الزمان وينقص عمر البشر وينقص السنون والثمرات ويؤتمن التهماء ، ويتهم الأمانة ، ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ، ويكثر الهرج - وهو القتل - وحتى تبنى الغرف أي القصور فتطاول وحتى تحزن ذوات الأولاد أي لعقوق أولادهم ، وتفرح العواقر ويظهر البغي والحسد والشح ويهلك الناس ويكثر الكذب ويقل الصدق وحتى تختلف الأمور بين الناس ويتبع الهوى ، ويقضى بالظن ويكثر المطار ويقل الثمر ويغيض العلم (أي علم حقيقة الاسلام) غيضاً ، ويفيض الجهل فيضاً . ويكون الولد غيظاً والشاء قيظاً ، ويقوم الخطباء بالكذب فيجعلون حقي لشرار أمتي ، فمن صدقهم بذلك ورضي به لم يرح رائحة الجنة .

* * *

وأخيراً نقول :

إن هذا الباب قد ألفت فيه كتب كثيرة ونقل فيها الكثير الكثير ، وهو قليل بالنسبة لما ذكره الرسول ﷺ للصحابة عن المستقبل ، فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة قال « قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً فما ترك شيئاً يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، وقد علمه أصحابي هؤلاء وأنه ليكون منه السيء قد نسيته فأراه فأذكر كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه » .

وروى مسلم عن عمرو بن أنصاري قال صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ثم صعد المنبر

فخطبنا حتى حضرت العصر ، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأنبأنا بما هو كائن إلى يوم القيامة فأعلمنا أحفظنا » .

إنها النبوة ولا شيء غير ذلك « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . .
« من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها » .

النبوة التي دللنا بما أخبرتنا عنه من غيوب أن لصاحبها صلة كاملة بالله ، ولولا ذلك ما ظهر في كلام صاحبها آثار علم الله المحيط في الماضي والحاضر ، وكأنما المستقبل أمامه مكشوف بكشف الله له .

وهذه آثار أخرى عن رسول الله ﷺ لا تحتاج إلى شرح لوضوح انطباقها على وضع أمتنا في هذا العصر ، فكأنما قيلت فيه عنه وهي مسطورة في كتب الاخبار عنه عليه السلام من مئات السنين نقلناها من كتاب مطابقة الاختراعات العصرية للأحاديث النبوية ، وقد نسب صاحبه كل حديث إلى مصدره ومرجعه من كتب الحديث .

١ - « لا تقوم الساعة حتى تروا أموراً عظماً لم تكونوا ترونها ولا تحدثون بها أنفسكم » .

٢ - « ولن يكون ذلك (أي من قضية الدجال) حتى تروا أموراً يتفاقم شأنها في نفوسكم وتساءلون بينكم هل كان نبيكم ذكر لكم منها ذكراً » .

٣ - « لا تقوم الساعة حتى يخرج الناس من المدينة إلى الشام يبتغون فيها الصحة » .

والشام تشمل فلسطين ولبنان والأردن وسوريا ، وانظر حال مصايف هذه البلاد تجد كيف أنها مملوءة بالحجازيين وغيرهم ممن يأتون للراحة فقط مما لم يكن موجوداً من قبل .

٤ - « لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطراً لا تكن منها بيوت المدر ولا تكن منها إلا بيوت الشعر » . ولعل صورة الطائرات في الحرب العالمية الثانية

وهي تمطر المدن بوابل القنابل فتزعزع كل بناء . تذكرنا بجزء مما ينطبق الحديث عليه . إذ تأثير هذه القنابل على بيوت المدر أكثر من تأثيرها على بيوت الشعر .

٥ - « إن الله تعالى قال في الحديث القدسي :
«أبث العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأه والعبد والحر والصغير والكبير فإذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحقي عليهم » .
ومن رأى تسهيل العلم في زماننا وكثرة أدواته ومعاهده من مدارس واذاعة وجرائد ومجلات و ... رأى مصداق الحديث .

٦ - ومن حديث علي وله حكم المرفوع .
« ويحاً للطالقان فان لله فيه كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة » والطالقان من قزوين وتلك ناحية وجود البترول .

٧ - « تخرج معادن مختلفة معدن منها قريب من الحجاز يأتيه من اشرار الناس » .

ونحن نعلم أن معدن البلاد القريبة من الحجاز في عصرنا إنما يستخرجه الأجانب بوسائلهم الكثيرة وفي الحديث الآخر «ستكون معادن يحضرها شرار الناس » ولاحظ كلمة يحضرها المشددة الضاد .

٨ - « ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره » .

ومن رأى في زماننا قيام الحياة الاقتصادية كلها على المصارف والبنوك رأى الواقع الذي أخبر عنه الحديث .

٩ - « ما أنتم إذا مرج الدين وسفك الدماء وظهرت الزينة وشرف البنيان » ،
وفي زماننا حدث هذا كله : اختلط الدين وكثر القتل وظهرت الزينة وكثر البنيان وشرف وتطاول كما في حديث آخر « وحتى يتطاول الناس في البنيان » .

١٠ - « لا تقوم الساعة حتى يكون القرآن عاراً ويتقارب الزمان ». وقد أصبح القرآن الآن رجعيّاً وأصحابه يعبرون بالرجعية وتقارب الزمان حتى قطعت المسافة الطويلة بالزمن القصير .

١١ - « كيف بكم أيها الناس إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم قالوا : يا رسول الله إن هذا الكائن قال : نعم » . وقد حدث هذا كما يشاهد واقعاً .
١٢ - « إذا كثّر قراؤكم وقلت علماؤكم وكثرت أمراؤكم وقلت أمناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة وتفقه لغير الله ... » .
وقد كثّر القراء وقل العلماء وكثّر الأمراء حتى في كل قطر أمير وأصبحت الدنيا هدفاً ولم تعد معاهد العلم تخرج طلاباً لله .

١٣ - « ان بين يدي الساعة سنين خداعة يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين ويتكلم فيها الرويبضة قيل وما الرويبضة ؟ قال : الفاسق يتكلم في أمر العامة » .
« سيأتي على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطلق فيها الرويبضة قيل : وما الرويبضة قال : الرجل التافه ينطق في أمر العامة » .

« والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل ويخون الأمين ويؤتمن الخائن وتهلك الوعول وتظهر التحوت قالوا : يا رسول الله وما الوعول وما التحوت ؟ قال : الوعول وجوه الناس وأشرافهم ، والتحوت الذين كانوا تحت اقدام الناس لا يعلم بهم » .
« وكان زعيم القوم أرذلهم » .

ومن رأى واقع السنين التي نعيش بها علم مصداق هذه الآثار إذ تسلط على الناس في كل مكان أكثر الناس وضاعة وانحطاطاً وتفاهة ، وضاع اصحاب الحلوم والعقول .

١٤ - « سيكون بعدي سلاطين ، الفتن على أبوابهم كبارك الإبل لا يعطون

أحداً إلا أخذوا من دينه مثله» ولعل كلمة «كبارك الابل» أبلغ وصف مفهوم يومئذ للسيارات .

١٥ - «يوشك أن يؤمر عليهم الرويجل فيجتمع إليه قوم محلقة أفئيتهم بيض قمصهم فإذا أمرهم بشيء حضروا» .
فانظر هذا الوصف الدقيق لنوع الحلاقة والقمصان التي يلبسها بعض الموظفين ممن لم يكن نوعيتها معروفة قديماً .

١٦ - «والمشي بالأسواق والافخاذ بادية» . وهذا ينطبق على ما يسمى في زماننا بالفرق الرياضية والكشفية ويرى خاصة أثناء الاستعراضات .

١٧ - «قص اللحية» وقد أصبح الآن هو السائد واللحية مستغربة .

١٨ - «لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل ، ولتأخذن بمثل أخذهم إن شبراً فشبر وإن ذراعاً فذراع ، وإن باعاً فباع ، حتى لو دخلوا جحر ضب دخلتم فيه» . ومن رأى كثرة تقليدنا للغربيين في أي مسلك ساكوه شاهد يقينا وقوع الحديث .

١٩ - وما رواه معاذ في أشراط الساعة :

«ان الدم يسفك بغير حقه ، والمال يعطى على الكذب» . وترى المال يعطى على الكذب في صورة إعطائه لرجال المباحث السياسية على تقارير ، قسم كبير منها كاذب . ولكتاب روايات مختلفة : وإعداد برامج اذاعية مختلفة كاذبة وأشياء كثيرة من هذا القبيل .

٢٠ - «ويح لهذه الأمة ماذا يلقي فيها من أطاع الله ؟ كيف يكذبونه ويضربونه أنه أطاع الله من أجل أنهم ما أطاعوا الله - قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله الناس يومئذ على الإسلام ؟

قال نعم يا عمر

قال عمر : يا رسول الله : الناس يومئذ على الإسلام ؟

قال : نعم يا عمر ،

قال عمر يا رسول الله : ولم يبغضون من أمرهم بطاعة الله ؟

قال ترك القوم الطريق وتزين الرجل منهم بزينة المرأة لزوجها وتبرج النساء زيهم زي الملوك الجبابرة يسمنون كالنساء فإذا تكلم أولياء الله وأمرهم بطاعة الله قيل له : أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة تكذب بالكتب تحرم ، زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، تأولوا كتاب الله على غير تأويله واستذلوا أولياء الله »

ومن عرف وضع الأمة الإسلامية اليوم رأى كيف أن الدعاة إلى الله وشريعته يضطهدون في كل مكان من قبل الحكام الظالمين .

٢١- « ستكون فتنه يفارق الرجل فيها أخاه وأباه تطير الفتنة في قلوب الرجال منهم إلى يوم القيامة حتى يعير الرجل فيها بصلاته كما تعير الزانية بزناها » .

وما رؤيت هذه الفتنة في العالم الإسلامي إلا هذا العصر الذي فيه يلام الرجل على صلاته ويوبخ ، ويعير مع كثرة دعوات السوء المنتنة ودخول أصحابها فيها واستمرارهم عليها مع بطلانها .

٢٢- « يأتي على الناس زمان يخير الرجل فيه بين العجز والفجور فمن أدرك ذلك الزمان فليختر العجز على الفجور » .

٢٣- « سيخرج قوم في آخر الزمان هم دجالون كذابون ببدع من الحديث لم تسمعوا به أنتم ولا أبائكم فإياكم وإياهم لا يفتنونكم » .

٢٤- « إذا كنت في قوم عشرين رجلاً أو أقل أو أكثر فتصفت وجوههم فلم تر فيهم رجلاً يهاب الله عز وجل فاعلم أن الأمر قد حضر » .

٢٥- « لا تقوم الساعة حتى يفيض المال فيضاً ، ويفيض الكرام غيضاً ، ويجترى الصغير على الكبير والثلثم على الكريم » .

٢٦ - «يأتني على الناس زمان تلمات فيه الصلوات ، ويشرف فيه البنيان ويكثر فيه الحلف والتلاعن ويفشو فيه الرشا والزنا ، وتباع الآخرة بالدنيا. فإذا رأيت ذلك فالنجا والنجا قيل : وكيف النجا قال : كن حلسا من أحلاس بيتك وكف لسانك ويدك » .

٢٧ - «ليأتين على الناس زمان يؤمنون بالله ولا يشركون به شيئاً ويصومون رمضان ويصلون الخمس وقد سلبوا دينهم لأنهم رأوا الحق فتركوه » .

٢٨ - «إني لأعلم أهل دينين من أمة محمد ﷺ في النار قوم يقولون : ان كان أولنا ضلاًّ ما بال خمس صلوات في اليوم والليلة إنما هما صلاتان : العصر والفجر » .

والذي يعرف شيئاً عن طائفة الإسماعيليين يدرك صدق الحديث فإنهم يؤمنون أن عليهم صلاتين فقط صباحاً ومساءً .

٢٩ - «سيظهر شراز أمتي على خيارهم حتى يستخفي فيهم المؤمن كما يستخفي فيكم المنافق اليوم » .

٣٠ - «ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحرّ والحريم والحمير والمعازف» وهذا واقع الآن بشكل واضح .

٣١ - «إنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكاب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » .

٣٢ - «لا يخرج الدجال حتى يذهل الناس عن ذكره وحتى تترك الأئمة ذكره على المنابر » .

٣٣ - «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة . فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة » .

٣٤ - «يأتي على الناس زمان يصبح الرجل بصيراً ويمسي ما يبصر شعرة» . «أي يضل الحق » .

٣٥ - «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً».

٣٦ - «إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم فتن كقطع الدخان يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدينه ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع أقوام أخلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا» .

٣٧ - «ليت شعري كيف أمتي بعدي حين تتبختر رجالهم وتمرح نساؤهم ، ليت شعري كيف هم حين يصيرون صنفين صنفاً ناصبي نحورهم في سبيل الله . وصنفاً عمالاً لغير الله » .

٣٨ - «إذا ظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب العيش وجاهلوا في غير سبيل الله فالقائمون يومئذ بكتاب الله سرّاً وعلانية كالسابقين الأولين من المهاجرين والانصار » .

٣٩ - «ذلك أيام المهرج حين لا يأمن الرجل جليسه » .

٤٠ - «قال أبيض رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى لا تبقى ملة إلا ولها منكم نصيب . قلت يبادرون يخرجون من الإسلام ؟

قال : يصلون بصلاتكم ويجلسون مجالسكم وهم معكم في سوادكم ، ولكل ملة منهم نصيب . قلت : (أي الوليد راوي الحديث) إي والله لكل ملة منهم نصيب إلا الإسلام فلا نصيب له منهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم» .

٤١ - «من اقتراب الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار ويفتح القول ويخزن العمل » .

٤٢ - «من اقتراب الساعة تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال» .

* * *

وأنت إذا تأملت هذه الآثار فإنك لا تجد فيها حديثاً إلا وتراه أمامك واقعاً على الأرض الآن ، مما لم يكن موجوداً من قبل . حتى أن رأي العين لا يصف بأبلغ من هذا ، وإنما كان هذا ، لأنه أثر علم الله المحيط الذي أطلع على بعضه محمداً ﷺ فقال ما قال ووقع كل ما قال . وفي ذلك الشهادة الكاملة على أن محمداً ﷺ رسول الله حقاً وصدقاً لا يمتري في ذلك إلا متكبر أو حاسد أو شيطان يرى الحق ولا يتبعه .

ان النبوات التي اخترناها كلها نبوءات قد وقعت للرسول عليه السلام . ونبوات أخرى لم يحن وقتها بعد ، ومن العجيب أن بعضها مذكور في الكتب الدينية السابقة على رسولنا عليه السلام : وهذا يؤكد أن مصدر هذه النبوات السابقة الوحي وأنها من القسم الذي لم يحرف في الكتب الأولى ، وكل تحليل آخر ظاهر الفساد ، فلم تكن مثل هذه القضايا منتشرة ولا معروفة في الجزيرة العربية .

والرسول عليه السلام أُمِّي لا يحسن القراءة ، ولم تكن هذه الكتب أصلاً مترجمة الى العربية في ذلك الزمان ، عدا عن كون النسخ محدودة جداً لا توجد إلا عند رؤساء الدين اليهودي بالنسبة لنسخ التوراة . غير أن بعض هذه النبوءات موجودة في كتب العهد الجديد التي لا يؤمن بها اليهود أصلاً . وليست موجودة عندهم ولم تكن هناك أي صلة بين النصارى ورسول الله عدا عن كون الفكر النصراني لم يكن له أي صدى في مكة والمدينة . عدا ما ذكر أن ورقة بن نوفل كان له مثل هذا الاتجاه .

إلا أن اتصال الرسول بورقة كان محدوداً ومعروفاً ما جرى فيه ، وورقة آمن برسالة محمد من اللحظة الاولى ، فليس هناك من تحليل لوجود هذه النبوات المشتركة إلا وحدة المصدر وهو الوحي .

أبرز هذه النبوات المشتركة ثلاث :

١ - الإنخبار عن يأجوج ومأجوج .

٢ - الإخبار عن المسيح الدجال .

٣ - الإخبار عن نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان وأنه يقتل الدجال .

فقد أخبر الرسول عليه السلام عن مجيء ناس ذوي عدد هائل سمووا باسم يأجوج ومأجوج إلى منطقة في فلسطين قبيل قيام الساعة ، وأخبر عليه السلام بأحاديث متواترة عن ظهور إنسان سماه المسيح الدجال يدعي الألوهية وهو أكبر ما فتن به البشر ، وأن المسيح عليه السلام يقتله بعد نزوله .

وقد ذكر في كتاب المشاهدات الباب ١٩ وفي الباب الثاني من الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيق وهما كتابان نصرانيان .

« ان عيسى - عليه السلام - سيقتل الدجال وعسكره بعد نزوله » .

وقد نقل عن حزقيال عليه السلام في كتب العهد القديم أنه أخبر عن خروج يأجوج ومأجوج في الزمن المستقبل وإهلاكهم حين وصولهم إلى جبال اسرائيل ثم عقب على ذلك في الكتاب المنسوب إليه في الباب التاسع والثلاثين الفقرة الثامنة .

« ها هو جاء وصار يقول الرب الإله هذا هو اليوم الذي قلت عنه » اشارة الى يوم القيامة .

إن هذا كله يؤكد لنا رسالة محمد عن الله ويجعلنا على اليقين الذي لاشك معه ، أن ما قاله عليه السلام هو الحق الذي لا يمتري فيه ،

ملاحظة : قصة يأجوج ومأجوج واردة كذلك في القرآن ، ولكن التفصيلات التي ذكرناها عن الرسول ﷺ آنفا توضح وتبين الآيات القرآنية ، ومن عجيب الاخبار ما ذكره لنا الاستاذ محمد الصواف عن رجل سعودي سماه لنا كان في الصين وأخبره هذا الرجل وهو معروف في الحجاز : أنه عندما كان في الصين أخبره الصينيون أن عندهم قبيلتين معروفتين تسميان مأجوج ويأجوج وتسميان بهذا الاسم الآن وهما مشهورتان به .

الفصل الرابع الثمار

إن دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام تختلف عن أي دعوة أخرى من دعوات البشر المنبئة عن هداية الله ، ولذلك كان شيئاً عادياً تماماً أن تكون آثارها وثمارها تختلف عن غيرها ، فإذا كان من ثمار الدعوات الأخرى الإغراق في الشهوات والملذات الحيوانية ، فإن من ثمار دعوة الرسل ضبط النفس إلا عن المتع المعقولة .

وإذا كان من ثمار الدعوات الأخرى عدم التقيد بالحق والخير والمعروف . فإنه شيء عادي أن يكون من ثمرات دعوة الرسل الالتزام بهذا ، وإذا كانت دعوات غير الرسل تعتبر الجمال مقدماً على الأخلاق ، فشيء عادي أن يكون من ثمرات دعوة الرسل اعتبار الجمال في الأخلاق الكريمة العالية .

والقصد من هذا أن نقول :

إن الفطرة تحس بالخير والشر ، وأن فطرة الإنسان تستشعر الثمرة الطيبة للدعوة الطيبة ، كما يستشعر ذوق الإنسان حلاوة الثمرة الطيبة ، وإن فطرة الإنسان تستشعر الثمرة الحبيثة للدعوة الحبيثة ، كما يستشعر ذوق الإنسان مرارة الثمرة الرديئة .

ولذلك كان عند الفطرة نوع بصيرة تستطيع بها أن تميز ثمرات الرسول الحق من ثمرات مدعي النبوة الكاذب ، وأن ترى في آثار كل ما يدل على صدق الأول وادعاء الثاني .

وقد أشارت الكتب السماوية إلى هذا المعنى :

فقال الله تعالى في القرآن :

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكيداً » .
ويذكرون في الإنجيل يوحنا الباب السابع الفقرة الخامسة عشر على لسان
المسيح قوله :

« احذروا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بشباب الحملان ولكنهم من
داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم ، هل يجتنبون من الشوك عنباً أو
من الحسك تيناً » .

ويقول الله تعالى :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم
ركعاً سجداً يتغنون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر
السجود ذلك مثلبهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه
فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » .
ويذكرون في الباب الثالث عشر من الإنجيل متى على لسان المسيح عليه
السلام :

« قدم لهم مثلاً آخر قائلاً : يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها
إنسان وزرعها في حقله وهي أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهي أكبر
البقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتأوي في أغصانها » .

يعرف النبي من ثماره ، لذلك كان لا بد من كتابة هذا الفصل لتبيان أن
ثمار محمد عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن تكون إلا ثمار نبي .

وسنستعرض في هذا الفصل عشر ثمرات من ثمراته عليه الصلاة والسلام . في
كل منها شهادة كاملة على أنها منبثقة من شجرة النبوة الطيبة العطرة المتميزة .

أولاً - التوحيد :

في الهند اليوم ٢٠٠ مليون بقرة ، هذه الأبقار يعتبرها الهنود مقدسة ،

وبالتالي فإنهم لا يستفيدون منها بتاتاً ، ويحرمون ذبحها ، وأكثر من هذا فإن الشعب الهندي كله مسخر لخدمتها ، وتعيش على حسابه ، فكم يحتاج هذا العدد من الأبقار إلى مراعى وطعام ؟

وكم تعطل طاقات على حساب هذا المعنى ؟

وزيادة على ذلك فإن لهذا البقر سلطاناً على كل شيء . تقف البقرة فتوقف وراءها السيارات ولا يززعها أحد حتى تمضي هي فيمضي غيرها. وتبول في أي مكان ، وتختفي في أي مكان . وتعتدي على مالك أي إنسان ، ولا أحد يجرو على أن يعترض سبيلها بشيء . وفي الهند هذه السنين مجاعة تهدد عشرات الملايين ، ترى لو استفاد الشعب الهندي من البقر ألا تنحل شيء من أزمته ؟

إن هذه الصورة من صور الشرك جعلت البشر مسخرين لخدمة البقر .

وفي مصر اليوم أهرامات ضخمة جداً ، أحجارها ضخمة جداً ، نقلت من أمكنة بعيدة جداً ، نقلها آلاف من أبناء الشعب المصري إلى منطقة الأهرامات ، وتعبت في بناء هذه الأهرامات آلاف الأدمغة وآلاف الأيدي من أجل ماذا ؟

من أجل أن يصنعوا قبراً لفرعون الذي كانوا يعبدونه كإله !! فكم أنفق من جهد ، وكم أنفق من أموال ؟ بسبب هذه الصورة من صور الشرك .

شعب من البشر مسخر كله لخدمة فرد من البشر .

وفي العالم اليوم حوالي ثلاثة عشر مليوناً من الطائفة الإسماعيلية ، التي تعبد رجلاً كإله وتقدم له كل عام خمس أموالها ، تجعله في كفة ميزان ، وتجعل الذهب في كفة أخرى حتى يتساويا ، وتقدمه له كهدية سنوية ، ثلاثة عشر مليوناً من البشر يستغلهم فرد باسم الألوهية . ليجهدوا ويقدموا ، أما هو فيأخذ ويكتز وينفق بلا حساب على أشياء كثيرة وقديكون المرشح لهذا المنصب داعراً

فاسقاً ماجناً ، ينال هذا كله ويصرفه في كل سبيل داعر ، ذلك أثر من آثار الشرك بالله ، أن يستغل فرد من البشر شعباً كاملاً من البشر باسم ألوهية الإنسان وعبودية الإنسان للإنسان .

وفي العالم اليوم شعوب وثنية ، وقديماً كانت الوثنية منتشرة في العالم كله لم تخل منها أمة من الأمم :

الرومان واليونان ، والهند والصين واليابان والعرب . . والشعوب الافريقية من مصر إلى غيرها . . فماذا تعني هذه الوثنية ؟ قبل أن نقول ماذا تعني نضرب أمثلة عن نماذج منها :

أ- عند العرب :

١- روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا خثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به .

٢- وقال الكلبي : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذها رباً ، وجعل ثلاثاً أثافيً لقدره وإذا ارتحل تركه .

٣- وقال صاعد في كتاب (طبقات الأمم) كانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وتميم الدبران ، ولخم وجذام المشتري ، وطيء سهيلاً ، وقيس الشعري العبور ، وأسد عطار .

٤- وقال الكلبي : كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه . فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً .

٥- وكان لكل قبيلة من العرب صنم ولكل ناحية أو مدينة صنم خاص وكان في فناء الكعبة وحدها ثلاث مائة وستون صنماً للعبادة .

٦ - قال سعيد بن جبير في شرح الأزلام : « الأزلام حصى بيض كانوا إذا أرادوا غدواً أو رواحاً كتبوا في قدحين في أحدهما : أمرني ربي وفي الآخر نهاني ربي ، ثم يضربون بهما فأيهما خرج عملوا به » .

ب - عند الهنود :

يقول أبو الحسن الندوي عن حال الوثنية في الهند :

« بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس ، فقد كان عدد الآلهة في يده ثلاثة وثلاثين ، وقد أصبحت في هذا القرن ٣٣٠ مليوناً ، وقد أصبح كل شيء رائعاً وكل شيء جذاباً ، وكل مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد ، وهكذا تجاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلهات الحصر وأربت على العد ، فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله - زعموا - في عهود وحوادث معروفة ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله ، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس « مهاديو » الإله ، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة ، والأجرام الفلكية وغير ذلك ، وأصبحت الديانة نسيجاً من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان » .

ج - والفرس كانوا يعبدون ملوكهم ونيرانهم ، واليابانيون يعتبرون ملكهم ابن الشمس المعبودة ، واليونانيون يعبدون إله المطر فلاناً وإلهة الحب فلانة وإله الحرب فلاناً .. وهكذا ..

* * *

فماذا تعني هذه الوثنيات كلها ؟

تعني أن الإنسان اعتبر نفسه أقل من الحجر ، وأقل من الشمس ، وأقل

من الحيوانات، وأقل من مظاهر الطبيعة كلها ، بل جعلها في مقام السيد ،
وجعل نفسه في مقام العبد الدليل ، وجعلها تتحكم به بواسطة وبغير واسطة .
وقال النصارى : إن المسيح ابن الله وأعطوه حكم الأب — تعالى الله عما
يقول الظالمون علواً كبيراً —

فأصبح المسيح عندهم إلهاً ، كما اعتبر الهنود بوذا من قبل إلهاً ، وهؤلاء
وهؤلاء صنعوا التماثيل لهذا وهذا وعبدوها ، فأصبحت ديانة وثنية شركية
من ناحيتين : من ناحية عبادة الأصنام ومن ناحية عبادة الإنسان ، ونتج عن
هذا أن اعتبر النصارى خليفة المسيح الممثل بالبابا له حكم المسيح من حيث
طاعة أوامره ونواهيه ، فأصبح التحليل والتحريم والتضليل والتخريف الذي
عليه طابع الديانة المقدسة الصادر من قبل البابا هو كل شيء . فكانت مآسي
وفظائع من حَجَرٍ على العقل ، وقتل للأنفس ، وسلب للحريات ، ومقاومة
لكل حق ما ذكر التاريخ منه الكثير .

* * *

وألحد ناس قديماً وألحدوا في هذا العصر إلا الأقل ، فماذا يعني
الإلحاد ؟

يعني الإلحاد أن الإنسان عبد الكون كله بدلا من أن يعبد أجزاء منه ،
وخلع على الكون كله صفات الألوهية ، فالكون يخلق ويرزق ، ويُعطي
ويمنع ، ويحيي ويميت ، ويتصرف ويعمل ويرتب ويبدع ويكون ، واعتبروا
أنفسهم أعظم ما في هذا الكون فعبدوا أنفسهم ؛ اعتبروا أن الإنسان مصدر
التشريع ، ومصدر الحاكمية ، ومصدر الأمر والنهي . وهو حر أن يفعل وأن
يترك وأن يعمل كل شيء فغلبتهم شهواتهم ، وظالموا بعضهم ، وأصبح كل
واحد من هؤلاء يعتبر نفسه إلهاً ، وأخيراً اعتبرت الفلسفة الشيوعية الشعب
كله إلهاً يفعل ما يشاء ، لاراداً لحكمه ، وتمثل الشعب بأفراد تصرفوا
كآلهة ، فحدث على يدهم من المآسي ما لم يحدث على يد غيره ، حتى

أنه قتل في زمان ستالين وحده تسعة عشر مليوناً من أبناء الشعوب المسماة بالاتحاد السوفيتي .

فلم يكن الإلحاد إذن إلا صورة جديده من صور الشرك ، انتقل به الإنسان من الجزئية إلى الكلية ، ومن الشرك الواضح إلى الشرك المقتنع ، فأعطى الكون كله صفات الألوهية بعدما كان يعطي أجزاء منه ، وعبد نفسه وتعبّد لها بعدما كان يعبد غيره .

* * *

ومحمد وحده بوحي من الله ، من يوم بعثته إلى قيام الساعة ، هو الذي وضع الإنسان في محله الصحيح فعلمه :

١ - أن الكون كله ، قمره وشمسه ونجومه وأرضه وحيواناته من بقر ونمر وأسد وعجل ، ونباتاته كلها ، وأحجاره ومعادنه وكل شيء فيه خلق للإنسان ! فالإنسان سيده والإنسان مكرم ومفضل عليه .
« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » .

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض » .

ومن حق الإنسان أن يستفيد من الأرض وخيراتها ، ومن القمر وما فيه ومن المريخ وغيره ، كل الكون مسخر للإنسان والإنسان أكرم ما فيه :
« ولقد كرّمنا بني آدم » .

٢ - وأن الله خالق الكون والإنسان ، هو وحده الإله المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، المستحق وحده للعبادة . والإنسان عبده وحده
« وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » .

فالناس كلهم عباد الله . رسولهم ونبيهم ، وملكهم وخادمهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، ولا يجوز أن يعطوا عبوديتهم لأحد سواه .

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

« ما كان لبشر أن يوئيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

لا إله إلا الله

لا حجر ولا قمر ولا بشر ولا كون ولا مجلساً نيابياً يحلل ويحرم كما يشاء ، ولا شعب ولا حاكم ولا محكوم ولا بشرية كلها .

كل الكون للإنسان ، والإنسان لله . مقام الإنسان السيادة على المخلوقات ، لأنها مسخرة له ، والعبودية لله وحده : بنقلة واحدة نقل محمد ﷺ البشر من أحط الدرجات إلى أعلى الدرجات ، وبذلك وجد المسلم ، وهذه أول ثمرة من ثمار محمد ﷺ وهي أول ثمرة من ثمار كل نبي ولكن الناس انخرفوا : مكتوب في نسخ التوراة الموجودة الآن :

(لو دعا نبي أو من يدعي الإلهام في المنام إلى عبادة غير الله يقتل هذا الداعي وإن كان ذا معجزات عظيمة) الباب الثالث عشر من سفر الاستثناء ، وفي الباب السابع عشر منه :

(لو ثبت على أحد عبادة غير الله يرمم رجلاً كان أو امرأة) .

ومكتوب في نسخ الإنجيل الحالي :

(وهذه هي الحياة الأبدية أن تعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) «إنجيل يوحنا الباب السابع عشر - ٣»

وفي الباب الثاني عشر من إنجيل مرقس - ٢٨- (فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله : أية وصية هي أول الكل فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا : إسمع يا إسرائيل الرب إلحنا رب واحد) .

* * *

وبهذه النظرة إلى الكون والإنسان ، فتح المسلم أقفال الكون بالتجربة والملاحظة ، يدفعه في ذلك عقيدة أن الكون كله للإنسان ، وعليه أن يستفيد منه ، ولئن وصلت الحضارة الغربية اليوم إلى القمة في تسخير الكون ، فذلك بسبب أنها أخذت هذا المعنى عن الحضارة الإسلامية ، ولولا ذلك لما كان في أوروبا حضارة ولا علم وأين يكون ومحاكم التفتيش وسيف الكنيسة مسلطة على رأس كل من يفكر ، يقول بريفولت في كتابه « بناء الإنسانية » :
« ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير .

ويقول في موضع آخر :

لم تكن العلوم الطبيعية التي يرجع فيها الفضل إلى العرب هي التي أعادت أوروبا إلى الحياة ، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومُتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوروبا .
ولكن للأسف فإن أوروبا أخذت جزءاً فقط من هدي محمد ﷺ في هذا الموضوع ولو أخذته كله لأفلحت واهتدت .

إن هذه الثمرة من ثمار محمد ﷺ التي لا يصلح الإنسان إلا بها ، ولا يأخذ مجمله الصحيح إلا إذا اعتقدها ، لا يمكن أن تكون على هذا الكمال والتمام في دعوة محمد عليه الصلاة والسلام لولا أنه رسول الله حقاً . أراد الله به أن ترجع الإنسانية عن الانحراف إلى الاستقامة .

ثانياً — التبشير باليوم الآخر وطلب النجاة فيه وجعله محور سلوك الإنسان

مكتوب في كتاب أيوب في الباب الثاني والأربعين منه فقرة (١٧) :
(ومات أيوب شيخاً معمرأً ويبعث مرة أخرى مع الذين يبعثهم الرب) .
ومكتوب في إنجيل مرقس الباب الثالث عشر فقرة (٣٢) :

« وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين في السماء ولا (الابن) أي المسيح إلا (الآب) أي الله) ، وتعالى أن يكون أباً أو يكون له ولد ، وإنما ذكرنا العبارة هنا لندلل على ذكر يوم القيامة في كتب العهد القديم والجديد .

ومكتوب في الباب التاسع عشر من إنجيل متى هكذا (١٦) : (وإذا واحد تقدم وقال أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية) .

إن الرسل كلهم بعثوا من أجل أن يبشروا بالحياة الأبدية الطيبة للصالحين والعذاب الأبدي للطالحين .

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

إن من ثمار محمد ﷺ أنه أخرج بإذن الله وأمره جيلا من البشر لم يعد له همة إلا في أن ينال رضا الله ، وينال سعادة الأبد ، ودل البشرية على الطريق إلى ذلك . فكان أتباعه أعظم نماذج عرفها العالم كطلاب آخرة . هذا مع قيام كامل في أمر الدنيا إصلاحاً ورعاية ، ولكن كمر إلى الآخرة . وهذه أمثلة على هذه النماذج تخرجها تربية محمد ﷺ في كل جيل و كان فيها القدوة الأولى :

١ - أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير قال فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع وقرظ (ورق السلم يدبغ به) في ناحية من الغرفة ، وإذا إهاب معلق فابتدرت عينايا فقال : ما يبكيك ؟ يا ابن الخطاب ! فقال : يا نبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانة لا أرى فيها إلا ما أرى وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته ، وهذه خزانة . قال : يا ابن الخطاب ؛ أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟

٢ - وأخرج أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت :

« مات أبو بكر رضي الله عنه ذمًا تراء ديناراً ولا درهما ، وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فألقاه في بيت المال » .

٣ - ومن حديث طويل أخرجه ابن عساکر عن الحسن البصري في عمر بن الخطاب :
« فقالوا : ما ترون يا معشر المهاجرين والأنصار إلى زهد هذا الرجل وإلى حليته ؟

لقد تقاصرت إلينا أنفسنا مذ فتح الله على يديه ديار كسرى وقیصر ، وطرفي المشرق والمغرب ، ووفود العرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة قد رقعتها اثنتي عشرة رقعة . فلو سألتهم معاشر أصحاب محمد ﷺ وأنتم الكبراء من أهل المواقف والمشاهد مع رسول الله ﷺ والسابقين من المهاجرين والأنصار يغير هذه الجبة بثوب لين يهاب فيه منظره ويغدى عليه جفنة من الطعام ويراح عليه جفنة يأكله ومن حضره من المهاجرين والأنصار .

فقال القوم بأجمعهم : ليس لهذا القول إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه أجراً الناس عليه وصهره على ابنته ؛ أو ابنته حفصة — فإنها زوجة رسول الله ﷺ وهو موجب لها لموضعها من رسول الله ﷺ .
فكلموا علياً فقال علي :

لست بفاعل ذلك ولكن عليكم بأزواج النبي ﷺ فإنهن أمهات المؤمنين يجترئن عليه .

قال الأحنف بن قيس : فسألوا عائشة وحفصة رضي الله عنهما وكانتا مجتمعتين .

فقالت عائشة : إني سائلة أمير المؤمنين ذلك .

وقالت حفصة : ما أراه يفعل وسيبين لك ذلك .

فدخلتا على أمير المؤمنين فقربهما وأدناهما .

فقالت عائشة : يا أمير المؤمنين أتأذن أكلمك ؟

قال : تكلمي يا أم المؤمنين ! قالت : إن رسول الله ﷺ مضى لسبيله إلى جنته ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده ، وكذلك مضى أبو بكر رضي الله عنه على أثره لسبيله بعد إحياء سنن رسول الله ﷺ وقتل المكذبين ، وأدحض حجة المبطلين ، بعد عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وإرضاء رب البرية ، فقبضه الله إلى رحمته ورضوانه وألحقه بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى . لم يرد الدنيا ولم ترده ، وقد فتح الله على يديك كنوز كسرى وقبصر وديارهما ، وحمل اليك أموالهما ودانت لك أطراف المشرق والمغرب ، ونرجو من الله المزيد ، وفي الإسلام التأييد ، ورسول العجم يأتونك ، ووفود العرب يردون عليك ، وعليك هذه الجبة ، قد رقعتها اثنتي عشرة رقعة ، فلو غيرتها بثوب لين يهاب فيه منظرك ، ويغدى عليك بجفنة من الطعام ويراح عليك بجفنة تأكل أنت ومن حضرك من المهاجرين والأنصار .

فبكى عمر عند ذلك بكاء شديداً ثم قال :
سألتك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شبع من خبز بر عشرة أيام أو خمسة أو ثلاثة ، وجمع بين عشاء وغداء حتى لحق بالله ؟ !

فقالت : لا .

فأقبل على عائشة فقال :

هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرب إليه طعام على مائدة في ارتفاع شبر من الأرض . كان يأمر بالطعام فيوضع على الأرض ويأمر بالمائدة فترفع ؟ قالتا : اللهم نعم . قال لهما : أنتما زوجتا رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين ، ولكما على المؤمنين حق وعلي خاصة . ولكن أتيتما ترغباني في الدنيا وإني لأعلم أن رسول الله ﷺ لبس جبة من الصوف فربما حاك جلده من خشونتها ، أتعلمان ذلك ؟
قالتا : اللهم نعم ،

فقال : هل تعلمين أن رسول الله ﷺ كان يرقد على عبادة على طاقة واحدة وكان مسحاً في بيتك يا عائشة تكون بالنهار بساطاً وبالليل فراشا فندخل عليه فنرى أثر الحصرير على جنبه ، ألا يا حفصة أنت حدثيني أنك ثنيت له ذات ليلة فوجد لينها فرقد فلم يستيقظ إلا بأذان بلال فقال : لك يا حفصة ماذا صنعت ؟ أثنيت المهاذ ليلتي حتى ذهب بي النوم إلى الصباح ؟ مالي وللدنيا وما لي شغلتموني بلين الفراش يا حفصة !

أما تعلمين أن رسول الله ﷺ كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أمسى جائعاً ورقد ساجداً ، ولم يزل راکعاً وساجداً وباكياً ومتضرعاً في آناء الليل والنهار إلى أن قبضه الله برحمته ورضوانه ! لا أكل عمر طيباً ، ولا لبس ليناً ، فله أسوة بصاحبيه ، ولا جمع بين آدمين إلا الملح والزيت ، ولا أكل لحماً إلا في كل شهر ينفض ما انفض من القوم ، فخرجتا فخبرتا بذلك أصحاب رسول الله ﷺ فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل .

٤ - رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يقيـل في المسجد وهو يومئذ خليفة ، قال :

ويقوم وأثر الحصرير بجنبه ،

فيقال : هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين .

وعن شرحبيل بن مسلم أن عثمان (رض) كان يطعم الناس طعام الأمانة ويدخل بيته فيأكل الحل والزيت .

٥ - أخرج أبو نعيم في الحلية (ج ١ ص ٨٢) عن رجل من ثقيف أن علياً (رض) استعمله على عكبرا قال :

ولم يكن السواد يسكنه المصلون - وقال لي : إذا كان عند الظهر فرح إلي فرجعت إليه فلم أجده عنده حاجباً يحبسني عنه دونه ، فوجدته جالساً وعنده قدح وكوز ماء - فدعا بطينة فقلت في نفسي :

لقد آمني حتى يخرج إلي جوهرأ ولا أدري ما فيها ، فإذا عليها خاتم

فكسر الخاتم ، فإذا فيها سويق ، فأخرج منها فصب في القدح ، فصب عليه ماء فشرب وسقاني ، فلم أصبر فقلت :
يا أمير المؤمنين ! أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك !
قال : أما والله ما أختم عليه بخلا عليه ، ولكني أبتاع قدر ما يكفيني فأخاف أن يفني فيصنع من غيره ، وإنما حفظي لذلك ، وأكره أن أدخل بطني إلا طيباً .

٦ - أخرج أبو نعيم في الحلية (ج ١ ص ١٠١) عن عروة قال : دخل عمر بن الخطاب على أبي عبيدة بن الجراح (رض) فإذا هو مضطجع على طنفسة رحله ، متوسد الحقيبة فقال له عمر : ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؟ هذا يبلغني المقييل . وقال معمر في حديثه : لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض فقال عمر : أين أخي قالوا : من ؟ قال : أبو عبيدة ، قالوا الآن يأتيك ! فلما أتاه نزل فاعتنقه فقال ثم دخل عليه بيته فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله .
٧ - وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الحسن قال :

كان عطاء سلمان (رض) خمسة آلاف درهم ، وكان أميراً على زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين ، وكان يخطب الناس في عباءة يفرش بعضها ويلبس بعضها ، وإذا خرج عطاؤه أمضاه (أي تصدق به) ويأكل من سفيف يده .

٨ - روى الإمام أحمد عن محمد بن كعب أن ناساً نزلوا على أبي الدرداء (رض) ليلة قرّة فأرسل اليهم بطعام سخن ولم يرسل اليهم بلحف ، فقال بعضهم لقد أرسل إلينا بالطعام فما هنأنا مع القر ، لا أنتهي أو أبين له . قال الآخر : دعه ، فأبى .

فجاء حتى وقف على الباب ، رآه جالساً وامرأته ليس عليها من الثياب إلا ما لا يذكر فرجع الرجل وقال :
ما أراك بت إلا بنحو ما بتنا به ،

قال : إن لنا داراً ننتقل إليها قدمنا فرشنا ولحفنا إليها (أي الدار الآخرة)
ولو ألفت عندنا منه شيئاً لأرسلنا إليك به وأن بين أيدينا عقبة كؤوداً ، المَخِيف
فيها خير من المثلث أفهمت ما أقول لك ؟

قال : نعم .

٩ - وأخرج أبو نعيم عن عمر بن حمزة بن عبد الله قال : كنت جالساً
مع أبي فمر رجل فقال :

أخبرني ما قلت لعبد الله بن عمر (رض) يوم رأيتك تكلمه بالحرف ؟
قال : قلت يا أبا عبد الرحمن ! رقت مضغتك ، وكبر سنك ، وجلساؤك
لا يعرفون حقك ولا شرفك ، فلو أمرت أهلك أن يجعلوا لك شيئاً يلففونك
إذا رجعت اليهم ، قال : ويحك والله ما شبت منذ إحدى عشرة سنة ولا اثني
عشرة سنة ولا ثلاث عشرة سنة ولا أربع عشرة سنة ولا مرة واحدة
فكيف لي ؟

ولما بقي مني كظمي الحمار .

١٠ - أخرج عمر بن شبة عن أفلح مولى أبي أيوب رضي الله عنه قال :
كان عمر (رض) يأمر بحلل تنسج لأهل بدر يتنوق فيها (أي يتجود ويبالغ)
فبعث إلى معاذ بن عفراء حلة فقال لي معاذ :

يا أفلح : بع هذه الحلة فبعثها له بألف وخمسة مائة درهم ثم قال :
اذهب فابتع لي بها رقاباً ، فاشتريت له خمس رقاب ، ثم قال والله إن امرءاً
اختار قشرين يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لغيبين الرأي ، اذهبوا فأنتم
أحرار .

* * *

مما مضى يتبين كيف أن الجليل الذي رباه محمد رسول الله جيل
أصبح همه الأعلى الآخرة ، ولم يعد له في غيرها همة : إلا إذا كان وسيلة إلى

الآخرة تقر بهم إلى الله ، وتفرع عن هذا الأصل سلوك لا مثيل له في أي جانب من جوانب الحياة ، والحياة والمال هما الميزان الذي يمتحن به إيمان الإنسان بالمبدأ والعقيدة . فعلى قدر تضحيته يكون إيمانه ، والتضحية التي نراها عند الصحابة — الجليل الذي رباه رسول الله — بالنفس والمال ابتغاء وجه الله والدار الآخرة تضحية لا مثيل لها في تاريخ العالم أبداً ، مما يدل على مقدار إيمانهم باليوم الآخر ، حتى أصبح محور وجودهم . وهذه أمثلة على تضحيتهم بالمال والنفس تؤكد لك مقدار استقرار هذا المعنى في أنفسهم :

أ — تقول زوجة طلحة بن عبيد الله (رض) :
دخلت يوماً على طلحة فرأيت منه ثقلاً فقلت له : مالك ؟ لعله رابك
من شيء فنعيتك ؟

قال : لا ولنعم حليلة المرء المسلم أنت ! ولكن اجتمع عندي مال ولا
أدري كيف أصنع به . قلت :

وما يغمك منه ! ادع قومك فاقسمه بينهم .

فقال : يا غلام علي بقومي .

فسألت الخازن : كم قسم ؟

قال : أربع مائة ألف .

« كذا في الترغيب ، ورجاله ثقات »

ب — وأخرج أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن العزيز قال :
« كان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، فكان يقسمه كل
ليلة ثم يقوم إلى منزله وليس معه شيء » .

— سمعت السيدة عائشة (رض) يوماً رجة في المدينة فقالت : ما هذا ؟
قالوا : قافلة لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شيء ، وكانت
سبعمائة بعير فقالت : يدخل عبد الرحمن الجنة حبوا (أي بسبب غناه) فلما
بلغه ذلك قال :

إني لأرجو أن أدخلها قائما ، فجعل القافلة كلها في سبيل الله الجمال وما عليها
ووزعها على الناس .

ج - أخرج الطبراني في الكبير عن مالك الدار (هو مالك بن عياض مولى
عمر ذكره الحافظ في الإصابة)

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربع مائة دينار ، فجعلها في صرة فقال
للغلام : اذهب بها الى أبي عبيدة بن الجراح (رض) ثم تله في البيت ساعة
حتى تنظر ما يصنع ، فذهب الغلام إليه فقال :
يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك .
فقال : وصله الله ورحمه ثم قال :

تعالى يا جارية ! إذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ،
وبهذه الخمسة إلى فلان ، حتى أنفدها ورجع الغلام إلى عمر فأخبره . فوجده
قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل رضي الله عنه فقال :

اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل وتله في البيت حتى تنظر ما يصنع ، فذهب
بها إليه فقال :

يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال رحمه الله
ووصله ، تعالى يا جارية ! اذهبي إلى بيت فلان بكذا . إذهبي إلى بيت فلان
بكذا . فاطلعت امرأة معاذ وقالت :

و نحن والله مساكين فأعطنا فلم يبق في الخارقة إلا ديناران فدحى بهما (أي
رمى) إليها ، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر بذلك فقال : إنهم إخوة
بعضهم من بعض .

د - أخرج ابن سعد عن أم درة قالت أتيت عائشة بمائة ألف ففرقتها وهي
يومئذ صائمة فقات لها : أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً
تفطرين عليه .

فقلت : لو كنت أذكرتني لفعلت .

هـ - وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا . فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه ، فقال له بنوه إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت فنحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن بني هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك ، والله إنني أرجو أن استشهد ، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ،

وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيداً .
و - تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ فقال :

يا سعد بن معاذ الجنة ورب الكعبة إنني أجد ريحها من دون أحد قال أنس فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون فما عرفه إلا أخته بينانه .

ز - وأخرج ابن سعد عن جعفر بن عبد الله بن مسلم الهمداني (رض) قال : لما كان يوم اليمامة كان أول الناس جرح أبو عقيل الأنيفي (رض) رمي بسهم فوق بين منكبيه وفؤاده فشطب في غير مقتل فأخرج السهم ووهن شقه الأيسر - لما كان فيه . وهذا أول النهار وجر إلى الرحل ، فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم وأبو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدي رضي الله عنه يصيح بالأنصار :

الله ! الله ! والكرة على عدوكم واعنق معن يقدم القوم وذلك حين صاحت الأنصار :

أخلصونا ! أخلصونا فأخلصوا رجلاً رجلاً يميزون . قال عبد الله بن عمر (رض) فنهض أبو عقيل يريد قومه ، فقلت ما تريد يا أبا عقيل ! ما فيك قتال ؟

قال : قد نوه المنادي باسمي . قال ابن عمر فقلت إنما يقول يا للأنصار لا يعني الجرحى .

قال أبو عقيل : أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبواً ، قال ابن عمر فتحزم أبو عقيل وأخذ السيف بيده مجرداً ثم جعل ينادي يا للأنصار كرة كيوم حنين . فاجتمعوا - رحمهم الله - جميعاً يقاتلون المسلمون دربة (أي جرأة وشجاعة وقفة) دون عدوهم حتى اقتحموا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم . قال ابن عمر : فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت على الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل وقتل عدو الله مسيلمة ، قال ابن عمر :

فوقعت على أبي عقيل وهو صريع آخر رمق فقلت :
يا أبا عقيل :

فقال : لبيك - بلسان ملتاث - لمن الدبرة ؟ قال قلت : أبشر ، ورفعت صوتي قد قتل عدو الله فرفع اصبعه إلى السماء يحمد الله ومات يرحمه الله . قال ابن عمر : فأخبرت عمر (رض) بعد أن قدمت خبره كله فقال : رحمه الله ما زال يسأل الشهادة ويطلبها ، وإن كان ما علمت من خيار أصحاب نبينا ﷺ وقديم إسلام.

ح - وفي يوم اليرموك قال عكرمة بن أبي جهل :
« قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن ، وأفر منكم اليوم ثم نادى من يبايع علي الموت ؟ »

فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور (رض) في أربع مئة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد (رض) حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتل منهم خلق : منهم : ضرار بن الأزور ، وأتى خالد (رض) بعدما أصبحوا بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه ، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء ويقول : كلا زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد .

ط - وروى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف (رض) قال : «إني لفي الصف الأول يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يميني ويساري فتیان حديثا السن فكأنني لم آذن ، كانهما إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه : يا عم أرني أبا جهل ، فقلت :

يا ابن أخي ما تصنع به ؟

قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه .

فقال لي الآخر : سرّاً من صاحبه مثله

قال : فما سرني أني بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء»

* * *

فهل وجد جيل في العالم مثل هذا الجيل ، بلغ في التضحية في سبيل الله وابتغاء رضوانه وطمعاً في جنته وخوفاً من ناره كما بلغ هذا الجيل العظيم الذي رباه رسول الله ﷺ .

ولعل في الأمثلة التالية من صبر الصحابة وتحملهم الأذى وثباتهم على دعوة الله حرصاً على السعادة الأبدية ، ما يجعلك على اليقين الذي ما بعده يقين ، ان تربية الرسول ﷺ كانت أعظم تربية ربانية في تاريخ الإنسان . هدفها رضوان الله دون مطعم آخر :

أ - أرى خباب بن الأرت عمر بن الخطاب ظهره وفيه آثار تعذيب

المشركين له فقال عمر ما رأيت كاليوم . قال خباب : أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك ظهري » أي دهنه .

ب - وقال أبو ذر :

قلت : يا رسول الله : إني أريد أن أظهر ديني . فقال رسول الله : أخاف عليك أن تقتل ، قلت لا بد منه وإن قتلت .

قال : فسكت عني فجئت وقريش حلقاً يتحدثون في المسجد فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فانقضت الحلق فقاموا فضربوني حتى تركوني كأني نصب أحمر ، وكانوا يرون أنهم قد قتلوني ، فأفقت فجئت إلى رسول الله ﷺ فرأى ما بي من الحال فقال لي : ألم أنك . فقلت : يا رسول الله كانت حاجة في نفسي قضيتها .

ح - عن أبي رافع قال :

وجه عمر بن الخطاب (رض) جيشاً إلى الروم وفيهم رجل يقال له عبد الله بن حذافة من أصحاب النبي ﷺ فأسره الروم ، فذهبوا به إلى ماكنهم فقالوا له : إن هذا من أصحاب محمد ﷺ فقال له الطاغية :

هل لك أن تنتصر وأشركاك في ماكني وسلطاني ؟

فقال له عبد الله : لو أعطيتني ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت .

قال : إذاً أقتلك .

قال : أنت وذاك فأمر به فصلب .

وقال للرماة : ارموه قريباً من يديه قريباً من رجليه ، وهو يعرض عليه وهو يأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت ، ثم دعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقى فيها وهو يعرض عليه النصرانية

وهو يأبى ، ثم أمر به أن يلقي فيها فلما ذهب به بكى فقبل له : إنه قد بكى
فظن أنه جزع فقال :

ردوه ، فعرض عليه النصرانية فأبى ،

فقال : ما أبكاك إذن ؟

فقال : أبكاني أني قلت في نفسي تلقى الساعة في هذا القدر فتذهب ،
فكنت أشتي أن يكون بعدد كل شعرة في جسدي نفس تلقى في الله .

فقال الطاغية : هل لك أن تقبل رأسي وأخلي عنك ؟

قال له عبد الله : وعن جميع أسارى المسلمين ؟

قال : وعن جميع أسارى المسلمين

قال عبد الله ، فقلت في نفسي : عاود من أعداء الله أقبل رأسه يخلي
عني وعن أسارى المسلمين لا أبالي ، فدنا منه فقبل رأسه فدفع اليه الأسارى
فقدم بهم على عمر رضي الله عنه فأخبر عمر بخبره فقال عمر :

حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبداً
فقام عمر فقبل رأسه .

د - وعن عثمان رضي الله عنه قال :

بينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ بالبطحاء إذ بعمار وأبيه وأمه
يعذبون في الشمس ليرتدوا عن الإسلام فقال أبو عمار : يا رسول الله الدهر
هكذا . فقال : صبراً يا آل ياسر . اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت ، وفي
رواية : صبراً يا آل ياسر صبراً يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة .

هـ - وعن أبي الأسود قال :

... وكان عم الزبير يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار وهو
يقول ارجع إلى الكفر فيقول الزبير : لا أكفر أبداً .

ترى أيمكن أن يكون هذا التفتاني في طلب رضوان الله إلا ثمرة من ثمار
نبي ؟

أو يمكن أن يستطيع كذاب على الله أن يجعل أصحابه في هذه الدرجة من الرغبة في نيل رضوان الله ؟ إن من المعروف أن فاقد الشيء لا يعطيه ، إن الرجل الذي يكذب على الله لا يؤمن به ولا يؤمن باليوم الآخر الذي أعده ، فلا يستطيع أن ينقل الناس إلى هذه الحال من الإيمان ، لولا أنه أعلى في هذا الموضوع منهم بكثير . فلقد نقل رسول الله ﷺ الناس إلى حال الرهبة من الله بشكل لا نرى مثله إلا عند نبي .

فأعطاهم اليوم الآخر حساً رقيقاً مرهفاً . إذا وقع أحدهم بالمعصية جاد بنفسه من أجل التخلص من آثارها ، وترفعوا عن الشهوات والدنيا واحتقروا مظاهر الحياة الفانية ، حتى أن أحدهم أصبح ولا تساوي الدنيا عنده شيئاً يذكر ، فأصبحت الفضيلة لهم عادة ، والأمانة عندهم محترمة ، وكلمتهم عهداً . وكل ذلك حرصاً على رضوان الله وطلباً لجنته وخوفاً من ناره .

أ - روى الإمام مسلم :

أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إني ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني فردّه . فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله : إني زنيت فردّه الثانية . فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً ؟ فقالوا : ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل اليهم أيضاً فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم .

قال : فجاءت الغامدية فقالت :

يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني .

وإنه ردها فلما كان الغد قالت يا رسول الله : لم تردني ؟ لعلك أن أن تردني كما رددت ماعزاً . فوالله إني لحبلى . قال :

أما لا فاذهبي حتى تلدي ، قال : فلما ولدت أته بالصبي في خرقة قالت : هذا قد ولدت .

قال : فاذهبي فأرضعيه حتى تطفميه ، فلما فطمته أته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبي الله سبه إياها فقال :

مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له . . ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

ب - حدث الطبري قال :

« لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض ، أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به فعرفوا أن للرجل شأنًا فقالوا من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني . ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس . »

ج - أرسل سعد قبل القادسية ربيعي بن عامر رسولا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير وأظهر اليواقيت والآليء الثمينة العظيمة ، وعليه تاج وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب .

ودخل ربيعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له :

ضع سلاحك ،

فقال : إني لم آتكم ، وإنما جئتكم حين دعوتوني ، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت .

فقال رستم : ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمح فوق النمارق فمخرق عامتها .
فقالوا له : ما جاء بكم ؟

فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

د - « هم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ أفضالة ؟ قال نعم فضالة يا رسول الله : قال : ماذا كنت تحدث به نفسك .

قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك النبي ﷺ ثم قال : أستغفر الله ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه وكان فضاله يقول :

والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه .
قال فضالة : فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت هلم إلى الحديث فقلت :

يأبى الله عليك والإسلام . »

هـ - عن أبي موسى قال :

انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسييسون جلوس سماطين وقد قال عمرو وعمارة :
لأنهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسييسين والرهبان :
اسجدوا للملك فقال جعفر : لا نسجد إلا لله .

* * *

إنه بمحمد رسول الله ﷺ أصبح الضمير يقظاً على اليوم الآخر . لا يغفل عنه ، فاستقام بذلك عمود الحياة كلها . اليوم الآخر الذي دعا إليه كل المرسلين وغفل عنه كل الناس وهو أهم قضايا الإنسان لأنها قضية مصيره ويجعلها الإنسان أبسط قضاياها لغلبة الحس بالدنيا عليه حتى إذا مات الإنسان وانكشف له صدق الرسل فيما أخبروا عنه ندم ولات حين مناص .

وإحياء الإنسان بهذه الذكري وإحياء هذه الحقيقة في قلب الإنسان هي
الثمرة الثانية من ثمرات رسول الله ﷺ وإنها لثمرة نبوة لا ثمرة كذابين
مدعين ، ولا يستطيع العقل أن يتصور إلا هذا .

* * *

ثالثاً - إنسانية واحدة كريمة :

وجاء محمد رسول الله ﷺ ونظرة الناس بعضهم إلى بعض ما يلي :

أ - في الهند :

لم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة ، وأعظم فصلاً بين
طبقة وطبقة ، وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند
دينياً ومدنياً وخضعت له آلافاً من السنين ولا تزال ، وقد بدت طلائع التفاوت
الطبقي في آخر العهد الويدي ، بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها ، أو بحكم
المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجاتها . وقبل ميلاد المسيح
بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد
للمجتمع الهندي . وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفق عليه في البلاد ، وأصبح
قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ
« منو شاستر »

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات متميزة وهي :

١ - البراهمة طبقة الكهنة ورجال الدين

٢ - شترى : رجال الحرب

٣ - ويش : رجال الزراعة والتجارة .

٤ - شودر : رجال الخدمة .

ويقول « منو » مؤلف هذا القانون :

« إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه . وشترى من
سواعده . ويش من أفخاذه . والشودر من أرجله ، ووزع لهم فرائض
وواجبات لصالح العالم . فعلى البراهمة تعليم ويد ، أو تقديم النذور للآلهة ،
وتعاطي الصدقات . وعلى الشترى حراسة الناس ، والتصدق وتقديم النذور

ودراسة ويد ، والعزوف عن الشهوات ، وعلى ويش رعي السائمة ، والقيام بخدمتها ، وتلاوة ويد والتجارة والزراعة . وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاثة .

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً فقد قال : إن البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق ، وإن ما في العالم هو ملك لهم ، فإنهم أفضل الخلائق ، وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر من غير جريرة ما شاؤوا ، لأن العبد لا يملك شيئاً ، وكل ماله لسيده ، وإن البرهمي الذي يحفظ رك ويد « الكتاب المقدس » هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة . بذنوبه وأعماله ، ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية ، أو يأخذ منهم أتاوة ، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً ، وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يخلق رأسه ، أما غيره فيقتل .

أما الشترى فإنهم وإن كانوا فوق الطبقتين « ويش وشودر » ولكنهم دون البراهمة بكثير . يقول « منو » : إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشترى الذي ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده .

أما شودر « المنبوذون » فكانوا في المجتمع الهندي - بنص هذا - القانون المدني الديني - أخط من البهائم ، وأذل من الكلاب ، فيصرح القانون بأن من سعادة « شودر » أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك ، وليس لهم أن يقتنوا مالا ، أو يدخروا كنزاً ، فإن ذلك يؤذي البراهمة ، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به ، قطعت يده ، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله ، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهمياً فعلى الملك أن يكوي إسته وينفيه من البلاد ، وأما إذا مسه بيده أو سبه فيقطع لسانه ، وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتاً فائراً ، وكفارة قتل الكلاب والقطعة والصفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء .

٢- في فارس :

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي ، وكان الفرس ينظرون اليهم كآلهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً يدعون أنه يجري في عروقهم ، فكانوا يكفرون لهم وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر ولا يجري اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحد في مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم ، وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق .

كما يعتقدون أن طبقة البيوتات الروحية والأشراف فوق العامة في طبيعتهم ، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم ، ويعطونهم سلطة لا حد لها ، ويخضعون له خضوعاً كاملاً يقول «آرتهرسين» :

« كان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار الحرف والنسب ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمر أو كبير ، وكان من قواعد السياسة الساسانية . أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه . ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها ، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفه من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع .

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية . يظهر لك جلياً في مجالس الأمراء والأشراف ، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ، ويجلسون مزجر الكلب .

ثم يبالغون في تمجيد القومية الفارسية ، ويرون أن لها فضلاً على سائر الأجناس والأمم ، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحداً ،

وكانوا ينظرون إلى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان ، ويلقبونها باللقاب فيها الاحتقار والسخرية .

٣- هذان مثالان يبينان لنا حال العالم في قضية الإنسان حين البعثة .
وليس هما كل شيء ، فاليونان والرومان كل واحدة منهما كانت ترى غيرها برابرة ، وهي وحدها نموذج النوع الإنساني العالي ، وكنت ترى هذا الشعور بالأفضلية حتى على مستوى القبيلة ، حتى على مستوى الأسرة ، ولم يكن يخطر ببال قضية الإنسانية الواحدة . .

٤- ومالنا نذهب بعيداً فحتى الآن نرى :
أن هتلر يعتبر الشعب الجرمانى أعظم شعوب الدنيا ، وله حق سيادة العالم .

والشعب الأمريكى لا يزال يعامل السود معاملة احتقار وازدراء وامتهان ، ولا يعترف لأسود بحق للدرجة أن سينما البيض لا يدخلها سود . ومطعم البيض لا يدخله سود ، ومدرسة البيض لا يدخلها سود .

وفي جنوبي إفريقيا الأسود أحقر عند البيض من الكلب .
بل أكثر من هذا بقيت الكنيسة النصرانية فترة طويلة في إفريقيا لا ترى أن الرجل الأسود أهل لأن يكون قسيساً ، وأخيراً تظهر الطبقة بشكل آخر :
رأسمالية بورجوازية - بروليتاريا .

* * *

هذا بشكل عام ، فإذا ما نظرنا إلى المسألة من زاوية أخرى ، زاوية أن الإنسانية رجل وامرأة ، وكل منهما إنسان ، فإنك تجد ولا تزال تجد مثل هذه الصور :

في القرن السادس الميلادى كانت بعض المجامع الكنسية تبحث : هل المرأة إنسان أو حيوان ؟

وكان العرب يثدنون بناتهم حتى قال صعصعة بن ناجية :
جاء الإسلام وقد فديت ثلاث مائة مؤودة .

وكان الهنود إذا مات الرجل حرموا على زوجته أن تتزوج وأهانوها ، حتى أصبحت عادة عندهم أن تحرق المرأة نفسها إذا مات زوجها لتتخلص مما يصيبها بعد موته ، وقد يحدث عندهم أن يخسر الرجل زوجته في القمار وفي كل مكان ليس للمرأة شخصيتها الحقوقية المستقلة .

وحتى الآن تجد أن القانون الفرنسي لا يسمح للمرأة أن تتصرف بأموالها إلا بإذن زوجها ، والقانون الانجليزي لا يسمح لها بتغيير اسمها إلا بإذن زوجها ، أما هو فحسب . .

وإذا نظرنا إلى الإنسانية من وجه آخر . وجه الأحرار والعبيد ، فإننا نجد صوراً من البشاعة في معاملة الرقيق لا تصور ، الرقيق ليس له حق حياة ولا كرامة ولا يوجد شعور أصلاً بإنسانيته .

* * *

هذا كله كان وبعض منه كما رأينا لا يزال :
فماذا فعل محمد رسول الله ﷺ بأمر من الله ووحى :
لقد أعلن محمد رسول الله ﷺ وحقق عملياً إنسانية الإنسان ، ووحدة الإنسانية ، وكرامة الإنسان ، الرجل إنسان ، والمرأة إنسان ، والعبد إنسان ، والناس كلهم سواء في هذه الإنسانية ، فلا شعب أعلى من شعب ، ولا جنس أعظم من جنس .

وفي ذلك يقول صاحب كتاب « هذا الدين » فيه :
« من العصبية القبلية بل عصبية العشيرة بل عصبية البيت ، التي كانت تسود الجزيرة ، ومن عصبية البلد ، وعصبية الوطن ، وعصبية اللون ، وعصبية الجنس ، التي كانت تسود وجه الأرض كله . . .
من هذه العصبيات الصغيرة التي لم تكن البشرية تتصور غيرها في ذلك الزمان ، جاء الإسلام ليقول للناس :

إن هناك إنسانية واحدة ، ترجع إلى أصل واحد ، وتتجه إلى إله واحد .
وأن اختلاف الأجناس والألوان ، واختلاف الرقعة والمكان ، واختلاف

العشائر والآباء . . كل أولئك لم يكن ليتفرق الناس ويختصموا ، ويتحوصلوا وينعزلوا ، ولكن ليتعارفوا ويتآلفوا ، وتتوزع بينهم وظائف الخلافة في الأرض ، ويرجعوا بعد ذلك إلى الله الذي ذرأهم في الأرض واستخلفهم فيها .

وقال لهم الله سبحانه في القرآن الكريم :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء . واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » .

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين » .

ولم تكن هذه مبادئ نظرية ولكنها كانت أوضاعاً عملية .

لقد انساح الإسلام في رقعة من الأرض فسيحة ، تكاد تضم جميع الأجناس وجميع الألوان . . وذابت كلها في النظام الإسلامي . ولم تقف وراثه لون ، ولا وراثه جنس ، ولا وراثه طبقة ، ولا وراثه بيت ، دون أن يعيش الجميع إخواناً ، ودون أن يبلغ كل فرد منهم ما تؤهله له استعداداته الشخصية ، وما تكفله له صفة الإنسان .

واستقر هذا الخط العريض في الأرض ، بعد أن كان غريباً فيها ، أشد الغرابة ، ومستنكراً فيها كل الاستنكار — وحتى بعد انحسار المد الإسلامي ، لم تستطع البشرية أن تنكر له كل التنكر ، ولم تعد تستغربه كل الاستغراب . حقيقة : إنها لم تستطع أن تتمثله كما تمثلته الجماعة المسلمة ، ولم يستقر فيها استقراره في المجتمع الإسلامي .

وحقيقة : إن عصبيات شتى صغيرة ما تزال تعيش ، عصبيات الأرض والوطن وعصبيات الجنس والقوم وعصبيات اللون واللسان .

وحقيقة : إن الملونين في أمريكا وجنوب إفريقيا يؤلفون مشكلة حادة بارزة ، كما يؤلفون مشكلة ناعمة مستترة في أوروبا كلها .

ولكن فكرة الإنسانية الواحدة ما تزال خطأ عريضاً في هتافات البشرية اليوم ، وما يزال هذا الخط الذي خطه الإسلام هو أصل التفكير البشري — من الناحية النظرية — وما تزال تلك العصبيات الصغيرة تبزغ وتختفي ، لأنها ليست أصيلة ولا قديمة .

وجاء الإسلام والكرامة الإنسانية وقف على طبقات معينة ، وعلى بيوت خاصة ، وعلى مقامات معروفة . أما الغناء — غناء الجماهير — فهو غناء لا وزن له ولا كرامة ! غناء ! ! !

وقال الإسلام كلمته المدوية : إن كرامة الإنسان مستمدة من إنسانيته ذاتها ، لا من أي عرض آخر كالجنس ، أو اللون ، أو الطبقة أو الثروة أو المنصب إلى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة . . . والحقوق الأصيلة للإنسان، مستمدة إذن من تلك الإنسانية التي ترجع إلى أصل واحد كما أسلفنا .

وقال لهم الله في القرآن الكريم :

« ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » .

« وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة » .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر

وكان من الكافرين » .

« وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه » .

وعلم الناس منذئذ ؛

أن الإنسان — بنوعه ، كريم على الله . وان كرامته ذاتية أصيلة . لا تتبع جنسه ، ولا لونه ، ولا بلده ، ولا قومه ولا عشيرته ، ولا بيته : ولا عرضاً من هذه الأعراض الزائلة الرخيصة .

— إنما تتبع كونه إنساناً من هذا النوع الذي أفاض عليه ربه الكريم . ولم تكن هذه المبادئ نظرية ، إنما كانت واقعاً عملياً ، تمثل في حياة الجماعة المسلمة ، وانساحت به في أرجاء الأرض ، فعلمته للناس : وأقرته في أوضاع حياتهم ، كذلك وعلمت جمهور الناس : . ذلك الغناء . . أنه كريم ، وان له حقوقاً ، هي حقوق الإنسان ، وأن له أن يحاسب حكماء وأمرائه ، وأن عليه ألا يقبل الذل والضميم والمهانة . وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق زائدة على حقوق الجماهير من الناس — وأنه ليس لهم أن يهينوا كرامة أحد من ليس بحاكم أو أمير .

وكان هذا ميلاداً جديداً « للإنسان » ميلاداً أعظم من الميلاد الحسي . .
فأي إنسانية لإنسان إذا لم تكن له حقوق الإنسان ، وكرامة الإنسان ، وإذا لم تكن تلك الحقوق متعلقة بوجوده ذاته ، وبحقيقته التي لا تتخلف عنه في حال من الأحوال ؟

بدأ أبو بكر رضي الله عنه عهده بقوله :

« لقد ولّيت عليكم ولست بخيركم : فإن أحسنت فأعينوني . وإن أسأت فقوموني . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » .

وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يعلم الناس حقوقهم تجاه الأمراء :

« يا أيها الناس . إني والله ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا من أموالكم . ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم . فمن

فعل به شيء من ذلك فليرفعه إلي . فوالذي نفس عمر بيده ، لأقصه منه ..
فوثب عمرو بن العاص فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أرايتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته
فأدب بعض رعيته . إنك لتقتص منه ؟ »

قال عمر : « اي والذي نفس عمر بيده لأقصه منه . وكيف لا أقص
منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه . ألا لا تضربوا الناس فتذلّوهم
ولا تجمروهم فتفتنّوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم » .

وكتب عثمان (رض) كتاباً إلى جميع الأمصار قال فيه :
« إني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم قد سلّطت الأمة على الأمر بالمعروف ،
والنهي عن المنكر ، فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته .
وليس لي ولا لعمالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم . وقد رفع إلي أهل المدينة
أن أقوماً يشتمون ويضربون . فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم ،
يأخذ حقه حيث كان مني أو من عمالي ، أوتصدقوا ، إن الله يجزي
المتصدقين » .

والمهم — كما أسلفنا — أن هذه لم تكن مجرد مبادئ نظرية أو مجرد
كلمات تقال .

فقد طبقت تطبيقاً واقعياً ، وسرت في أوساط الشعوب حتى اتخذت
قاعدة للأوضاع العملية ،

وحادثة ابن القبطي الذي سابق ابن عمرو بن العاص ، فاتح مصر وواليتها ،
فسبقه فضربه ابن عمرو ، فشكا أبوه إلى عمر بن الخطاب (رض) فاقصه منه
في موسم الحج وعلى ملأ من الناس ... حادثة معروفة .

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر .. ولكن الحادثة أوسع
دلالة على ذلك التيار التحرري الذي أطلقه الإسلام في ضمائر الناس وفي
حاجاتهم .

فمصر إذ ذاك بلد مفتوح . حديث عهد بالفتح الإسلامي . وهذا القبطي لم يزل على دينه فرداً من جماهير البلد المفتوحة . وعمر و بن العاص هو فاتح هذا الاقليم ، واول امير عليه من قبل الاسلام .. وحكام هذا الاقليم قبل الفتح الإسلامي هم الرومان :

أصحاب السياط التي تجلد ظهور شعوب المستعمرات ، ولعل ذلك القبطي كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان .

ولكن المد التحرري الذي أطلقه الإسلام في أنحاء الأرض ، أنسى ذلك القبطي سياط الرومان وذلها ، وأطلقه إنساناً حراً كريماً ، يغضب لأن يضرب ابن الامير ابنه بعد اشتراكهما في سباق . وهذه أخرى ، ثم تحمله هذه الغضبية لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر إلى المدينة لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطاراً ، ولكن جملاً ، يخب به ويضع الأشهر الطوال كل ذلك ليشكو للخليفة .

الخليفة الذي حرره يوم الفتح تحت راية الإسلام ، والذي علمه الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان .

وهكذا ينبغي ان نفهم ، وان ندرك عمق المد الاسلامي التحرري . فليست المسألة فقط ان عمر عادل ، وأن عدله لا تتناول اليه الأعناق في جميع الازمان . ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر المستمد من الإسلام ، ومنهجه ونظامه ، انطلق في الأرض تياراً جارفاً محرراً مكرماً للانسان ... بصفتة « الإنسان » .

هذا المستوى الرفيع ، لم ترتفع اليه الانسانية قط ... هذا صحيح ولكن هذا الخط العريض الذي خطه الإسلام ، في كرامة الإنسان وحرية وحقوقه تجاه حكاه وامرائه ، قد ترك في حياة البشر آثاراً لا شك فيها . وبعض هذه الآثار هو الذي يدفع بالبشرية اليوم إلى اعلان « حقوق الإنسان » . وحقيقة أن هذا الاعلان لم يأخذ طريقه الواقعي في حياة البشرية .

وحقيقة أن « الإنسان » ما يزال يلقي المهانة والإذلال والتعذيب والحرمان في شتى أنحاء الأرض .

وحقيقة أن بعض المذاهب تجعل مقام الإنسان دون مقام الآلة ، وتقتل حرية الإنسان وكرامته وخصائصه العليا في سبيل الإنتاج ومضاعفة الدخل ، والتفوق في الأسواق .

كل هذا صحيح .

ولكن هذا الخط ما يزال قائماً في مدارك البشرية وتصوراتها ولم يعد غريباً عليها كما كان يوم جاءها الإسلام .

* * *

وهذه نماذج من توجيهات السيد الرسول ﷺ في هذا الباب نذكرها كأثلة على هديه في بناء جوانب انسانية الإنسان .

أ - كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب لينتهين قوم يفتخرون بأبائهم أو ليكونن اهون على الله من الجعلان .

ب - وعن عائشة رضي الله عنها أن فتاة قالت يعني للنبي ﷺ إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة فارسل النبي ﷺ إلى أبيها فجعل الأمر إليها فقالت : يا رسول الله إني أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء .

ج - عن معاوية بن سويد بن مقرن قال :

لطميت مولى لنا فهربت ثم جئت قبيل الظهر فصليت خلف أبي فدعاه ودعاني ثم قال للخادم : أمثل منه فعفا ثم قال : كنا بني مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا خادم إلا واحدة فلطمها احداً فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : أعتقوها فقبل له ليس لهم خادم غيرها فقال فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها .

د - وعن المعروف بن سويد قال :

رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت

رسول الله ﷺ يقول : هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم عليه .

هـ - وكان عمر رضي الله عنه يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا .

وسنرى إن شاء الله في الرسالة الثالثة « الاسلام » هذه المعاني بالتفصيل .

* * *

هذه ثمرة من ثمرات محمد رسول الله ﷺ وهي ثمرة ما كانت لتكون لولا أنه رسول الله .

إن بيئة الجزيرة العربية ما كانت لتنبع منها فكرة وحدة الإنسانية وكرامتها ، بل ما كانت لتخرج إنساناً له رسالة للبشرية عامة . فكل المقدمات ما كانت لتوحي بنتيجة من هذا النوع .

يقول العقاد :

ثم يستمع الناس إلى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادي بني الإنسان جميعاً إلى دين واحد وإله واحد وحق واحد :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

« وما أرسلناك إلا كافة للناس » .

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذي أنزل إليه فيقول في تفسير هذه الآيات .

(لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى) ولو لم يكن من سعة المسافات بين المقدمات ، وهذه النتيجة غير هذا الذي أجملناه لكان فيه الكفاية . لكن العجب منه يتضاعف ويتعظم حين تأتي النتيجة من أعماق

الجزيرة العربية حيث مشتجر الأنساب والأعراق على نحو لم يعرف له مثل بين الأمم والعصبيات ، وبقية تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعظم فان الرسول ﷺ الذي نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم ، لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسباً ونسباً من أبويه الشرينين . بل كان من شرف الابوة في الذؤابة التي يعترف بها الكافرون ، وهذا الرسول هو الذي يتعلم منه الناس أنهم إذا صلحوا واستقاموا « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » .

رابعاً - المسؤولية الفردية

« ذهبت طالبة شابة من جامعة فرانكفورت تقول لمدير الجامعة مستنجدة أن والديها يهددانها بالطرد ، ولما سألتها عن السبب أجابت . لأنها ستضع مولوداً وقالت : إنها لا تعلم اسم أو شخصية والده ، لأنه كان يرتدي قناعاً حيث أنها ارتكبت الفاحشة في أيام الكرنفال أو الناشج ، وهذه الحادثة ليست إلا قصة صغيرة تقع أمثالها عشرات الألوف كل سنة في بلاد الإباحية التي أحيت تقاليد الدعارة الجماعية تحت ستار التطور والتحرر . فكانت أعياد الكرنفال أو الناشج التي تستمر ثلاثة أيام وفيها تباح كل الاعراض والحرمات ، بل إنه من المخالف لآداب التقاليد أن تسير فتاة مع صديقها هذه الليلة أو تسهر زوجة بجانب زوجها . وأيام الإباحة الثلاثة تبدأ رسمياً في الدقيقة ١١ من الساعة ١١ من اليوم ١١ من الشهر ١١ من كل سنة مع تفاوت بسيط في مواعيدها بين مدينة وأخرى ، وفي أثناء هذه المهرجانات بهذه المناسبة تتعري النساء من كل شيء تقريباً وهن يختلطن بالرجال حيث تجري الدعارة الجماعية ومن دون أن يعرف كل رجل ما اسم هذه التي يرافقها ومن دون أن تعرفه هي أيضاً ، لان الجميع يحرصون على ارتداء الاقنعة ، وفلسفة الألمان في هذه الأعياد هي أن من حق البشر أن يخطئوا ، لأنهم إذا لم يخطئوا فسيرتفعون إلى مستوى الآلهة ، وهذا غير معقول وأن خطاياهم ستغفر لهم حتماً لأن المسيح قد دفع الثمن وصلب

من أجلهم ، وهم يرددون هذه الفلسفة في صحفهم ومجالسهم وفي كل مكان .
هذه ثمرة من ثمرات الفكرة النصرانية التي تقول :

إن الإنسان خاطيء منذ ولادته ، لأن أباه آدم قد ارتكب الخطيئة ، وأن
المسيح عليه السلام — صلب — حسب زعمهم حتى يكفر عن البشر خطاياهم فهو
قد تحمل خطايا البشر .

وهذه الفكرة معناها أن الإنسان مسؤول عن أعمال غيره ، وغيره مسؤول
عن أعماله ، وبين هذا وهذا تضيق المسؤولية الفردية التي يحس بها الإنسان
أنه مسؤول عن أعماله فقط . صغيرها وكبيرها ، وليس مسؤولاً عن
عمل غيره بتاتاً .

ويترتب على الفكرة الأولى ناحيتان خطيرتان :
الأولى : أن الإنسان غير طاهر القلب والنفس منذ نشأته بسبب وراثته الخطيئة
وهذا يؤثر تأثيراً سيئاً في نظرته لنفسه من حيث أنه كما ورث الخطيئة ولم
يخطئ ، فسيعة مد على غيره في حمل خطاياهم عنه .
الثانية : أنه ما دام غيره مسؤولاً عن ذنوبه ، فانه لن يبالي بهذه الذنوب .
وعندئذ تملأ الخطيئة الأرض ، وادرس ما يحدث في كنائس أمريكا وبريطانيا
وغيرهما بالذات تجد مقدار اللامبالاة في الخطيئة .
وهذا أكثر الأديان أتباعاً الآن في العالم .

* * *

وتوجد عند البراهمة والبوذيين والجنينيين — وهي ديانات لها أتباعها الكثير في
العالم — عقيدة شبيهة من حيث سلب مسؤولية الإنسان الفردية بالديانة النصرانية .
هذه العقيدة هي عقيدة تناسخ الأرواح ، وخلاصة هذه العقيدة أن الروح
بعدما تفارق جسداً في هذه الدنيا تنتقل إلى جسد آخر في هذه الدنيا نفسها .
ولا يكون هذا الجسد الثاني أو الثالث إلا متفقاً مع الحياة
التي قد أعدها الإنسان لنفسه بأعماله وأفكاره وميوله وعواطفه في حياته الأولى .

فان كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سيئة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات سيئة ، فان روحه ستنقل إلى طبقة مبتدلة من طبقات الحيوانات أو النباتات ، وأما إن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه صالحة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات صالحة ، فان روحه سترقي إلى طبقة من الطبقات العليا .

هذه العقيدة مقتضاها أنني أنا الإنسان الحالي . إنسان بهذا الوضع نتيجة لسلوك غيري ، وحصيلة لسلسلة طويلة من أعمال المخلوقات قبلي ، وهذه المخلوقات السابقة علي ، هي أنا وأنا باعمال الحاضرة سأكون بالتالي نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ويحس الإنسان بذاته أنه منقطع الشعور النفسي بما كان . فماذا ينتج عن هذه العقيدة ؟

١ - « سينتج عن هذه العقيدة شعور لدى الإنسان بأن الحيوان والنبات والإنسان سواء في ميزان الوجود ، إذ الحيوان كان انساناً والنبات كان حيواناً . ويرتب على هذا ألا يجوز إيذاء النبات والحيوان والإنسان ، حتى ولو آذاني الإنسان ، وعندئذ فان أمة من هذا النوع تعتقد مثل هذه العقيدة معرضة للذناء والحرمان والاضمحلال ، ومثل هذه العقيدة ليست صالحة ولذلك فان أهلها يعيشون مشتين بين واقعهم الذي يعملون ، وعقيدتهم التي يعتقدون .

٢ - كما ينتج عن هذه العقيدة رهبانية مميتة عملياً . إذ ان أهل هذه العقيدة يعتقدون ان الشهوة هي أصل كل فساد في الارض وهي التي تلوث الروح بالذنوب والآثام ، ولاجلها تنتقل الروح من قالب إلى قالب وتذوق وبال أعمالها مرة بعد مرة ، فالإنسان إذا أودى بها ، وقضى عليها ، ولم يشغل نفسه بمشاغل الدنيا وشواغبها ، فلروحه أن تنال الخلاص من دورة التناسخ ويقولون : ليست هناك سبيل أخرى للخلاص من دورة التناسخ غير هذه ، لأنه من المحال إذا انشغل الإنسان بمشاغل الدنيا وشواغبها وشؤونها الخلابية ان يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها . والنتيجة اللازمة لذلك - يقولون - إن من أراد لنفسه الخلاص من دورة التناسخ

فعلية ان ينزل عن الدنيا ، ولا يسكن إلا في الغابات ، ورؤوس الجبال
وكهوفها ، وأن من لم يفعل ذلك فعليه أن يأس من الخلاص من دورة التناسخ ،
ويستعد للانضمام إلى طبقات الحيوانات والنباتات .

٣ - ولما كانت الفكرة الاولى والثانية غير عمليتين .

فالناس نتيجة لذلك إما أن يسلكوا الطريق المرسوم للخلاص من دورة
التناسخ بزعمهم فتفنى البشرية . كلها لو سلكت هذا الطريق .

واما إنسان لن يمشي في هذا الطريق وهو بالتالي لا يبالي لأنه ليس مسؤولاً
عن حاضره ولا يهتم مستقبله .

* * *

ويظهر إنعدام المسؤولية الفردية عند البشرية بصورة أخرى ؛ كلها غير معقول :
تظهر بصورة اخذ الثار من أي قريب للقاتل ، كما يحدث عند العرب في
الجاهلية ، وتظهر بصورة الايمان بأن الإنسان غير مسؤول أمام أحد عند
الملاحدين الفوضويين ، وتظهر بصورة أن الإنسان مسؤول أمام القانون فقط
فإذا استطاع أن يهرب من عين القانون فعل ما شاء .

* * *

وهناك صورة أخرى تنعدم فيها المسؤولية موجودة عند اليهود .
فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، الذي غفر له كل شيء ، فمهما
فعلوه من جرائم أو مآسي ، أو مفاسد ، أو مظالم ، فإن خصوصيتهم هذه
تجعلهم بمنجاة من عذاب الله إلا بشكل بسيط جداً جداً .

هذه صور من فرار الإنسان من المسؤولية كانت يوم بعث محمد رسول الله
ﷺ ولا زالت وهي كلها صور غير معقولة ، وآثارها خطيرة على
الإنسان ، والحياة الإنسانية كلها ، من حيث انعدام مسؤولية الإنسان أو
قصورها ، مما يؤدي إلى انحراف فظيع في السلوك .

فماذا فعل محمد ﷺ بأمر الله ووحيه :

لقد كان الإعلان الذي أعلنه الإسلام هو أن الإنسان لا يتحمل إلا مسؤولية أعماله وحده ، فلا يتحمل مسؤولية جد ولا مسؤولية ذنب أخ وعم ، إلا إذا كان له علاقة في الموضوع ، وأن الجيل اللاحق لا يتحمل أوزار الجيل السابق ، وإنما الإنسان مسؤول عن أعماله وحده صغيرها وكبيرها أمام الله في الآخرة ، وأمام شريعة الله في الدنيا فقال القرآن . «ولا تزر وازرة وزر أخرى» .

وقال الرسول ﷺ (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)

وخاطب القرآن الناس

« ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به » .

فأصبح المسلم يحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة . حتى قال قائل المسلمين :
« كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام » وأصبح الذي يقدم الإنسان أو يؤخره هو عمل الإنسان حتى قال رسول الله ﷺ (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد ﷺ ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً) رواه البخاري ومسلم .

وبذلك استقام سلوك الإنسان ، وتحرر ضمير الإنسان من التواكل والاعتماد على الآخرين ، وبذلك لم يعد الإنسان يئير مبال في أمر الخطيئة ، وبذلك استقلت شخصية الإنسان استقلالاً تاماً ، وبذلك أصبح الخير مرجواً من الإنسان ، وبذلك قضي على الحرافة ، وقامت الحقيقة محلها .

هذه الثمرة العظيمة من ثمار دعوة محمد ﷺ تدل على أن محمداً رسول الله ، لأنها ثمرة ما كانت لتكون لولا الوحي ، وقد صاغ العقاد هذا الموضوع صياغة عالية نأخذ من فقراتها ما يلي :

« وللديانة الإنسانية مناط واحد ، هو ضمير كل فرد من أفرادها . فما لم

يكن لهذا الضمير حساب ، وعليه تبعة ، فلا ديانة لإنسان ، ولا لحملة الناس .
وفكرة التبعة الفردية والمسؤولية الفردية بسيطة ، سهلة الفهم ، تتجدد الحاجة إلى
تطبيقها كل يوم ، في كل بيئة اجتماعية ، فلو كانت الفكرة تروج بمقدار
بساطتها ، وسهولة فهمها ، وتجدد الحاجة إلى تطبيقها ، لما خلا المجتمع الإنساني
قط من مبدأ المسؤولية الفردية منذ أوائل عهد الإنسان بالاجتماع .

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت ، وظلت مهملة من عهد
البداوة إلى عهود الحضارة الأولى ، لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع إلى
سلطان واحد ، إذ كان الفرد من القبيلة يعتدي على فرد من قبيلة أخرى ويندر
أن ترضى قبيلة المعتدي أن تسلمه إلى قبيلة المعتدى عليه . فان لم تسلمه تضامنت
في الدفاع عنه ، ووقعت الحرب بين القبيلتين ، أو تعرض كل فرد من أفراد
قبيلة المعتدي لأخذ الثأر منه ، وقد يتوارثون الثأر إلى الأبناء والأعقاب .

فمضى نظام القبيلة على مسؤولية القبيلة كلها عن جميع أفرادها ، ثم تطورت
القبيلة وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم فثبتت على عاداتها
لصعوبة التغيير في الجماعات التي تقوم على المحافظة ، وعلى رعاية المأثورات
السلفية ، وبلغ من ثبات هذه العادات أن رومة التي كانت تسمى أم الشرائع .
جعلت الأب مسؤولاً عن الأسرة ، وأباح له التصرف في أرواحها وأموالها ،
وقد ناظرها في الشرق شريعة حمورابي ، فجعلت من حق الرجل الذي تقتل
بنته أن يتسلم بنت القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم إنساناً مستقلاً بحياته .

وكانت في الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسؤولية الفردية ، ولكنها ترجع
بها إلى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنة التي لا تعرف
لها بداءة منذ أزل الآزال ، فهو مولود بجرائره وآثامه ، وكفارة تلك الجرائر
والآثام إلى الأجل المقدور ، وليست تبعاته مرهونة بما يعمل به بعد ميلاده . بل
هي سابقة للميلاد لاحقة به آماداً بعد آماد .

(كان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسأل عنها وحده بل يسأل عنها
كل ولد من ذريته) .

أما الدعوة الإسلامية فالمسؤولية الفردية فيها شيء جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لإحدى هذه المقدمات .
ومعجزة المعجزات فيها أنها قامت بالمسؤولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ، ويعوقها كل نظام مصدالح عليه في المعاملات والعقوبات .
قامت بها في أعماق الجزيرة العربية ، ولا قانون فيها غير قانون الثار ، ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة ، وتعلم الناس « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » أن جيلاً لا يؤخذ بجريرة أسلافه ، ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته .
« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون وكل امرئ بما كسب رهين » .

فمرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الإسلام وحده ، مبتدئاً بغير سابقة ، بل مبتدئاً على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات . ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأي على حواشي العقيدة ، ولكنها هي الفتح الأكبر من فتوح الضمير في جميع مراحل التاريخ . إذ لا قوام للخلاق ولا للدين بغير التبعة ، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب .

خامساً - العدل

ثمرة خامسة من ثمار محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نتحدث عنها في هذه الفقرة . تشهد أنه رسول الله ، ولولا ذلك ما كانت ولا غيرها هذه الثمرة ، هي العدل الذي ما عرف تاريخ العالم له مثيلاً . وسنختار حوادث من حياة رسول الله ﷺ والصحابة الذين رباهم . نرى فيها كيف ارتفعت النفس البشرية بمحمد ﷺ ويهديه إلى آفاق هي أعلى ما يطمح اليه الطامحون على مدى الأزمان والأجيال . ونرى بذلك كيف أن القرآن كان واقعاً حياً متمثلاً بهذا الجيل الفريد ، وكيف أن القرآن يرفع الإنسان إلى أعلى آفاق الإنسانية وغيره يدينه نحو حضيض الحيوانية .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو
الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن
تعدلوا وأن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن
قوم على ألا تعدلوا إعللوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »
« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

* * *

١ - أخرج ابن ماجه عن أبي سعيد (ر ض) قال : جاء أعرابي إلى النبي
ﷺ يتقاضاه ديناً كان عليه فاشتد عليه حتى قال : اخرج عليك إلا قضيتني
فانتهره أصحابه فقالوا : ويحك تدري من تكلم ؟ قال : إني أطلب حقي .
فقال النبي ﷺ هلا مع صاحب الحق كنتم ؟ ثم أرسل إلى خولة بنت
قيس فقال لها : إن كان عندك تمر فاقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك فقالت
نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فاقرضه فنقضى الأعرابي وأطعمه فقال :
أوفيت أوفى الله لك فقال :

(أولئك خيار الناس إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير
متنع) .

أي من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه والحديث رواه البزار عن عائشة
مختصراً والطبراني من حديث ابن مسعود (ر ض) باسناد جيد .

٢ - وأخرج البخاري عن عروة أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ
في غزوة الفتح ففزع قومها إلى أسامة بن زيد (ر ض) يستشفعونه . قال
عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ وقال :

اتكلمني في حد من حدود الله ؟

فقال أسامة : استغفر لي يا رسول الله .
فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله
ثم قال :

(أما بعد فانما هلك الناس أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا
سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت
محمد سرقت لقطعت يدها) .

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد
ذلك وتزوجت قالت عائشة (ر ض) كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى
رسول الله ﷺ .

٣ - أخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصديق
- رضي الله عنهم - قام يوم الجمعة فقال :

إذا كان بالغداة فأحضروا صدقات الإبل نقسم ولا يدخل علينا أحد إلا
بإذن فقالت امرأة لزوجها :

خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جملاً ، فأثنى الرجل فوجد أبا بكر وعمر
قد دخلا إلى الإبل فدخل معهما فالتفت أبو بكر فقال :
ما أدخلك علينا ؟

ثم أخذ منه الخطام فضربه ، فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل دعا بالرجل
فاعطاه الخطام وقال : استقد (أي اقتص مني كما ضربتك فاضربني) فقال
له عمر : والله لا يستقيد لا تجعلها سنة قال أبو بكر فمن لي من الله يوم القيامة
فقال عمر : ارضه . فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقطيفة (أي
كساء له خمل) وخمسة دنانير فأرضاه بها .

٤ - كان الرسول ﷺ قد وكل بتقدير حصّة المسلمين في خيبر عبد الله بن رواحة
وكان أهلها يهوداً وفي ذلك يروي البيهقي عن ابن عمر (ر ض) حديثاً منه .

كان عبد الله بن رواحة (ر ض) يأتهم كل عام فيخرصها (أي يخمنها)
عليهم ثم يضمنهم الشطر فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه وأرادوا
أن يرشوه فقال :

يا أعداء الله تطعموني السحت (أي الحرام) والله لقد جتتكم من عند أحب
الناس إلي ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي
إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم فقالوا : بهذا قامت السموات
والأرض .

٥ - أخرج ابن عساكر وسعيد بن منصور والبيهقي عن الشعبي قال : كان
بن عُمَرَ وبين أبي بن كعب - رضي الله عنهما - شيء فقال عمر :

إجعل بيني وبينك رجلاً فجعل بينهما زيد بن ثابت (ر ض) فأتياه فقال عمر :
أتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم . فلما دخلا عليه وسع له زيد عن
صدر فراشه فقال ها هنا يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : هذا أول جور جرت
في حكمك ولكن أجلس مع خصمي فجلسا بن يديه فادعى أبي وأنكر عمر
فقال زيد لأبي أعف أمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألهما لأحد غيره
فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض
المسلمين عنده سواء .

٦ - وأخرج ابن سعد وابن راهويه عن عطاء قال : كان عمر بن الخطاب
(ر ض) يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم فإذا اجتمعوا قال : « يا أيها الناس إني
لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أباشاركم ولا من أموالكم إنما بعثتهم ليحجزوا
بينكم وليقسموا فيثكم بينكم فمن فعل به غير ذلك فليقم » فما قام أحد إلا
رجل قام فقال :

يا أمير المؤمنين إن عاملك فلاناً ضربني مائة سوط قال فيم ضربته ؟ قم
فاقتص منه فقام عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين إنك

إن فعلت هذا يكثر عليك وتكون سنة يأخذ بها من بعدك . فقال : أنا لا أقيد ؟
وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال فدعنا لنرضيه .
قال : دونكم فأرضوه فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين .

٧ - وأخرج ابن عساكر قال :

كتب عمر بن الخطاب إلى فيروز الديلمي (رضى) الله عنهما :
« أما بعد فقد بلغني أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل فاذا أتاك كتابي هذا
فأقدم على بركة الله فاغز في سبيل الله » فقدم فيروز فاستأذن على عمر (رضى
الله عنهما) فأذن له فزاحمه فتى من قریش فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشي
فدخل القرشي على عمر مستدمى فقال له عمر من فعل بك .
قال : فيروز وهو على الباب .

فأذن لفيروز بالدخول فدخل فقال :

ما هذا يا فيروز ؟

قال : يا أمير المؤمنين إنا كنا حديثي عهد بملك إنك كتبت إلي ولم تكتب
إليه وأذنت لي بالدخول ولم تأذن إليه فأراد أن يدخل في إذني قبلي فكان مني
ما قد أخبرك .

قال عمر : القصاص .

قال فيروز : لا بد ؟

قال : لا بد .

فجئ فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقصص منه فقال له عمر (رضى) : على
رسلك أيها الفتى حتى أخبرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ سمعت
رسول الله ﷺ ذات غداة وهو يقول : قتل الليلة الأسود العنسي الكذاب
قتله العبد الصالح فيروز الديلمي أفترأك مقتصاً منه بعد أن سمعت هذا من
رسول الله ﷺ قال الفتى قد عفوت عنه بعد أن أخبرني عن رسول الله
ﷺ بهذا فقال فيروز لعمر : أفترى هذا مخرجي مما صنعت إقرارى له

وعفوه غير مستكره ؟ قال : نعم قال فيروز : فأشهدك أن سيني وفرسي
وثلاثين ألفاً من مالي هبة له .

٨- وأخرج الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مر عمر بن الخطاب
في السوق ومعه الدرة فخفقتني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال : أمط عن
الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله فأعطاني
ست مائة درهم وقال : إستعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك
قلت يا أمير المؤمنين : ما ذكرتها .
« قال : ما نسيتها » .

٩- أخرج المحب الطبري في مناقب العشرة قال :
كان لعثمان عبد فقال له إني كنت عركت أذنك فاقتص مني فأخذ بأذنه ثم
قال عثمان : أشدد يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة .

١٠- وأخرج ابن عساكر عن علي بن ربيعة قال : جاء جعدة بن هيرة إلى
علي (رض) فقال يا أمير المؤمنين يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من
نفسه أو قال :

من أهله وماله والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك فتقضي لهذا على هذا
قال : فلهزه علي (رض) وقال : إن هذا شيء لو كان لي فعلت ولكن إنما
ذا شيء لله .

١١- وأخرج الترمذي والحاكم عن الشعبي قال : خرج علي بن أبي طالب
إلى السوق فاذا هو بنصراني يبيع أدرعاً فعرف علي رضي الله عنه الدرع فقال
هذه درعي بيني وبينك قاضي المسلمين وكان قاضي المسلمين شريحاً كان علي
استقضاه فلما رأى شريح أمير المؤمنين قام من مجلس قضائه وأجلس علياً في
مجلسه وجلس شريح قدامه إلى جنب النصراني فقال علي :

أقض بيني وبينه يا شريح فقال شريح :

ما تقول يا أمير المؤمنين فقال علي هذه درعي وقعت مني منذ زمان فقال شريح : ما تقول يا نصراني ؟

فقال النصراني : ما أكذب أمير المؤمنين الدرع درعي .

فقال شريح : ما أرى أن تخرج من يده فهل من بينة ؟

فقال علي : صدق شريح ،

فقال النصراني : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء . أمير المؤمنين يجيء إلى قاضيه وقاضيه يقضيه عليّ هي والله يا أمير المؤمنين درعك اتبعتك وقد زالت عن جملك الأورق فاخذتها فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقال علي :

أما إذا أسلمت فهي لك وحمله على فرس)

١٢ - وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الحارث بن سويد قال : كان المقداد ابن الاسود (ر ض) في سرية فحصرهم فعزم الأمير أن لا يجسر أحد دابته أي لا يخرجها للمرعى (فجسر رجل دابته لم تبلغه العزيمة فضربه فرجع الرجل يقول : ما رأيت كما لقيت اليوم قط فمر المقداد فقال : ما شأنك ، فذكر له قصده فتقلد السيف وانطلق معه حتى انتهى إلى الأمير فقال : أقد من نفسك فأقاده فعفا الرجل فرجع المقداد وهو يقول : (لاموتن والاسلام عزيز) .

* * *

إن هذا العدل الذي رأينا بعض نماذجه فيما مضى ، إنما كان وليد دعوة السيد الرسول ﷺ وإلا فإن العرب قبل كان شعارهم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » وإن الإنسان ليعجب كيف تمثل أصحاب رسول الله ﷺ هذا العدل بهذه السرعة ، وبهذا العمق ، بحيث انهم غلبوا أمماً ، وسيطروا عليها .

فساسوها سياسة عادلة لا مثيل لها ، مما أدى بهذه الشعوب أن تدخل في الإسلام أفواجا بمجرد أن رأوا معاملة هؤلاء الفاتحين الذين لا يغلبون ، العادلين الذين لا يجورون .

وعلى الرغم من تضاؤل جيل الصحابة بالنسبة لرقعة الأرض المفتوحة ، فإن قوة الحياة التي صبته تربية الرسول ﷺ في قلوب الأصحاب ، كانت كافية لأن تجعل الأمور تمشي في طريقها المستقيم .

وحتى بعد ذلك ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فإن قضية الإسلام المتحققين بالإسلام علماً وعملاً . هم الذين يضربون أبداً المثل الأعلى في العدل الرباني العظيم ، الذي يتضاءل بجانبه كل قضاء .

وأنقل هنا مثلين لقاض من قضية الدولة العباسية . هو شريك بن عبد الله قاضي الكوفة في زمن الخليفة المهدي . لرى فيها نزاهة القضاء الإسلامي وعدله :

١ - قال عمر بن الهياج : كنت من صحابة شريك ، فأتيته يوماً وهو في منزله باكراً فخرج إليّ بفرو ليس تحته قميص عليه كساء ، فقلت له ألا تقوم إلى مجلس الحكم ؟

قال : غسلت ثيابي أمس فلم تجف فأنا أنتظر جفوفها إجلس . فجلست فجعلنا نتذاكر باب (العبد يتزوج بغير إذن مواليه) فقال : ما تحفظ فيه ؟ ما تقول فيه ؟

وكانت الخيزران قد وجهت رجلاً في الطراز إلى الكوفة وجاء الوالي عيسى بن موسى الأمر بالألا يتعرض له ، فكان هذا الرجل حر التصرف لا يعصى له أمر ، ولا سلطان للأمير عليه .

فخرج علينا ذلك اليوم من زقاق يفضي إلى النخع ، ومعه جماعة من

أصحابه . عليه جبة خبز وطيلسان على برذون فاره ، وإذا رجل بين يديه مكتوف فلما مر ببيت القاضي صاح الرجل :

واغوثاه أنا بالله ثم بالقاضي ، ففتح شريك الباب وخرج ، فدعا به فإذا ظهره مكشوف وآثار الضرب فيه ، فأقعه إلى جنبه وقال له ما شأنك ؟ قال : أنا رجل أطرز وأعمل الوشي ، هذه صناعتي ، وكراء مثلي مئة في الشهر . وأخذني هذا منذ أربعة أشهر قسراً ، وحبسني وألزمني بالعمل بقوتي ، ولا يعطيني أجراً ولي عيال قد ضاعوا ، فهربت منه فلحقني قصريي وكتفني . فقال شريك للوكيل : قم فاجلس مع خصمك :

قال : أصلحك الله يا أبا عبد الله هذا من خدم السيدة ، وهذا أمرها فاحبسه حتى يشتغل لها . قال : ويلك قم فاجلس معه كما يقال لك ، فقام فاجلس معه . قال :

ما هذه الآثار التي تظهر بظهر هذا الرجل ؟ من أثرها به ؟ قال أصلح الله القاضي إنما ضربته أسواطاً بيدي وهو يستحق أكثر من هذا لأنه لم يشتغل للسيدة . إحبسه حتى يشتغل هذا أمر السيدة .

فألقي شريك رداءه وقام فدخل داره ، وأخرج سوطاً وضرب بيده إلى مجامع ثوب الوكيل وقال للرجل :

إذهب إلى أهلك وجعل يضرب الوكيل . فهم أعوانه أن يخلصوه فقال : من ها هنا من شباب الحي ؟ فجاءه جماعة فقال :

من وقف من هؤلاء فاذهبوا به إلى الحبس ، فهربوا جميعاً وتركوه ، وما زال يضربه حتى رأى أن ذلك يكفيه ، فتركه فانصرف وهو يهدده بانتقام السيدة ، فألقي السوط من يده ، وعاد إلى ما كنا فيه من المذاكرة كأنه لم يصنع شيئاً وقال لي :

يا أبا حفص ما تقول في العبد يتزوج بغير إذن مواليه ؟

وأراد الوكيل أن يركب برذونه فاستعصى عليه ، ولم يكن معه من
يمسك له الركاب فجعل يضرب البرذون فصاح به شريك :

أرفق به ويلك ، فإنه أطوع لله منك ، فمضى ماشياً . فقال لي شريك :
خذ فيما كنا فيه قلت : ما لنا ولهذا الآن ؟ قد فعلت والله فعلة تهتكون لها عاقبة
مكروهة : من ضرب وكيل الخيزران فكأنه ضربها ، ومن ضربها فكأنما
ضرب الخليفة . قال : أعز أمر الله يعزك . خذ فيما كنا فيه ، فعدنا نتذاكر
في مسألة العبد يتزوج بغير إذن مواليه ، وذهب الوكيل إلى موسى بن عيسى
أمير الكوفة فدخل عليه شاكياً باكياً ، وكشف عن ظهره فارتاع الوالي
وغضب وقال :

من فعل بك هذا ؟

قال : شريك .

قال : لا والله ما أتعرض لشريك ، قال سأشكوك إلى السيدة .

قال : لا أتعرض لشريك .

فمضى الوكيل ولم يعد .

٢ - وكان موسى أمير الكوفة من كبار أمراء البيت العباسي ، وكان له
سلطان الأمانة وسلطان النسب ، وكان مع ذلك كله يتجنب أن يكون بينه
وبين القاضي خلاف ، ويتعدى عن طريقه ولا يعارضه في شيء . ولم ينج
مع هذا كله من الخلاف ، ولم يختلفا لأن الأمير عرض له في قضائه بين
الناس ، ولا لأنه دخل مؤيداً لمدعى أو مدعى عليه ، بل اختلفا من أجل دعوى
أقيمت على الأمير نفسه ، وسبب الدعوى أن الأمير أراد أن يوسع داره ،
وكان إلى جنبها بستان نخل لأخوة ورثوه من أبيهم ، وكانوا خمسة إخوة
وأختاً واحدة ، فاشتري منهم جميعاً إلا الأخت ، فإنها أبت أن تبيع فزادها
في الثمن وضاعفه لها أضعافاً ، وهي تصر على الإباء . فغاضه أن يفسد عليه
أمره حمق هذه المرأة ، وأراد أن يضطرها إلى البيع وكان بينها وبين حصص

إخوتها التي باعوها سياج ، فبعث غلمانها ليلاً فأزالوه .
وأصبحت المرأة فرأت نخلها قد اختلط بنخل إخوتها ولم تعد تعرف
أرضها من الأرض التي باعوها للأمير . فأقبلت تبكي وتلطم ، ولا تدري
ماذا تفعل ، وذهبت تكلم الأمير فلم يسمع منها وقال لها :
خذي ثمن الأرض أضعافاً .

فقالت : لا أبيعها وانطلقت تتوسل إليه بوجوه البلد ، فما وجدت منهم
مسعفاً ولا معيناً فقال لها واحد من جيرانها :

أنا أدلك على من يخلص لك حقلك . فاستبشرت وابتهجت وقالت ومن
هو ؟ قال : القاضي . إذ هبى إليه فنادى أنا بالله ثم بالقاضي ، وقصي عليه قصتك .
فذهبت تسأل الناس : أين قصر القاضي فيضحكون منها ويقولون لها :
ومتى كان للقاضي قصر ؟ أطلبه في المسجد أو في داره ، ودلوها على داره
فرأت داراً صغيرة من اللبن والطين ، ما على بابها حرس ، وليس حولها
جند . فقالت في نفسها أين هذا من قصر الأمير وهمت بالرجوع ، ثم أحبت
أن تجرب . فقرعت الباب تسأل عنه ، فقالت لها امرأته هو في مجلس الحكم
في المسجد ، فدخلت إلى المسجد تسأل عنه فدلوها عليه ، فصاحت أنا بالله
ثم بالقاضي . قال : من ظلمك ؟

قالت : الأمير موسى بن عيسى .

قال : فيم وما دعواك ؟ فحككت له قصتها ، فأعطأها ورقة بعد أن ختمها
وقال لها : إمض بها إلى بابه حتى يحضر معك .
فلما أرادت الدخول على الأمير صاح بها الحاجب : مكانك يا امرأة
ماذا تريدين ؟

قالت : الأمير .

فأراد إرجاعها فقالت :

إن معي هذه ، قال وما هذه يا امرأة ، قالت بطاقة القاضي للأمير

فوثب وقال : تقولين إنها بطاقة القاضي هاتيها لأراها ، فلما رآها قال ويحك ولم لم تقولي من أول الأمر إن معك بطاقة القاضي ؟ أدخلي. فلما قرأها الأمير أمر بدعوة صاحب الشرطة فلما جاءه قال :

إمض إلى شريك فقل له يا سبحان الله ما رأيت أعجب من أمرك . امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها علي ، فحاول صاحب الشرطة أن يعتذر عن هذه المهمة ، فأصر الأمير فأرسل صاحب الشرطة من يأخذ له أغراضه إلى السجن ولما أوصل الرسالة أمر به شريك إلى السجن لأنه يتدخل في شأن القضاء ، فأرسل الأمير الحاجب فسجنه شريك أيضاً ، فأرسل اليه الأمير وجوه الكوفة للوساطة فسجنهم جميعاً ، فجاء الأمير ليلاً ففتح باب السجن وأخرجهم جميعاً ، ولما بلغ من الغد الأمر إلى شريك قال لغلامه :

إلحقي بثقلي إلى بغداد ، والله ما طلبنا هذا منهم ، ولكن أكرهونا عليه وقد ضمنوا لنا الإعزاز فيه إذا تقلدناه لهم ، وركب دابته ومضى نحو قنطرة الكوفة في طريقه إلى بغداد ، وأخبر الناس الأمير فلحقه وجعل يمشي معه ويقول له :

يا أبا عبد الله تثبت أنظر دع أعواني أفتحبس إخوانك . إخوانك تحبسهم قال نعم. لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه ، ولست براجع حتى يردوا جميعاً إلى الحبس ، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين فاستعفيته مما قلدني فأمر موسى بردهم جميعاً إلى الحبس وهو واقف مكانه ، حتى جاءه السجن فقال قد رجعوا إلى الحبس . فقال القاضي لغلامه . نخذ بلجامه فقله الى مجاس الحكم ، ونودي على المرأة فجاءت فأجلسها معه ، فقال الأمير : أنا قد حضرت أفلا تطلق من حبستهم ، قال أما الآن فنعم ، وأمر بإخراجهم من السجن وقال للأمير :

ما تقول يا رجل فيما تدعيه هذه المرأة ؟
قال : صدقت .

قال : أتعيد سياجها وترد ما أخذته منها ؟

قال : نعم .

قال للمرأة : بقي لك شيء تدعيه ؟

قالت : نعم . بيت حارس البستان ومتاعه .

قال : ما تقول .

قال : أرد ذلك كله .

قال : بقي لك شيء .

قالت : لا وجزاك الله خيراً .

قال : قومي . ووثب فأخذ بيد موسى وأجلسه في مجلسه وقال له :

السلام أيها الأمير أأمر بشيء ؟ فضحك وقال بأي شيء أمر ، قال : ذاك حق الشرع وهذا حق الأدب .

* * *

عدل لا مثيل له ، ذلك ثمرة من ثمار محمد ﷺ تدل على أنها ثمرة نبي ، إذ ليس لها مصدر سواه تنسب إليه في أمة لم تهذبها ثقافة سابقة ، ولا تجربة قضائية مستمرة ، ولا رقابة اجتماعية معترف عليها .

سادساً — الطاعة المبصرة

وثمرة سادسة من ثمار سيدنا محمد رسول الله ﷺ تشهد أنها ثمرة نبي ونبوة ، هي الطاعة المبصرة ، وذلك أن العرب شعب لم يترب على طاعة أحد ، ولم يترب على نظام ولا انضباط ، وليس لديه مفهوم عن الولاء لحكومة ما ، أو الخضوع لها ، وأما غير العرب فالأمر عندهم مختلف ، طاعة عمياء للملوكهم ، ومرؤوسهم في كل شيء . إذا أمروا بالشيء كان خيراً ، وإذا نهوا عنه نفسه كان شراً ، لا ، ولا يحاسبون ولا يراقبون .

وحدث ذلك الحدث الضخم ، أن الأمة التي لا تعرف النظام ، أصبحت منظمة ، والتي لا تعرف الطاعة أصبحت مطيعة ، ولكنها طاعة من نوع جديد فريد ، طاعة بالحق لا بالباطل ، بالعدل لا بالظلم لمن يستحق الطاعة لا لمن لا يستحقها ، فكان ذلك فتحاً جديداً في تاريخ الوعي عند الشعوب ، لدرجة أن العربي الذي كان يتعصب لقريبه وينصره وإن كان على الباطل ، ولا يطيع فيه أحداً أبداً صار على ابن عمه إذا كان على الباطل ، ويطيع فيه أبعد الناس نسباً عنه في الحق ، والذي كان أبعد الناس عن الانضباط ، صار أكثر الناس انضباطاً ، ومن قرأ تاريخ العرب في الجاهلية ، عرف الفارق الكبير بين ذلك الواقع وواقعهم بعد . وهذه أمثلة من واقعهم بعد تربية الرسول ﷺ لإياهم .

أ- روى ابن جرير بسند عن ابن زبارة قال : دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد الله بن أبي : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول بأبي أنت وأمي ؟ قال يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فقال : فقد صدق والله يا رسول الله أنت والله الأعز وهو الأذل . أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني ، ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به . فقال رسول الله ﷺ : لا ، فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال :

أنت القاتل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ﷺ والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله « فقال :

يا للخزرج ، إني يمنعني بيتي !

فقال : والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله فأتوا النبي ﷺ فأخبروه فقال :

إذهبوا اليه فقولوا له : خله وسكنه فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبي ﷺ فنعم .

ب - ومن كلام لسعد بن معاذ يوم بدر يخاطب به رسول الله ﷺ :
« إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فأظعنٌ حيث شئت ، وصل جبل من شئت ، واقطع جبل من شئت ، ونخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطينا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضناه معك » .

ج - ويروي كعب بن مالك قصته مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فيقول فيها :

وهي رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال :

فاجتنبنا الناس أو قال : تغيروا لنا حتى تنكرت لي نفس الأرض فما هي الأرض التي أعرف إلى أن قال : حتى إذا طال علي من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت له :

يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار » .

ويقول : بينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول :

« من يدلني على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى جاءني ، فدفع إلي كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه

قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة فالحق بنا واسك . فقامت حين قرأتها وهذه أيضاً من البلاء فتيهمت بها التنور فسجرتها حتى نزلت توبته وكان ما كان .

د- وللغرب ولع في الخمر تتحدث عن معاقبتها والاجتماع على شربها لشعراء ، وشغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم ، وكثرت سماؤها وصفاتها في لغتهم ، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب ، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً يرفرف عليها علم يسمى غاية ، وشاعت تجارتها عندهم حتى أصبحت كلمة التجارة مرادفة لكلمة بيع الخمر، ومع هذا كله فما يكاد تحريم الخمر ينزل حتى انتهى أمر الخمر من أرض العرب . روى أبو بريدة عن أبيه قال :

بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة ، إذ قامت حتى أتى رسول الله فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . . إلى قوله : فهل أنتم منتهون » فجلت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله : « فهل أنتم منتهون » . . قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا في باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا انتهينا .

هـ - ولقد تأصل فقه الطاعة في المعروف عند العرب وغيرهم من المسلمين حتى وصل إلى عجائز الناس :

« أخرج مالك عن ابن أبي مليكة قال : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بامرأة مجذومة وهي تطوف بالبيت فقال لها : يا أمة الله لا تؤذي الناس لو جلست في بيتك . فجلست . فمر بها رجل بعد ذلك فقال : إن الذي كان نهاك قد مات فارجعي . قالت : ما كنت لأطيعه حياً وأعصيه ميتاً .
و- وتأصل فقه الطاعة بالمعروف في أنفسهم ظاهراً وباطناً في الغيبة

والحضور في المنشط والمكروه :

لما عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد غضب ناس ، ومن غضب علقمة ابن علاثة وهو من أمراء العرب فانظر ماذا كان جوابه في هذه الحادثة اللطيفة :

« لقي عمر رضي الله عنه علقمة بن علاثة جوف الليل وكان عمر يشبه بخالد بن الوليد رضي الله عنه . فقال له علقمة : يا خالد عزلك هذا الرجل لقد أبى إلا شحاً لقد جئت اليه وابن عم لي نسأله شيئاً فأما إذا فعل فلن أسأله شيئاً . فقال له عمر : هيه فما عندك ! فقال : هم قوم لهم علينا حق فنؤدي لهم حقهم وأجرنا على الله . فلما أصبحوا قال عمر لخالد : ماذا قال لك علقمة منذ الليلة ؟ قال : والله ما قال لي شيئاً قال : وتحلف أيضاً فجعل علقمة يقول لخالد : مه يا خالد فقال عمر كلاهما قد صدق وأجاز علقمة وقضى له حاجته .

ز - ولكن طاعتهم طاعة ضمن حدود المعروف أما أن تكون على غير ذلك فلا :

أخرج الشيخان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : استعمل النبي ﷺ رجلاً من الأنصار على سرية بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا قال : فأغضبوه في شيء فقال :

اجمعوا لي حطباً فجمعوا فقال : أوقدوا ناراً فأوقدوا ثم قال : ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا ؟ قالوا : بلى قال : فادخلوها . قال فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار . قال : فسكن غضبه وطفئت النار فلما قدموا على النبي ﷺ ذكروا ذلك له فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف .

وكان الصحابة يتذاكرون هذا الأصل ويتواصون به حتى لا ينحرفوا بانحراف سلطان أو حكم :

لما ولي زياد الحكم بن عمر الغفاري خراسان أرسل عمران بن الحصين رضي الله عنهما يطلبه حتى إذا لقيه قال : أسمعت رسول الله ﷺ يقول : لا طاعة لأحد في معصية الله تبارك وتعالى ؟ قال نعم . فقال عمران : الحمد لله أو الله أكبر .

ج - وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على سرية ومعه في السرية عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال : فخرجوا حتى اتوا قريبا من القوم الذين يريدون أن يصبحوهم نزلوا في بعض الليل قال :

وجاء القوم النذير فهربوا حيث بلغوا ، فأقام رجل كان قد أسلم هو وأهل بيته فأمر أهله فتحملوا وقال قفوا حتى آتيكم ، ثم جاء حتى دخل على عمار رضي الله عنه قال :

يا أبا اليقظان إني قد أسلمت وأهل بيتي فهل ذلك نافعي إن انا أقسمت . فان قومي قد هربوا حيث سمعوا بكم ، قال فقال له عمار : فأقم فأنت آمن . فانصرف الرجل هو وأهله ، قال : فصبح خالد القوم فوجدهم قد ذهبوا فأخذ الرجل وأهله فقال له عمار : إنه لا سبيل لك على الرجل قد أسلم .

قال : وما أنت وذاك ؟ أتجير علي وأنا الأمير ؟ ؟

قال : نعم أجير عليك وأنت الأمير . إن الرجل قد آمن ولو شاء لذهب كما ذهب أصحابه ، فأمرته بالمقام لإسلامه . فتنازعا في ذلك حتى تشاتما فلما قدما المدينة اجتمعا عند رسول الله ﷺ فذكر عمار الرجل وما صنع فاجاز رسول الله ﷺ أمان عمار ونهى يومئذ أن يجير أحد على الأمير فتشاتما عند رسول الله ﷺ فقال خالد :

يا رسول الله : ايشتمني هذا العبد عندك أما والله لولاك ما شتمني فقال نبي الله ﷺ :

كف يا خالد عن عمار فإنه من يبغض عمار يبغضه الله عز وجل ومن يلعن عمارا يلعنه الله عز وجل . ثم قام عمار واتبعه خالد بن الوليد حتى أخذ بثوبه فلم يزل يترضاه حتى رضي عنه ونزلت هذه الآية :

« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم - أمراء السرايا - فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول » . فيكون الله ورسوله هو الذي يحكم فيه .
« ذلك خير وأحسن تأويلا » (خير عاقبة)

* * *

والمسألة في هذا الموضوع كما يلي :

إن رسول الله ﷺ علم الإنسان أن الله وحده هو الذي يستحق الطاعة وحتى الرسول ﷺ إنما يطاع لله وغير رسول الله إنما يطاع بطاعة الله « مَنْ يطع الرسول فقد أطاع الله » . « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » أي من المسلمين ، أما غير المسلم فلا طاعة له ، والمسلم طاعته في حدود كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لذلك ختمت الآية : « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » وعلى هذا فمن أمر بمعصية الله فلا طاعة له ، وبهذا تماسكت شخصية الإنسان تماسكاً لا مثيل له ، فصار المسلم يقول : لا ، إذا كان ينبغي أن تقال مهما كان وراءها ، لا يبالي إن كان الناس كلهم عليه في الباطل ، لا يساير الناس ولا يداريهم على حساب الحق . أما في الحق فهو أكثر الناس طاعة وانضباطاً إذ في هذه الحالة جعل رسول الله ﷺ بأمر الله طاعة الأمير فرضاً ، وفي الباطل معصيته فريضة : قال أبو جعفر المنصور الخليفة الطاووس : ناولني الدواة . فرفض . قال : أخشى أن تكتب فيها معصية فأكون شريكاً فيها فما أبلغ هذا في ثمار النبوة وما أدله عليها ألا يطيع الإنسان غير الله .

سابعاً - أجيال خيرة جريئة بالحق

وثمرة أخرى من ثمار محمد ﷺ تشهد أنه رسول الله :
ما هو الخير وما هو الشر ؟ وما هو المعروف وما هو المنكر ؟ وإذا

عرفنا الخير والشر والمعروف والمنكر ، فما هي أجزاء هذا وهذا ، وافراد هذا وهذا ؟ وإذا عرفنا الجميع فكيف نقتلع جذور الشر ونقضي عليه ، ونتمكن للخير وندعمه ؟ وكيف نوجد بشراً ليس للشر في قلوبهم نصيب ، وقد نذروا للخير أنفسهم ، همهم الأعلى إقامة بنيانه وإرساء حقائقه ؟ هذه قضايا يعجز عن كل واحد منها الكثير ، ولا يجمع بينها أحد ولكن محمد رسول الله ﷺ بفترة بسيطة من الزمن عرّف الإنسان بالخير كله والشر كله وربى جيلاً يعشق الخير ، ويبغض الشر ويتفانى من أجل أن تقوم الحياة البشرية على الخير المشرق المنير . فخرجت نماذج ما عرف العالم بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام أقوى منها ، ولا أصلب في هذا الأمر .

* * *

اقرأ سيرة الرسول ﷺ واقرأ القرآن والحديث فإنك لا تجد خيراً إلا ذكر ، ولا شراً إلا ذكر ، ولا تجد شيئاً قال عنه رسول الله ﷺ إنه خير تستطيع أن تحكم عليه غير ذلك إلا إذا جانب العقل ولم تخضع لحجة ، ولا تجد شيئاً قال عنه رسول الله ﷺ إنه شر تستطيع أن تحكم عليه غير ذلك ، إلا إذا كنت متبعاً للشهوات ميالاً مع الهوى (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) ومهما حاولت أن تجد شيئاً من الشر لم ينه عنه رسول الله ﷺ فإنك لا تجد ، ومهما حاولت أن تجد شيئاً من الخير لم يأمر به فإنك لا تجد ، والشيء المهم بعد ذلك أن هذا الخير تمثل بمجتمع بشري لم يبق فيه للشر ظهور ، وكل ذلك ببركات رسول الله ﷺ وتربيته وسنصر ب هنا أمثلة من حياة المسلمين يتبين فيها حربهم العنيفة للمنكر وحرصهم على المعروف وأمرهم به :

ولن نختار هذه الأمثلة من حياة الصحابة في زمن الرسول ﷺ فإنه هو الذي كان يتولى الأمر ولا في زمن الخلفاء الراشدين لشهرة ذلك عن عصرهم . بل سنقدم أمثلة عما حدث بعد يرى منها كيف أن الماء الذي فجره محمد رسول الله ﷺ بقي أبداً صافياً زلالاً خييراً يحيي القلوب بالخير ويميت بها الشر :

أ - أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي فنيل عن معاوية بن أبي سفيان (ر ض)
أنه صعد المنبر يوم الغمامة فقال عند خطبته :

إنما المال مالنا والفنيء فيئنا فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه ، فلم يجبه
أحد ، فلما كان في الجمعة الثانية قال مثل ذلك فلم يجبه أحد ، فلما كان في
الجمعة الثالثة قال مثل مقالته فقام إليه رجل ممن حضر المسجد فقال :
كلا . . . إنما المال مالنا والفنيء فيئنا فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى
الله بأسيافنا ، .

فنزل معاوية (ر ض) فأرسل إلى الرجل فأدخله فقال القوم : هلك
الرجل ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير فقال معاوية للناس : إن
هذا الرجل أحياني أحياء الله ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :
سيكون بعدي أمراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما
تتقاحم القرودة .

وإني تكلمت أول جمعة فلم يرد علي أحد فخشيت أن أكون منهم
ثم تكلمت في الجمعة الثانية فلم يرد أحد علي قلت في نفسي إني من القوم ، ثم
تكلمت في الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فرد علي فأحياني أحياء الله .
(قال الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو يعلى ورجاله
ثقات) .

ب - أخرج مسلم عن الحسن البصري أن عائذ بن عمرو (ر ض) دخل
على عبيد الله بن زياد فقال : أي بني . . . إني سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« إن شر الرءاء الحطمة فأياك أن تكون منهم ، قال له : إجلس فإنما
أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ قال وهل كانت لهم نخالة ! إنما كانت
النخالة بعدهم وفي غيرهم » .

ح- روى الحمسة إلا البخاري عن طارق بن شهاب (أن أول من بدأ بخطبة العيد قبل الصلاة مروان فقام اليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة) وفي رواية الترمذي (يا مروان خالفت السنة) زاد أبو داود (أخرجت المنبر في يوم عيد ولم يكن يخرج فيه وبدأت بالخطبة قبل الصلاة) قال : قد ترك ما هنالك . قال أبو سعيد الخدري (رض) : أما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » وليس عند النسائي إلا الأخير أي المسند .

د- وفي الإحياء عن الشافعي قال : حدثني محمد بن علي قال : إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال : أتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئاً من أمر الحسن بن زيد قال الحسن : يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب . قال : فسأله فقال : ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب ؟ قال : أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثيروا الأذى لهم . قال أبو جعفر : قد سمعتم . فقال الغفاريون : يا أمير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد : قال شهد عليه : إنه يحكم بغير الحق ، ويتبع هواه ، فقالوا : قد سمعت ما قال فيه ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسأله عن نفسك فقال : ما تقول في ؟ قال : أسألك بالله إلا أخبرني قال : تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك ؟ قال : والله لتخبرني . قال :

أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله ، وأشهد أن الظلم ببابك فاش .

قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له : أما والله لولا أني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم

والترك بهذا المكان منك ، قال : فقال ابن أبي ذؤيب : يا أمير المؤمنين قد
ولى أبو بكر وعمر فأخذوا الحق وقسما بالسوية ، وأخذوا بأقفاء فارس والروم
وأصغروا آثافهم ، قال : فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال : والله لولا
أعلم أنك صادق لقتلتك . فقال ابن أبي ذؤيب : والله يا أمير المؤمنين إني
لأنصح لك من ابنك المهدي .

هـ - وصاح الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالملك أيوب : يا أيوب ما حجتك
عند الله إن قال لك : ألم أبوّىء لك ملك مصر ثم تبيع الخمر . قال : وهل
جرى ذلك ؟ قال : نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمر وأنت تتقلب في
نعمة هذه الملكة ، قال هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي . قال : أنت
ممن يقولون : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » فأمر
الملك برفعها .

وسأل الشيخ تلميذه الباجي قال : يا سيدي أما خفته ؟ قال الشيخ : يا بني
استحضرت هيبة الله فصار قدامي مثل القط .

و - وللنووي مواقف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ننقل بعضها :

لما ورد دمشق من مصر السلطان المجاهد العظيم الملك الظاهر بيبرس بعد
قتال التتار وإجلأهم عن البلاد زعم له وكيل بيت المال أن كثيراً من بساتين
الشام من أملاك الدولة فأمر الملك بالحوطة عليها أي بحجزها وتكليف واضعي
اليد على شيء منها لإثبات ملكيته وإبراز وثائقه فليجأوا إلى الشيخ النووي
في دار الحديث فكتب إلى الملك هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين . . قال الله تعالى : « وذكرٌ فإن الذكرى تنفع
المؤمنين » وقال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه
للناس ولا تكتُمونه » وقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا
على الإثم والعدوان » .

وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره ، ونصيحة

عامة المسلمين ، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال (الدين النصيحة لله ، وكتابه ، وأئمة المسلمين وعامتهم) .

ومن نصيحة السلطان - وفقه الله لطاعته وأولاه بكرامته ، أن تنهى اليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام . فقد أوجب الله تعالى الشفقة على الرعية ، والاهتمام بالضعفة وإزالة الضرر عنهم .
قال الله تعالى :

« واخلض جناحك للمؤمنين » .

وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ : (إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم) .

قال ﷺ : (مَنْ كَشَفَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ) .
وقال ﷺ : (اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ ، وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ) .

وقال ﷺ : (كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) .

وقال ﷺ : (إِنْ الْمَقْصُطِينَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْ)

وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان ، أعز الله أنصاره . فقد أقامه لنصرة الدين ، والذب عن المسلمين ، وأذل به الأعداء من جميع الطوائف ، وفتح عليه الفتوحات المشهورة ، في المدة اليسيرة ، وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين وسائر الماردية . ومهد له البلاد والعباد ، وقمع بسببه أهل الزيف والفساد ، وأمدّه بالإعانة واللفظ والسعادة ، فله الحمد على هذه النعم الظاهرة ، والخيرات المتكاثرة ، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين ، وزيادتها في خير وعافية آمين .

وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين .

فقال تعالى :

« لَسْنِ شُكْرْتُمْ لَا زِيدَنْكُمْ » .

وقد لحق المسلمون بسبب هذه الخوطة على أملاكهم ، أنواع من الضرر ، ولا يمكن التعبير عنها ، وطلب منهم إثبات لا يلزمهم ، فهذه الخوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين . بل من في يده شيء فهو ملكه ، لا يحل الاعتراض عليه ، ولا يكلف بإثباته . وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع ويوصي نوابه به ، فهو أولى من عمل به .

والمسؤول إطلاق الناس من هذه الخوطة ، والإفراج عن جميعهم ، فأطلق أطلقك الله من كل مكروه ، فهم ضعفة ، ومنهم الأيتام والأرامل والمساكين والضعفة ، والصالحون وبهم تنصر وتعان وترزق ، وهم سكان الشام المبارك ، جيران الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم ، وسكان ديارهم ، فلهم حرمت من جهات ، ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتد حزنه عليهم ، وأطلقهم في الحال ، ولم يؤخرهم ، ولكن لا تنهى إليه الأمور على وجهها ، فالله أغث المسلمين يغثك الله ، وارفق بهم يرفق الله بك ، وعجل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار ، وتلف غلاتهم فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم ، ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء (أي أسناد تمليك) وقد نهبت كتبهم ، وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ﷺ لمن رفق بأمته ، ويظهره على أعدائه .

فقد قال الله تعالى :

« إن تنصروا الله ينصركم » .

وتتوفر له من رعيته الدعوات ، وتظهر في مملكته البركات ، وبارك له في جميع ما يقصده من الخيرات . وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (مَنْ سَنَ سَنَةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَنَ سَنَةً سَيِّئَةً فَعَلِيَّةٌ وَزَرْهَا وَوَزَرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

فنسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التي يذكر بها إلى يوم القيامة ، ويحميه من السنن السيئة ، فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان ، ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه .

فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه وخشي إذا لان له أن يعيد معه في الشام سيرة العز بن عبد السلام في مصر ، فأجابه بالرد الشديد ، وأراد أن يعجل عليه بالعقوبة ، فأمر بقطع رواتبه وعزله من مناصبه . فقالوا له :

إنه ليس للشيخ راتب ، وليس له منصب . ولما رأى الشيخ أن الكتاب لم يفد ، وأن هذا اللين منه لم يأت بنفع ، ذهب إليه بنفسه ، وقابله وكلمه كلاماً غليظاً . وأراد السلطان البطش به ، فصرف الله قلبه عن ذلك وحمى الشيخ منه ، وأبطل الأمر بـ (الحوطة) وخلص الناس من شرها .

ثم جاءت قضية أخرى :

أراد السلطان أن يجهز جيشاً ، ففرض على الناس ضريبة جديدة ، فعاذوا منه بالشيخ واجتمع إليه علماء دمشق ووكلوه أن يكتب ما يريد وهم يمضون معه الكتاب ، وكانت الوحشة لا تزال قائمة بينه وبين الملك ، لما كان منه في (قضية الحوطة) . فلم يكتب إليه رأساً بل كتب إلى الأمير بدر الدين الخازن ليوصل كتابه إليه وكان بدر الدين نائب المملكة وأتابك الجيوش (أي القائد العام) وكان موصوفاً بكثرة المودة ومحبة العلماء والصلحاء وحسن السيرة .

قال تلميذه السخاوي :

فمما كتبه وأرسل به ورقة إلى الظاهر تتضمن وجوب العدل في الرعية ، وإزالة المكوس عنهم ، ووضع العلماء والشيوخ خطوطهم معه .

فقرأ الأمير الكتاب ورفع الورقة إلى السلطان ، فاشتد غضبه ، واحتج بأنه يريد هذا المال للجهاد وهم يعارضونه وكان عليهم أن يؤيدوه وأنهم ينكرون عليه ، ولم يكونوا ينكرون على الكفار لما كانوا يحكمون البلاد ، قبل أن يخرجهم منها بجهاده الطويل ، ومثابرتة عليه . وتوعد العلماء ، فتقاعسوا ، ولكن النووي لم يبال ، وكتب اليه في الجواب هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛

الحمد لله رب العالمين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، من عبد الله يحبى النووي ينهى : إن خدام الشرع ، كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد ، وفهمنا من أن الجهاد ذكر في الجواب على خلاف حكم الشرع ، وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها ، فقال تعالى :

« وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » .

« ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوهم الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم » .

وذكر في الجواب أن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد ، وهذا أمر لم ندعه ولكن الجهاد فرض كفاية ، فإذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين ، ولهم أخباز معلومة من بيت المال كما هو الواقع ، تفرغ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم ، من الزراعة والصنائع وغيرها مما يحتاج الناس كلهم اليه ، فجهاد الأجناد مقابل بالخباز المقررة لهم ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء مما دام في بيت المال شيء ، من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك .

وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان أعز الله أنصاره متفقون على هذا وبيت المال بحمد الله معمور ، زاده الله عمارة وسعة وخيراً وبركة ، في

حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة له والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين « وما النصر إلا من عند الله » وإنما يستعان في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى ، واتباع آثار النبي صلى الله عليه وسلم وملازمة أحكام الشرع وجميع ما كتبناه ، أولاً وثانياً هو النصيحة التي نعتقدها وندين لله بها ، ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه ، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية ، وليس فيها ما يلام عليه ، ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلنا أنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرفق بالرعية ، والشفقة عليهم وإكرامه لآثار النبي ﷺ . وكل ناصح للسلطان موافق على هذا الذي كتبناه ، وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا في البلاد ، فكيف تقاس ملوك الأسلام وأهل الإيمان والقرآن ، بطغاة الكفار ، وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟ وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه وأي حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام ؟ وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ، ولا أكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان فإني أعتقد أن هذا واجب علي وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله « إنما هذه الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هي دار القرار » « وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد » وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا ، وأن لا نخاف في الله لومة لائم ، نحن نحب للسلطان معالي الأمور وأكمل الأحوال وما ينفعه في آخرته ودنياه ويكون سبباً في دوام الخيرات له ويبقى ذكره له على مر الأيام بخلاف في سنته الحسنة ويجد نفعه « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً » . وأما ما ذكر في تمهيد سلطان البلاد وإدامته الجهاد وفتح الحصون وقهر الأعداء ، فهو بحمد الله من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها الخاصة والعامة ، وسارت في اقطار الارض والله الحمد .

وثواب ذلك مدخر للسلطان إلى يوم تجدد كل نفس ما عملت من خير محضراً ،
ولا حجة لنا عند الله إذا تركنا النصيحة الواجبة علينا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
وبعد إذا لم يكن تمييز الخير من الشر والمعروف من المنكر وتبيان كل ،
وتربية الناس على محبة الخير والمعروف ، وبغض الشر والمنكر ، إذا لم يكن
هذا من ثمار النبوة فما هي ثمار النبوة ؟

لقاء بين محمد رسول الله ﷺ للناس الخير والشر ،
ودل الناس على أن يفعلوا الخير وحده ، وعلى أن يحاربوا الشر أنى كان .
فكانوا مثلاً علياً لا مثيل لها في ذلك ، استحقوا معها أن يكونوا خير أمة أخرجت
للناس « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر
وتؤمنون بالله . » .

نعم إنها ثمار النبوة ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، فلم تكن الجزيرة
العربية مرشحة لأشياء من هذا ولا غيرها لولا وحي الله .

ثامناً - دولة هداية لا جباية

وثمره ثامنة :

أخرج ابن سعد عن سفيان بن أبي العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب
(ر ض) الله ما أدري خليفة أنا أم ملك ؟ فان كنت ملكاً فهذا أمر عظيم قال
قائل يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً فان الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا
في حق ، وأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي
هذا فسكت عمر .

وقال عمر لسلمان : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : إن أنت جبيت
من أرض المسلمين (أي أرض الدولة الإسلامية وإن كانت للذي غير مسلم)
درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حق ، فانت ملك غير خليفة) .

هذه هي الثمرة المقصودة ، أن رسول الله ﷺ قد شرع بأمر من الله للناس في شأن المال شريعة لا يمكن أن يوجد أعدل منها ، فلا يؤخذ من أحد مال إلا بعدل ، ولا يتملك إنسان ملكاً إلا بحق وعدل ، وقبل ذلك لم تكن في الأرض نظرية للملك صالحة ولا عادلة ، ولا نظرية للجباية صالحة أو عادلة ، وكان شعار الحكومات قبل الإسلام : الجباية ، فأصبح شعار حكومة الإسلام : الهداية .

* * *

يقول الدكتور الفرد ج . ميكر عن الحكم الروماني في مصر :
إن حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة ، أو تهذيب نفوسهم ، أو إصلاح أمور أرزاقهم فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العواطف على الشعب المحكوم .
ويقول مؤلف إيران في عهد الساسانيين عن الوضع في إيران :
« كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة ، واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجباية الأموال .

« إن ما قام به كسرى أنو شروان من إصلاح النظام المالي كان في مصلحة مالية المملكة أكثر منه في مصلحة الرعية . فلم تزل العامة يعيشون في الجهل والظنك كما كانوا في السابق .

« كان الفلاحون في شقاء وبؤس عظيم ، وكانوا مرتبطين بأراضيهم ، وكانوا يستخدمون مجاناً ، ويكلفون كل عمل . يقول المؤرخ : اميان مارسيلينوس : ان هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسبرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم ، ولم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعاً من راتب أو أجرة وكانت علاقة الفلاحين بالملك أصحاب الأراضي كعلاقة

العبيد بالسادة :

* * *

أين هذا مما حدث ببركات رسول الله ﷺ مما نرى نماذجه هنا :

أ - أوصى عمر بن الخطاب وصية لمن يلي أمر المسلمين بعده منها :

« وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم رداء الإسلام ، وجباة الأموال ، وغیظ العدو ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم ». « وأوصيه بذمة الله وبذمة رسوله ، أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم ».

ب - وأخرج ابن زنجويه عن رجل من ثقیف قال : استعملني علي بن أبي طالب رضي الله عنه على عكبرا فقال لي وأهل الأرض عندي : « إن أهل السواد قوم خدع فلا يخذ عنك فاستوف ما عليهم » ثم قال لي : رح إلي فلما رجعت إليه قال لي :

إنما قلت لك الذي قلت لأسمعهم ، لا تضربن رجلاً منهم بسوط في طلب درهم ، ولا تقمه قائماً ، ولا تأخذن منهم شاة ، ولا بقرة إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو أتدري ما العفو ؟ الطاقة .

وفي رواية البيهقي « ولا تبیعن لهم رزقاً ولا كسوة شتاء ولا صيفاً ولا دابة يعتملون عليها ولا تقم رجلاً قائماً في طلب درهم قال :

قلت : يا أمير المؤمنين إذا أرجع اليك كما ذهبت من عندك .

قال : وإن رجعت كما ذهبت ويحك إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو يعني الفضل .

ج - وأخرج ابو عبيد عن يزيد بن أبي مالك قال : كان المسلمون بالجابية وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتاه رجل من أهل الذمة يخبره أن الناس قد اسرعوا في عنبه فخرج عمر رضي الله عنه حتى لقي رجلاً من أصحابه يحمل ترساً عليه عنب فقال عمر : وأنت أيضاً ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : أصابتنا مجاعة فانصرف عمر (رض) وأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه .

د- وأخرج الحاكم عن إبراهيم بن عطاء عن أبيه أن زياداً أو ابن زياد بعث عمران بن حصين (ر ض) ساعياً فجاء ولم يرجع معه درهماً فقال له : أين المال ؟ قال : وللمال أرسلتني ؟ أخذناها كما كنا نأخذها على عهد رسول الله ﷺ ووضعناها في الموضع الذي كنا نضعها على عهد رسول الله ﷺ

ه- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة بن محمد :

أما بعد فانك كتبت إلي تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الحراج مضروبة ثابتة في أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال إن اخصبوا أو أجذبوا ، أو حيوا أو ماتوا ، فسبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين إذا أتاك كتابي هذا فدد ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ثم ائتنف (أي خذ) الحق فاعمل به بالغاً بي وبك ما بلغ وإن أحاط بمهج أنفسنا وإن لم ترفع إلي من جميع اليمن إلا حفنة من كتم فقد علم الله أني بها مسرور ، إذا كانت موافقة للحق والسلام .

و- وأخرج ابن عساكر والواقدي عن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي : رضي الله عنهما قال : لما قدمنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية إذا هو بشيخ من أهل الذمة يستطعم فسأل عنه فقال : هذا رجل من أهل الذمة كبر وضعف فوضع عنه عمر (ر ض) الجزية التي في رقبته وقال : كلتموه الجزية حتى إذا ضعف تركتموه يستطعم ؟ فأجرى عليه من بيت المال عشرة دراهم وكان له عيال .

وفي رواية أبي عبيد وابن زنجويه والعقيلي عن عمر (ر ض) أنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال : ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية في شبيبته ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه .

ز- « وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : أراد عمر رضي الله عنه أن يأخذ دار العباس بن عبد المطلب (ر ض) فيزيدها في المسجد فأبى العباس أن يعطيها إياه فقال عمر : لآخذنها قال : فاجعل بيني وبينك أبي بن

كعب رضي الله عنه قال : نعم فأتياً أبيعاً فذكر له فقال أبي : أوحى الله إلى سليمان بن داود (عليهما الصلاة والسلام) أن يبني بيت المقدس وكانت أرضاً لرجل فاشترى منه الأرض فلما أعطاه الثمن قال : أأعطيته خيراً أم الذي أخذت مني ؟ قال بل الذي أخذت منك قال : فإني لا أجيز ثم اشتراها منه بشيء أكثر من ذلك فصنع الرجل مثل ذلك مرتين أو ثلاثاً فاشترط عليه سليمان عليه الصلاة والسلام أني أبتاعها منك على حكمك فلا تسألني أيهما خير ؟ قال فاشترها منه بحكمه فاحتكم اثني عشر ألف قنطار ذهباً فتعاضم ذلك سليمان أن يعطيه فأوحى الله إليه أن كنت تعطيه من شيء هو لك فانت أعلم وإن كنت تعطيه من رزقنا فاعطه حتى يرضى ففعل . قال : وأنا أرى أن عباساً أحق بداره حتى يرضى قال العباس فاذا قضيت لي فاني أجعلها صدقة للمسلمين .

وفي رواية فقال أبي لعمر ما أرى أن تخرجه من داره حتى ترضيه فقال له عمر : رأيت قضاءك هذا في كتاب الله وجدته أم سنة من رسول الله ﷺ ؟ فقال أبي : بل سنة من رسول الله ﷺ فقال عمر وما ذاك ؟ فقال إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن سليمان بن داود ﷺ لما بنى بيت المقدس جعل كلما بنى حائطاً أصبح منه دماً فأوحى الله إليه أن لا تبني في حق رجل حتى ترضيه فتركه عمر فوسعها العباس رضي الله عنهما — بعد ذلك في المسجد . وأخرج ابن جرير الطبري عن زياد بن جزء الزبيدي فقال افتتحنا الإسكندرية في خلافة عمر رضي الله عنه فذكر الحديث وفيه ثم وقفنا ببليهب واقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاءنا فقرأه علينا عمرو رضي الله عنه وفيه :

« أما بعد فانه جاءني كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إلي من شيء يقسم ثم كأن لم يكن فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية

ما يوضع على أهل دينه ، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فانا لا نقدر على ردهم ، ولا نحب أن نصلحه على أمر لا نفي له به .

قال : فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به امير المؤمنين قال : فقال : قد فعلت قال فجمعنا ما في ايدينا من السبايا واجتمعت النصارى فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا ثم نخيره بين الإسلام والنصرانية ، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية قال : ثم نحوزه الينا وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه اليهم ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً ، حتى كأنه رجل خرج منا إليهم قال : فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم وقد أتى فيمن أتينا به بأبي مریم عبد الله بن عبد الرحمن قال القاسم : وقد أدركته وهو عريف بني زبيد قال : فوقفناه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية وأبوه وأمه وإخوته في النصارى فاختر الإسلام فحزنناه الينا ووثب عليه أبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه ثم هو اليوم عريفاً كما ترى فذكر الحديث .

* * *

إن نقل الدولة من دولة جباية ظالمة ، إلى دولة هداية كاملة ، مع مرافقة نظرية في التملك والحقوق في الملك لا مثيل لها في تاريخ العالم ، ثمرة من ثمار محمد رسول الله ﷺ وإذا لم يكن رسم طريق التملك العادل الذي ليس فيه ظلم ولا حيف ولا حرام ، والحقوق الذي في هذا الملك للفقراء والمساكين والغارمين ... بحيث تقوم قضايا المال على العدل الذي لا باطل معه . إذا لم يكن هذا من ثمار النبوة ، فما هي ثمار النبوة ؟ إن محمداً رسول الله لا شك في ذلك ولا ريب .

تاسعاً وعاشراً – جهاد وحرية

وثمره تاسعة :

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

إذن هي الحرية الدينية لغير المسلمين في ظل دولة الاسلام .
فقد اعطى الإسلام الحرية للناس في عقائدهم إذا خضعوا لحكم الإسلام ما لم يكن وثنيًا من جزيرة العرب ، فهذا لا حرية له ، وما عدا هذا فما عرف الناس مكاناً يأمنون فيه على دينهم غير أرض الإسلام . والدليل على ذلك واضح ، هو أنه حيث فتح المسلمون أرضاً فيها دين وجدت بقايا أهل هذا الدين موجودين ، ولو أن المسلمين كانوا يكرهون رعاياهم على اعتناق دينهم كما فعل غيرهم لما وجدت هذه الظاهرة . إنك لا تجد مثلاً مسلماً واحداً في إسبانيا مع أن المسلمين فيها كانوا ثلاثين مليوناً ، بينما تجد نصارى في بلاد الشام حتى الآن من بقايا النصارى الأولين ، وتجد يهوداً ، ولا يزال غير المسلمين هم الأكثرية في الهند مع أن المسلمين حكموها ثمان مائة سنة ، وهكذا تتكرر الظاهرة في كل مكان .

لقد حاول مرة السلطان سليم الأول أن يأخذ اولاد النصارى ويربيهم على الإسلام ، فوقف امامه علماء المسلمين معارضين ، واعلنوا أن هذا لا يجوز فعدل عن فكرته .

ومن قرأ معاهدات المسلمين مع غيرهم من أبناء الأرض المفتوحة ، وجد سعة صدر المسلمين وتسامحهم ، وعلم أن دعوة الإسلام لم تسلك طريقها إلى القلوب إلا عن طريق الإقناع والمعاملة الحسنة ، والايمان بالقيم العظيمة الموجودة في هذا الدين ، وقرأ نص المعاهدة التي كتبت بين نصارى الشام وبين عمر تجدد هذا المعنى واضحاً وهذا نص المعاهدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أماناً لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبرها ، وسائر ملتها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من صلبانهم ولا شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن إيلياء أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ،

وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على إيلياء من الجزية ، ومن أحب من إيلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعتهم و صليبهم فلهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعتهم ، وعلى صليبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان فيها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء رجع إلى أرضه وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة ورسوله صلى الله عليه وسلم وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية ، شهد على ذلك من الصحابة رضي الله عنهم خالد بن الوليد (ر ض) وعمر بن العاص (ر ض) وعبد الرحمن بن عوف (ر ض) ومعاوية بن أبي سفيان (ر ض) ومن قرأ شهادة السكان غير المسلمين رأى مصداق ذلك .

يقول البطريرك (عيشو يابه) عام ٦٥٦ هجرية :
« إن العرب الذين مكنهم الزمن من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون » .

ويقول مكاربوس بطريك إنطاكية : « أدام الله بناء دولة الترك خالدة إلى الأبد . فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين ، أم ناصريين يهوداً أو سامرة »
ويقول أرنولد : حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى التركي لعلمهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يشيرون من التمتع بهما في ظل أي حكومة مسيحية .

ويقول : وحدث أن هرب اليهود الإسبانيون المضطهدون في جموع هائلة فلم يلجأوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر .
ويقول ريتشارد ستير من أبناء القرن السادس عشر : وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب... سمحوا للمسيحيين جميعاً للأغريق

منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم ، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاؤوا بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة في القسطنطينية وفي أماكن أخرى كثيرة جداً ، على حين أستطيع أنؤكد بحق بدليل اثني عشرة عاماً قضيتها في إسبانيا أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب بل إننا في خطر على حياتنا وسلفنا .

* * *

وحتى الجزية التي هي من جانب رمز للخضوع لسلطان الإسلام ، هي من جانب آخر رمز على الحرية الدينية ، فالجزية من هذا الجانب تفرض على رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين ، في مقابل حمايتهم وعدم مشاركتهم في الحروب ، وفي ذلك منتهى العدل . إذ القتال في الإسلام قتال عقيدي . فالمسلم الذي يقاتل إنما يقاتل بوحى من إسلامه وعقيدته ، وفي سبيل ربه ودينه . فلو أننا طالبنا رعايانا من غير المسلمين أن يقاتلوا معنا فكأننا في هذه الحالة نجبرهم على القتال من أجل عقيدة لا يؤمنون بها ، وذلك منتهى الظلم ، وخاصة إذا كان القتال ضد أبناء دينهم أنفسهم . فالجزية إذن من هذا الجانب لصالح هؤلاء الرعايا ، وجزء متمم لحريتهم ، بدليل أنه حدث في التاريخ الإسلامي أن ناساً من غير المسلمين شاركوا في جيوش المسلمين فاسقط عنهم المسلمون الجزية .

* * *

وحتى العقوبة الصارمة التي فرضها الإسلام على المرتدين عن الإسلام وهي القتل ، هذه العقوبة لصالح الأقليات غير الإسلامية في الأرض الإسلامية من جانب . إذ غير المسلم عندما يعلم أن الدخول في الإسلام باختياره ، ولكنه إذا دخل وخرج فجزأوه القتل . فذلك يجعله يفكر كثيراً قبل اعتناقه الإسلام فيقدم عليه بعد دراسة طويلة واقتناع كامل .

* * * *

قارن هذه الحرية المعطاة لغير المسلمين في الأرض الإسلامية ، في عقائدهم ودياناتهم ، بما يفعل الآخرون حديثاً وقديماً من إجبار الإنسان على تغيير عقيدته ، أو قتله أو سجنه ، أو تعذيبه أو إضطهاده ، أو فرض فكر معين عليه يعتنقه ويتبناه ، أو عدم السماح له بدراسة دينه وعقيدته ، أو يحال بينه وبين من يمكن أن يلقنه دينه ، وتجد في ذلك مآسي وحوادث تثير شجن الإنسان. لكن لو درست التاريخ الإسلامي . فانك لا تجد حادثة واحدة شبيهة بهذا وهذه أمثلة على أعمال غير المسلمين :

يذكر صاحب كتاب كشف الآثار في قصص أنبياء بني إسرائيل وهو كتاب صاحبه نصراني :

١- أمر قسطنطين الأعظم بقطع آذان اليهود وإجلأهم إلى أقاليم مختلفة، ثم أمر إمبراطور الروم في القرن الخامس أن يخرج اليهود من الإسكندرية التي كانت مأمنهم .. وأمر بهدم كنائسهم . ومنع عبادتهم وعدم قبول شهادتهم ، وعدم نفاذ الوصية إن أوصى أحد منهم لأحد في ماله ، ولما احتجوا على ذلك نهب جميع أموالهم وقتل كثيراً (صفحة ٢٧) .

٢- إن يهود بلدة أنطيوخ لما أسروا بعدما صاروا مغلوبين ، قطع أعضاء البعض وقتل البعض ، وأجلى الباقين كلهم ، وظلم الإمبراطور الروماني اليهود الموجودين في المملكة كلها ، وأجلأهم وهيج الدول الأخرى على هذه المعاملة فتحملوا بذلك الظلم من آسيا إلى أقصى حد في أوروبا ، ثم بعد مدة كلفوا في إسبانيا أن يقبلوا شرطاً من شروط ثلاثة . أن يقبلوا المسيحية ، فإن أبوا عن قبولها يكونون محبوسين ، وإن أبوا عن كليهما يجلون من أوطانهم ومثل ذلك حدث في فرنسا (ص ٢٨) .

٣- ومن القوانين التي أصدرها الكاثوليكيون . ولا يجوز الأكل مع اليهودي ويجب نزع أولادهم منهم لتربيتهم تربية مسيحية (ص ٢٩) .

٤- وقد ثبت تاريخياً أن اليهود أجلأوا من فرنسا سبع مرات (ص ٣٠ - ٣١)

٥ - وحدث لهم في النمسا وإسبانيا وبريطانيا من القتل والطرْد والاكراه الكثير ، وقد أجلى إدوارد الأول ملك بريطانيا أكثر من خمسة عشر ألفاً من اليهود بعد أن نهب أموالهم (ص ٣٢) .

* * *

ويذكر توماس نيوتن في كتابه عن نبوءات الكتب المقدسة . أن النصارى عندما فتحوا بيت المقدس في الحروب الصليبية قتلوا أكثر من سبعين ألفاً من المسلمين .

ونقول : إن المسلمين عندما استردوا المدينة بعد زمن طويل لم يقتلوا إنساناً واحداً بعد الفتح .

* * *

وأصدر الملك لويس الحادي عشر سنة ١٧٢٤ قانوناً يقول فيه : إن الكاثوليكية وحدها مأذون بها وأما أصحاب الديانات الأخرى فجزاؤهم الأشغال المؤبدة ، وكل واعظ يدعو إلى ملة غير الكاثوليكية جزاؤه الموت . وقتل في فرنسا في مذبحه واحدة وهي الشهيرة بمذبحه برتولماوس واحد وثلاثون ألفاً من البروتستانت .

وقتل محاكم التفتيش حرقاً بالنار حوالي ، مائتين وثلاثين ألفاً ، والذين قتلوا بالسيف وبآلات التعذيب خلق كثير هذا من غير المسلمين ، أما المسلمون فقد ذكرنا أنه لم يبق في إسبانيا من الثلاثين مليوناً من المسلمين مسلم واحد ، كلهم غدر بهم فمن قتل أو طريد أو مكره على تغيير دينه .

إن إعطاء الإنسان الحرية الكاملة في أمر اختياره عقيدته وعدم إجباره على تغيير دينه بأي واسطة من وسائل الاكراه ، ثمرة من ثمار محمد رسول الله ﷺ . ما كانت لتكون لولا الوحي . إن العرب هذا الشعب القاسي ، كان يمكن أن يمثل في حال النصر الدور الذي مثله التتار من بعد . قتل جماعي ، ومحو للحضارة ، ولكن العرب على العكس من ذلك . مثلوا على مسرح التاريخ

أروع أمثلة الرحمة والتسامح مع الشعوب المغلوبة ، وهذا ليس من أخلاقهم في الأصل لولا دعوة الله ودين الله ومحمد رسول الله ﷺ .

* * *

بل إن عملية الجهاد المستمر ، والتضحيات الكثيرة التي بذلت فيه من أجل إخضاع العالم لسلطان الله ، مع إعطاء الفرد الحرية في البقاء على دينه أو الانتقال منه إلى الإسلام دين الله الحق . بالافتناع الكامل ، دليل كامل على أن محمداً ﷺ رسول الله .

فالذين يتصورون أن مقام النبوة يتنافى مع الحرب العادلة ، تصوراتهم معكوسة تماماً . إن حرب الأنبياء وحدها هي المعقولة في العالم ، إذ أن الحياة البشرية لا تستقيم إلا على قانون الله وشريعته . فما لم يكن العالم خاضعاً لسلطان الله ، فإن العالم تمزقه بمن فيه وقتذاك أهواء البشر ، أما إذا خضع لسلطان الله المتمثل بعباده المستقيمين الصالحين ، وشريعة الله ، فإن في ذلك صلاحه وكما قدمنا فلا يعني إخضاع البشر لسلطان الله إجبارهم على الدخول في دين الله .

والذين ينكرون على رسول الله الجهاد في سبيل الله إما ملحدون : وهؤلاء أصغر من أن يرد عليهم لأن القتل والحراب الذي يحدث على أيديهم بغير حق يندى له جبين الوحوش . فقد قتلت روسيا من رعاياها من أجل إقامة الحكم الشيوعي تسعة عشر مليوناً . وإما أهل دين : كاليهود والنصارى وهؤلاء يناقضون أنفسهم فإن في التوراة التي يؤمن بها جميعهم نصوصاً كثيرة تدل على أن الأنبياء جاهدوا في سبيل الله ، وفي الإنجيل وكتب العهد الجديد ما يدل على أن الأنبياء يحاربون وهذه شواهد .

١ - مذكور في كتاب المشاهدات الباب (١٩) والرسالة الثانية الباب الثاني لأهل تسالونيق وهما كتابان نصرانيان . أن عيسى عليه السلام سيقول الدجال وعسكره بعد نزوله . أي قرب قيام الساعة وهذه عقيدة المسلمين أيضاً .

٢ - وفي سفر التثنية (١٠) وإذا دنوت من قرية لتقاتلها ادعهم أولاً إلى الصلح فإن قبلت وفتحت لك الأبواب فكل الشعب الذي بها يخلص ويكونون

لك عبيداً يعطونك الجزية ، وإن لم ترد تعمل معك عهداً وبدأت بالقتال معك فقاتلها أنت وإذا سلمها الرب الهك بيدك أقتل جميع من بها من جنس الذكر بحد السيف دون النساء والأطفال والدواب وما كان في القرية غيرهم واقسم للمعسكر الغنيمة بأسرها. وكل من سلب أعدائك الذي يعطيك الرب الهك. وهكذا فافعل بكل القرى البعيدة منك جداً . فأما القرى التي تعطى أنت إياها فلا تستحي منها نفساً البتة ولكن أهلكهم هلاكاً كلهم بحد السيف . الحيثي والآموري والكنعاني والفرزي والحوي والبابوسي كما أوصاك الرب الهك .

٣- وفي الباب الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني هكذا (٢٩) فجمع داود الشعب وسار إلى راية فحارب أهلها وفتحها وأخذ تاج ملكهم على رأسه .

والنصوص عندهم في هذه كثيرة تجدها في سفر الخروج الباب الثالث الفقرة (٤٣) وفي الباب الرابع والثلاثين منه (١٠) وفي سفر العدد الباب الثالث والثلاثين وفي سفر صموئيل الأول الباب السابع والعشرون (٨) وفي سفر الملوك الباب الثامن عشر (٢٠) وغيرها وغيرها كثير يقول بولس المقدس عند النصارى في الرسالة العبرانية الباب الحادي عشر فقرة (٣٢) وماذا أقول أيضاً لأنه يعوزني الوقت أن أحدث عن جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداود وصموئيل والأنبياء الذين بالايمان قهروا ممالك صنعوا براً نالوا مواعيد سدوا أفواه أسود اطفئوا النار ، نجوا من حد السيف تقووا من ضعف صاروا أشداء في الحرب هزموا جيوش غرباء .

* * *

واخيراً الجهاد في سبيل الله ثمرة من ثمار النبوة ، وعدم إكراه الناس على الدخول في الإسلام ثمرة أخرى ، وكتاهما تشهد أن محمداً رسول الله ﷺ . وهذه الثمار كلها غيض من فيض وإلا فإن ثمار النبوة كثيرة تعجز الإنسان عن الإحصاء . وحيثما نظرت في الإسلام ذلك الإسلام على أنه دين الله رب العالمين ، وأن محمداً رسول هذا الإله العظيم وأنه المبلغ عنه .

والى الفصل الخامس لئرى حجة أخرى على رسالة رسولنا عليه السلام .

الفصل الخامس البشارات

- ١ -

إن القرآن الكريم ذكر بوضوح وفي أكثر من سورة أن الكتب السماوية السابقة قد بشرت بمحمد ﷺ « وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » .

« ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .
إن ظاهرة عامة كنبوة سيدنا محمد ﷺ للعالمين جميعاً ، ويترتب عليها معاني كثيرة من وحدة للإنسانية وتوحيد دينها . تحتاج إلى مقدمات ومبشرات، توجد استعداداً عاماً عند الناس لها .

- ٢ -

والدارس للنصوص التاريخية التي تتحدث عن فترة ما قبل البعثة وأثناءها يلاحظ ملاحظة هامة . هي أن الناس فعلاً الذين كان لهم صلة بكتاب سماوي

كان واضحاً في أذهانهم أنه سيبعث نبي ، وكانوا يرتقبون ظهوره وإن بعضاً من علمائهم قد أعلن إسلامه بمجرد إجتماعه بهذا النبي ﷺ .

فمن ذلك قصة سلمان الفارسي كما تذكرها روايات كثيرة ، وتنقله من عالم إلى عالم في النصرانية ، حتى دله آخرهم على الترقب لنبي كاد أن يبعث من أرض العرب ، وذلك سبب مجيئه إلى أرض العرب وسكنائه فيها .

ومن ذلك القصة التي يرويها البخاري عن أبي سفيان عندما استدعاه هرقل في بلاد الشام إذ يقول في آخرها هرقل « وقد كنت أعلم أنه خارج نبي ولم أكن اظن أنه منكم » .

ومن ذلك ما ذكرته صفية بنت حيي أم المؤمنين عن أبيها وعمها اليهوديين قالت :

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء ، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر مغلسين ، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين بمشيان الهوينا ، فهششت إليهما فما التفت إلي أحد منهما مع ما بهما من الهم . فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي : أهو هو ؟ أي المبشر به في التوراة قال نعم والله قال : أثبتته وتعرفه قال نعم قال فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبداً » .

ومن ذلك قصة إسلام عبدالله بن سلام :

قال ابن هشام في سيرته قال ابن إسحاق وكان من حديثه كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم وكان حبراً عالماً قال : لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكل له فكنت مسرراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما نزل بقاء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت فقالت لي عمتي حين سمعت تكبري خيبك الله والله لو كنت

سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت. قال فقلت لها: أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به ، قال فقالت : فذاك إذن قال : ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا ...

ومن ذلك قصة النجاشي وموقفه من أصحاب السيد الرسول ﷺ في هجرتهم إليه وقوله بعد نقاش وعرض عندما أوفدت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد لإخراجهم :

.. أشهد أنه رسول الله وأنه المبشر به عيسى في الإنجيل .

وقد اشتهر حديث اليهود للأوس والخزرج عن خروج نبي وكان ذلك من جملة العوامل التي جعلت هذا الاستعداد الكبير عند الأوس والخزرج للإيمان :

فمن ذلك ما جاء عن سلمة بن سلامة رضي الله عنه ، وكان من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بني عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فقالوا له ويحك يا فلان أو ترى هذا كائناً أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ، قال : نعم والذي يحلف به وليود أي شخص أن له يحظه من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً فقالوا له ويحك وما آية ذلك ، قال نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن قالوا ومن يراه فنظر إلي وأنا من أحدثهم سنأ فقال إن يستنفذ أي يستكمل هذا الغلام عمره يدركه ، قال سلمة والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وهو أي ذلك اليهودي بين أظهرنا فآمنا به وكفر بغياً وحسداً فقلنا له ويحك يا فلان أأست الذي قلت لنا فيه ما قلت قال بلى ولكن ليس به .

- ٣ -

وعلى كل حال فإن وجود الكتب الدينية العالمية الآن أصبح كثيراً ، وانتشارها

واسعاً ، ولعل دراسة منصفة تستخرج الكثير مما له علاقة بهذه الحقيقة . هذا مع الاعتقاد بأن هذه الكتب قد حرفت وبدلت ، يشهد على ذلك كل دراسة جيدة لنصوص هذه الكتب ولو اقعها التاريخي ، وينكفي كبرهان عملي على تحريف أحدثها وأقربها إلينا (الإنجيل) ان الإنجيل الواحد أصبح أربعة بينها تعارض أحياناً وبعضها يزيد على بعض أو ينقص وفي سندها التاريخي شك .

وقد قام بهذه الدراسة المنصفة الواسعة الواعية علماء كبار ، جمعوا بين معرفة اللغات ، ومعرفة الديانات ، فتخرج معهم الشيء العجيب الذي لا يدع مجالاً لإنسان يحترم عقله ان يشك بأن هناك بشارات بمحمد النبي العربي قبل ميلاده بمئات السنين ، ونحن هنا ناقلون نماذج من هذه الدراسات ، وسيرى أي منصف أن هؤلاء العلماء ما ظلموا وما حرفوا وما اعتسفوا في فهم النصوص ولا حملوها فوق ما تحتمل . بل فهم هذه النصوص على غير ما ذكروه ، هو الاعتساف والتحريف ، وتحميل النصوص ما لا تحتمل ، وكتمان للشهادة ونأي عن الحق :

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » .

- ٤ -

يقول العقاد :

من هذه الدراسات كتاب باللغة الإنجليزية الفسه « مولانا عبد الحق فديارتي وسماه : محمد في الأسفار الدينية العالمية » واستفاد في مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوروبية ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل بل عمم البحث في كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له في بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها في شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر أننا اطلعنا على شواهد أقوى منها في روايات الحكماء أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية .

يقول الاستاذ عبد الحق : إن اسم الرسول العربي « أحمد » مكتوب بلفظه العربي في السامافيدا من كتب البراهمة وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ، ونصها أن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس . ولا يخفي المؤرخ وجوه الاعتراض التي قد تأتي من جانب المفسرين البرهميين بل ينقل عن أحدهم « سينا أشاريا » أنه وقف عند كلمة أحمد فالتمس لها معنى هنديا وركب منها ثلاثة مقاطع وهي « أهم » و « آت » و « هي » وحاول أن يجعلها تفيد « اني وحدي تلقيت الحكمة من أبي » قال الاستاذ عبد الحق ما فحواه . إن العبارة منسوبة إلى البرهمي « فاتزاكانفا » من أسرة كانفا ولا يصدق عليه القول بأنه وحده تلقى الحكمة من أبيه .

وفي مواضع كثيرة يرى المؤلف أن النبي محمد ﷺ مذكور بوصفه الذي يعني الحمد الكثير والسمعة البعيدة ومن أسمائه الوصفية إسم سشرافا الذي ورد في كتاب الآثار فافيدا .

وكذلك صنع بكتب زرادشت التي اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زندافستا نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشيانت » ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة « ابا لوب » ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفؤاً أحد وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة .

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الإسلام : احد صمد ليس كمثل شيء لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا .

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزردشتية ، تنبيء عن دعوة الحق التي يجيء بها النبي الموعود ، وفيها إشارة إلى البادية العربية ، وترجم نبذة

منها إلى اللغة الإنكليزية معناها بغير تصرف « إن أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون ، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم اتباعه فارس ، ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في هياكلهم ، يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي ت ظهرت من الأصنام ويؤمئذ يصبحون وهم اتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم وان نبههم ليكون فصيحاً يتحدث بالمعجزات » .

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الآسيوية الكبرى إلى فقرات من كتب العهد القديم ، والعهد الجديد ، فقال : إن النبي عليه السلام هو المقصود بما جاء في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلاً من جبل فاران وأتى من ربوات القدس ومن يمينه نار شريعة لهم) . وجاء بالنص العبري كما يلي : (ويومر يهووه مسيناتي به وزارح مسعير لامو هو فيع مهرباران وأتامر يبوث قودش حيميغو أيش داف لامو) .

فترجمه هذا « ان الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه نار شريعة لهم » .

وقال ان الشواهد القديمة جميعاً تنبئ عن وجود فاران في مكة وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسيبوس : إن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من أيلة .

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التي صدرت في سنة ١٨٥١ (أن إسماعيل سكن برية فاران بالحجاز وأخذت له امه امرأة من ارض مصر) ثم قال إن سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران إذ جاء فيه (أن بني إسرائيل ارتحلوا من برية سيناء ، فحلت السحابة في برية فاران) ولم يسكن أبناء إسماعيل قط في غرب سيناء فيقال أن جبل فاران واقع إلى غربها . ولم يحدث قط أن نبياً سار بقيادته عشرة آلاف قديس غير النبي محمد عليه السلام ، وقوديش

ترجم بقايس في رأي المؤلف الذي يناقش ترجمتها بالملائكة في الترجمات الأخيرة .

كذلك لم يحدث قط أن نبيا غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم فقول موسى الكليم : إن نبياً مثلي سيقم لكم الرب إلهكم من إخوتكم أبناء إبراهيم ؛ يصدق على النبي العربي صاحب الشريعة ولا يصدق على نبي من أبناء إبراهيم تقدمه في الزمن . ١ هـ (نقل هذا المقطع من كتاب العقاد : مطلع النور - باختصار بعض جملة) .

- ٥ -

ومن هذه الكتب التي قام أصحابها بدراسة النصوص الحالية للكتب الدينية اليهودية والنصرانية : كتاب اسمه « إظهار الحق » لـ « رحمسة الله بن خليل الهندي » ولعل هذا الكتاب اعظم دراسة نقدية لنصوص الديانتين اليهودية والنصرانية وأدق نقد لاعتراضات أتباع هاتين الديانتين على الديانة الإسلامية ، بحيث يرى أي دارس منصف للكتاب أن يهود اليوم ونصارى اليوم والسابقين لهم إلى فترات طويلة من الزمان ، ليسوا على شيء وان الإسلام وحده هو الذي يصح أن يسمى ديناً ، فهو وحده دين الله الحق في هذا الزمان . ولأهمية الكتاب نعرض صورة مختصرة له هنا ؛ ثم نأخذ منه ما له علاقة في بحثنا من نصوص لا زالت موجودة رغم التحريف والتبديل تبشر بنبوته محمد ﷺ .

وقارئ الكتاب يحس إحساساً يقينياً أن المؤلف متمكن من كتب العهدين القديم والجديد تمكناً تاماً ، فكأنه قرأهما عشرات المرات واطلع على كل ما كتبه أهلها من تفاسير أو شروح أو تعليقات عليهما . وكتب كتابه بعد ذلك ، وسبب تأليف الكتاب أن المبشرين النصارى أخذوا يهاجمون الإسلام مهاجمات عنيفة في الهند أثناء الاحتلال البريطاني ، وركزوا هجومهم حول خمس نقاط فتصدى لهم كثير من علماء المسلمين ، وكان من آثار هذا التصدي أن عقدت مناظرة بين أكثر المبشرين سلاطة لسان وبين مؤلف الكتاب حضرها أكبر

رجالاً الهنـد . كان من نتائجها أن انسحب القس المبشر بعد أن قامت عليه
الحجة ولما يتم النقاش في المسائل المقرر نقاشها .

والكتاب يناقش المسائل الخمس التي أثارها المبشرون النصارى وهاجموا بها
الإسلام وهي :

١ - إن دعوى القرآن بأن في التوراة والإنجيل تحريفاً وأن اليهود والنصارى
حرفوا الكلم عن مواضعه دعوى باطلة .

٢ - إن بعض آيات القرآن منسوخة وأن النسخ دليل على أن القرآن ليس
من عند الله لأن أحكامه بهذا قابلة للتبديل والتعديل .

٣ - إن الله ثلاثة الآب والإبن وروح القدس والإسلام يدين بوحدانية الله
ومحاولتهم البرهنة على عقيدة التثليث ومن ثم التهجم على عقيدة التوحيد .

٤ - إن القرآن كلام محمد ﷺ وليس كلام الله المنزل وتشكيكهم في
طريقة جمعه وتواتره .

٥ - إنكارهم نبوة محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء .
والكتاب ناقش هذه المسائل الخمس مناقشة دقيقة مستفيضة كل مسألة في
باب وزاد باباً سادساً تناول فيه العهدين القديم والجديد مع مقدمة وبحث في
كل منها ما يلي :

أ - المقدمة وتشمل ثمانى ملاحظات عامة بين يدي الكتاب يذكر في بعضها مراجع
الكتاب وطبعات المراجع وسنة طبعها وأين طبعت ، ويذكر بعض عادات
المبشرين في بعضها ويعتذر في بعضها عن بعض ألفاظ يستعملها ويبين أنهم
يستعملون أشد منها مئات المرات ...

ب - الباب الأول : تناول فيه الكلام على العهدين العتيق والجديد كل باب
من أبوابهما ، واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم على تبيان المطعون فيه من
الأبواب والآيات ، وبين بالحجج الدامغة أنه لا يوجد لدى علمائهم في كلتا

الديانتين سند متصل لأي كتاب من كتب العهدين ثم تناول بعد ذلك ما في كتب العهدين من الاختلاف والأغلاط ، وبين أن ادعاءهم بأن هذه الكتب الموجودة بين أيديهم إلهامية ، إدعاء باطل ، وساق برهاناً على هذا البطلان سبعة عشر وجهاً لكثرة ما بها من أغلاط وتحريف واختلافات عجز مفسروهم عن التوفيق بينها ، ثم إن الكاثوليك والبروتستانت يختلفون في الاعتراف ببعض هذه الكتب ، فما يعترف به الكاثوليك ينكره البروتستانت والعكس بالعكس .

ج - الباب الثاني : أثبت فيه وجود التحريف في كتب العهدين القديم والجديد مصداقاً لقوله تعالى « يحرفون الكلم عن مواضعه » وأثبت أن بعض هذا التحريف كان عن عمد ، وكان يأتي هذا التحريف أحياناً بالزيادة وأحياناً بالنقصان ، وأحياناً بالتبديل اللفظي ، وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهداً كما ساق على التبديل اللفظي خمسة وثلاثين شاهداً ، واكتفى بهذا القدر مخافة الإطالة ، أما التحريف بالنقص فقد ساق عليه عشرين شاهداً ، كما أورد عدة مغالطات للمبشرين النصارى فندها ببراهين ساطعة ، ثم نقل على سبيل الاستدلال أقوال النصارى الثقات عندهم من المفسرين والمؤرخين ليزيد حججه نصاعة وقوة ، وبلغت هذه الاستدلالات من أقوالهم الثلاثين قولاً مما يدل على سعة إطلاع وتبع حريص لإقامة الحجة عليهم من كتبهم وبلسان علمائهم ، وفي ختام هذا الباب أورد أموراً يزول بها استبعاد وقوع التحريف في كتبهم بل تثبت وقوع التحريف .

د - الباب الثالث : أثبت فيه بالأدلة القاطعة نسخ بعض الأحكام في الشريعتين الموسوية والمسيحية بعد أن بين ما هية النسخ ، ثم برهن على أن الأحكام العملية للتوراة نسختها شريعة عيسى ، وأن لفظ النسخ موجود في كلام قديسيهم ، إلى غير ذلك من الأمور الهامة ، مبيناً أكاذيبهم في اختصاص الشريعة الإسلامية بالنسخ ، مبرهنناً على أن النسخ في اصطلاح الشريعة الإسلامية موجود مثله عند اليهود والنصارى .

هـ - الباب الرابع : في إبطال التثليث .
وهذا الباب ينقسم إلى مقدمة وثلاثة فصول .

١ - المقدمة وهي كمدخل إلى الفصول الثلاثة يذكر فيها اثنتي عشرة قضية ،
ككون التوراة مصرحاً فيها بتحريم عبادة غير الله وكتصريح العهد الجديد والقديم
بأن الله ليس كمثل شيء ، وان النصوص المتشابهة محمولة على هذا التنزيه ..

٢ - الفصل الأول في إبطال التثليث بالبراهين العقلية ، ويأتي على ذلك
بسبعة براهين كلها دامغة في استحالة التثليث من الناحية العقلية .

٣ - الفصل الثاني في إبطال التثليث بأقوال المسيح ، ويأتي فيه باثني عشر
قولاً عن السيد المسيح من الإنجيل الحالي ، كلها تثبت ان المسيح دعا إلى التوحيد
الحالص وأنه رسول فقط وكمثال :

أ - من انجيل يوحنا لإصحاح سابع جملة (٣) وهذه هي الحياة الأبدية أن
يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته .

ب - في الباب التاسع عشر من إنجيل متى هكذا .. (١٦) وإذا واحد تقدم
وقال له أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية (١٧) فقال
له : لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله .

٤ - الفصل الثالث في مناقشة النصوص الإنجيلية التي يتمسك بها المثلثون
وإثبات أن فهمهم لها خاطيء هذا على فرض ثبوتها ومن المؤكد تاريخياً بطلان
بعضها .

فمثلاً يعتمدون على إطلاق كلمة ابن الله في الإنجيل على مرادهم مع أن
الإنجيل نفسه يطلقها على كل صالح « طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله
يدعون » « إنجيل متى باب خامس (٤٤) » « وصلوا لأجل الذين يسبونكم
لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات » (٤٥) نفس المصدر « لو كان
الله أباكم لكنتم تحبونني » يوحنا باب ٨ - ٤٢ .

وهكذا يثبت أن كل نص حملوه على التثليث قد استعمله المسيح على غير ما فهموه في خطاب الناس حتى لا يبقى مجال لمتشكك .

و - الباب الخامس : أثبت فيه أن القرآن من عند الله باثني عشر وجهاً ، وكل وجه كاف لإقامة الحجة ، وناقش الشبهات التي يذكرها بعض المبشرين ، وتحدث بعد ذلك عن السنة وثبوتها ، وبرهن على وجود الروايات اللسانية عند اليهود والنصارى التي سجلت متأخرة مع ملاحظة جواز الكذب عليهم لأنهم يرون الكذب جائزاً في موضوع النقل إذا كان لصالح الشريعة . أما المسلمون فعلى عكس هذا تماماً ، والدارس لموضوع السنة يرى أن أدق نقد في العالم عرف أو سيعرف هو نقد علماء السنة للوصول إلى الحديث الصحيح .

ز - الباب السادس : أثبت فيه نبوة سيدنا محمد ﷺ ودفع فيه كل مطعن توهمه هؤلاء القسوس الذين هاجموا الاسلام أو ادعوا أنهم توهموه وقسم الباب إلى فصلين :

الفصل الأول : في إثبات النبوة وسلك فيه ستة سبل ، كل سبيل يؤدي إلى إقامة الحجة بأن محمداً ﷺ رسول الله .

١ - معجزاته . ٢ - أخلاقه . ٣ - كمال شريعته . ٤ - إنتصاره . ٥ - حاجة الناس اليه وإلى شريعته . ٦ - تبشير الأنبياء السابقين عليه عن نبوته عليه السلام .

الفصل الثاني : في دفع المطاعن التي يتوهمها المبشرون منافية لدعوى النبوة وهم يفعلون هذا مدعين أنهم مؤمنون بنصوص العهد القديم والجديد ، وأنبياء العهدين ولما كانوا مؤمنين بنصوص العهدين القديم والجديد فإنه يذكر المطاعن التي وجهوها إلى السيد الرسول ﷺ . ويثبت أن رسل العهدين قد فعلوا مثلها أو أشد منها؛ وأكثر من هذا يثبت أن بيتهم كله من زجاج ، وأن ما يذكرونه في العهدين في حق الرسل لا يليق بالمؤمنين العاديين فضلاً عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم المبرئين عندنا من كل مازمة .

ويبدأ الفصل في ذكر تصوراتهم الفاسدة في نصوصهم المحرفة عن الرسل ، وما يتكلمون في حقهم من الكلام القبيح ، كنسبة الزنا اليهم والمعاصي ، ويأتي هنا بما لا يستطيع أحد أن يهضمه مما يجعل مقام الرسل وحاشاهم عرضة لسخرية الساخرين ؛ فإذا كان هذا مفهومهم الفاسد عن الرسل فبأي شيء يعترضون على محمد ﷺ ولم يقع في أدنى ما ذكروه عن رسلهم كذبا .

ثم يذكر المطاعن ويرد عليها واحداً واحداً :

المطعن الاول : في عملية الجهاد الإسلامي وكيف أنهم يرون أن ذلك متناف مع مقام الرسالة ، ويذكر للرد على هذا الطعن خمسة أمور ١ - حول استحقاق الكافرين العقاب من الله لهم في الدنيا والآخرة ، ويذكر ذلك عن كتبهم . ٢ - إن الأنبياء السابقين الذين ورد ذكرهم في العهد القديم قاتلوا الكفار وسبوا نساءهم وذرايرهم ، ويأتي كدليل على ذلك بعشرات الشواهد من العهد القديم المعترف عليه عندهم . ٣ - أن الجهاد في الإسلام أرحم بما لا يقاس بما يذكرونه في كتبهم عن عمليات القتال السابقة . ٤ - إن عملية الجهاد عندنا لا تعني الإكراه على الدخول في الإسلام ولكن تاريخهم هم وخاصة النصاري مليء بجرائم الإغارة على عقائد البشر وإكراههم ، ويذكر من ذلك أمثلة تقشع منها جلود الإنسان . محاكم تفتيشهم ، مذابحهم الفظيعة ؛ طريقتهم القدرة في الحرب ، وطريقتنا الرحيمة . إن التاريخ كله ضدهم وكله معنا . ٥ - يتحدث عن الجهاد في الشريعة الإسلامية .

المطعن الثاني : إن محمداً لم تظهر على يده معجزة فلذلك هو ليس نبياً ، ويرد على هذا أولاً : يثبت من كتبهم أنه ليس مشروطاً عندهم وجود المعجزة للنبي فحتى على صحة دعواهم فليس هذا مطعناً بالنسبة لعقيدتهم ، ولكن الحقيقة غير ذلك فإن معجزات محمد ﷺ أكثر من معجزات أي رسول ويثبت هذا .

المطعن الثالث : موضوع زواجه ﷺ بكثيرات وخاصة بزيتب وتحريم زواج زوجاته بعد وفاته ويرد على هذا الكلام بشماتية مقاطع :

١ - ان الأنبياء الذين يعترفون على نبوتهم في الكتب المعتمدة عندهم تزوجوا أكثر من عدد زوجات الرسول ﷺ بكثير فما أحله الله لرسوله حلال وما حرم حرام .

٢ - ان قصة زواجه بزینب كما يوردونها باطلة لا أساس لها ، وقد ذكرت في القرآن ، والسنة الصحيحة على خلاف ما أوردوه ونقلوه .

٣ - ان التحريم والتحليل بيد الله ، ولذلك نجد شيئاً تقصه كتب العهدین فعله أنبياء سابقون وحرمة أنبياء لاحقون ، وإذ ثبت أن القرآن وحي من الله فما أحله حلال وما حرمه حرام . ورسول الله لم يفعل ما حرمه الله .

٤ - إن هؤلاء يطعنون بمحمد ﷺ وما خالف الله أمراً مما ذكر في القرآن وينسبون أن كتبهم تذكر عن رسلم كذباً أنهم خالفوا الوحي الذي نزل عليهم .

٥ - يذكر في هذا المقطع أموراً فظيعة مذكورة في كتبهم تخرج مقام عيسى وحوارييه وحاشاهم من كلام هؤلاء الأتباع المارقين وكذلك مما حدث في تاريخ كنائسهم من الإثم والزنى والفجور مما لا يطيق أحد أن يسمعه أفيطعنون بعد ذلك بنا وبماذا ؟ ونحن أظهر أهل الأرض ذيلاً .

٦ - خطئهم في فهم بعض الآيات القرآنية .

٧ - إذا صدر للنبي أمر ولم يفعله يكون عاصياً ، أما إذا فعل شيئاً مباحاً له في الأصل فلا حرج فإذا ما أطاع الرسول الله فلا مأخذ عليه .

٨ - يذكرون في كتبهم أن هوشع النبي أمره الله أن يتزوج زانية وأن يتعشق بامرأة فاسقة محبوبة لزوجها (وحاشاه) وأمثال هذا كثير في كتبهم ويذكر بعضاً منه فكيف ينكرون على محمد ﷺ زواجه بزینب بعد طلاقها من زوجها وانتهاء عدتها بأمر الله ؛ ويذكر في ذلك أن كتبهم تذكر أن الله خص بعض أنبيائه بأمور خصوا بها عن غيرهم ، تجوز لهم ولا تجوز لغيرهم ، ومحمد

رسول الله . فإذا خص بحكم فأي وجه للظمن عليه مع ملاحظة تفرد به بكل كمال مما لا تتناول إليه أعناق الرجال .

المطعن الرابع : يدعون فيه أن محمداً أذنب والمذنب لا يكون رسولا ويرد على كلامهم بخمسة مقاطع يثبت فيها عصمة الرسول ﷺ عن الذنب وأنه لم يرتكب ذنباً قط .

وبذلك ينتهي الكتاب والكتاب ؛ في الحقيقة أنفس كتاب في علمنا . ناقش الديانة النصرانية واليهودية نقاشاً دقيقاً في النصوص والمضمون معتمداً على كلام علمائهم نفسه ؛ وفي تصورنا أن أي منصف من أتباع الديانتين يطلع على الكتاب كله مضطر لنبد دينه والدخول في الإسلام .

ونبدأ الآن بنقل الجزء المتعلق بالبشارات من الفصل الأول من الباب السادس لأنه هو المقصود هنا ، مع ملاحظة أننا حذفنا بعض مقاطع من فقراته لم نجد ضرورة لنقلها والمكان الذي تم فيه حذف نشير إليه بثلاث نقط وكل ما ذكره هنا هو كلامه بنصه :

قال في المسلك السادس من مسالكه لإثبات نبوة محمد عليه السلام تحت عنوان : اخبار الانبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام ما يلي :

ولما كان القسيسون يغلطون العوام في هذا الباب تغليطاً عظيماً استحسنت أن أقدم على نقل تلك الاخبار أموراً ثمانية تفيد للناظر بصيرة (الأمر الأول) إن الأنبياء الاسرائيليين مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليه السلام ، اخبروا عن الحوادث الآتية كحادثة بختنصر وقورش وإسكندر وخلفائه ، وحوادث أرض آدوم ومصر ونيوى وبابل ، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد الذي كان وقت ظهوره ، كأصغر البقول ، ثم صار شجرة عظيمة تتأوى طيور السماء في أغصانها ، فكسر الجبابرة والأكاسرة ، بلغ دينه شرقاً وغرباً ، وغلب الأديان وامتد دهره بحيث مضى على ظهوره مودة الف ومائتين وثمانين إلى هذا الحين ، ويمتد إن شاء الله إلى آخر بقاء الدنيا ،

وظهر في أمته ألوف ألوف من العلماء الربانيين ، والحكماء المتقين ، والأولياء ذوي الكرامات والمجاهدات والسلطين العظام، وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث ، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونيوى وغيرهما . فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الإخبار عن الحادثة العظيمة .

(الأمر الثاني) أن النبي المقدم إذا أخبر عن النبي المتأخر لا يشترط في إخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية في السنة الفلانية في البلد الفلاني ، وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الإخبار في غالب الأوقات مجملاً عند العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جلياً بواسطة القرائن ، وقد يبقى خفياً عليهم أيضاً لا يعرفون مصداقه إلا بعد ادعاء النبي اللاحق أن النبي المتقدم أخبر عني ، وظهور صدق ادعائه بالمعجزات وعلامات النبوة ، وبعد الادعاء وظهور صدقه يصير جلياً عندهم بلا ريب ، ولذلك يعاتبون ، كما عاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله (ويل لكم ايها الناموسيون لانكم أخذتم مفتاح المعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منتموهم) كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من انجيل لوقا .

(الأمر الثالث) : ادعاء ان اهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبياً آخر غير المسيح وإيلياء إدعاء باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرهم أيضاً لما علمت في الامر الثاني ان علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام اولاً : أنت المسيح ولما انكر سألوه أنت إيلياء ولما انكر سألوه أنت النبي أي النبي المعهود الذي أخبر به موسى فعلم أن هذا النبي كان منتظراً مثل المسيح وإيلياء وكان مشهوراً بحيث ما كان محتاجاً إلى ذكر الاسم، بل الإشارة اليه كانت كافية. وفي الباب السابع من انجيل يوحنا بعد نقل قول عيسى عليه السلام هكذا ٤٠ ؟ فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبي (٤١) (وآخرون قالوا هذا هو المسيح) وظهر من هذا الكلام ايضاً أن

التي المعهود عندهم كان غير المسيح ولذلك قابلوا المسيح .
(الأمر الرابع) : ادعاء ان المسيح خاتم النبيين ولا نبي بعده باطل لما عرفت في الامر الثالث أنهم كانوا منتظرين للنبي المعهود الآخر الذي يكون غير المسيح وايلياء عليهم السلام ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهو بعده . وقد يتمسكون لاثبات هذا الادعاء بقول المسيح المنقول في الآية الخامسة عشر من الباب السابع من انجيل متى هكذا (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة) والتمسك به عجيب لأن المسيح عليه السلام أمر بالاجترار من الأنبياء الكذبة لا الأنبياء الصديقة ايضاً ولذلك قيد بالكذبة. نعم لو قال احترزوا من كل نبي يجيء بعدي لكان بحسب الظاهر وجه للتمسك .. فمقصود المسيح عليه السلام التحذير من هؤلاء الانبياء الكذبة والمدحاء الكذبة لا من الانبياء الصادقين ايضاً ولذلك قال بعد القول المذكور في الباب السابع (من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً) ومحمد صلى الله عليه وسلم من الأنبياء الصادقين كما يدل عليه ثماره على ما عرفت في المسالك المتقدمة .

(الأمر الخامس) : الإخبارات التي نقلها المسيحيون في حق عيسى عليه السلام لا تصدق عليه على تفاسير اليهود وتأويلاتهم ، ولذلك هم ينكرونه أشد الإنكار والعلماء المسيحية لا يلتفتون في هذا الباب إلى تفاسيرهم وتأويلاتهم ويفسرونها ويؤولونها بحيث تصدق في زعمهم على عيسى عليه السلام . قال صاحب ميزان الحق في الفصل الثالث من الباب الأول في الصفحة ٤٦ من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٤٩ (المعلمون القدماء من الملة المسيحية ادعوا هذه الدعوى الصحيحة فقط : إن اليهود أولوا الآيات التي كانت إشارة إلى يسوع المسيح بتأويلات غير صحيحة وغير لاثقة وبينوها خلاف الواقع) انتهى . وقوله ادعوا هذه الدعوة الصحيحة فقط غلط يقيناً ، لأن المعلمين القدماء كما ادعوا هذه الدعوى ادعوا أن اليهود حرفوا الكتب تحريفاً لفظياً كما عرفت في الباب الثاني . لكنني أقطع النظر عن هذا وأقول : كما أن تأويلات اليهود في الآيات

المذكورة مردودة غير صحيحة وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات
المسيحيين في الإخبارات التي هي في حق محمد ﷺ مردودة غير
مقبولة عندنا . وسترى أن الاخبارات التي نقلها في حق محمد صلى الله عليه
وسلم أظهر صدقاً من الإخبارات التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى عليه
السلام . فلا بأس علينا إن لم نلتفت إلى تأويلاتهم الفاسدة . وكما أن اليهود ادعوا
في حق بعض الإخبارات التي هي في حق عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين
أنها في حق مسيحهم المنتظر أو في حق غيره أو ليست في حق أحد ، والمسيحيون
يدعون أنها في حق عيسى عليه السلام ولا يبالون بمخالفتهم . فهكذا نحن لا
نبالي بمخالفة المسيحيين في حق بعض الإخبارات التي هي في حق محمد صلى الله
عليه وسلم ولو قالوا إنها في حق عيسى عليه السلام . وسترى أيضاً أن صدقها
في حق محمد صلى الله عليه وسلم أليق من صدقها في حق عيسى عليه السلام
فإدعائنا أحق من ادعائهم ...

(الأمر السادس): أن أهل الكتاب سلفاً وخلفاً عاداتهم جارية بأنهم يترجمون
غالباً الاسماء في تراجمهم ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ
للفساد وأنهم يزيدون تارة شيئاً بطريق التفسير في الكلام الذي هو كلام الله
في زعمهم ، ولا يشيرون إلى الامتياز ، وهذان الأمران بمنزلة الأمور العادية
عندهم ومن تأمل في تراجمهم المتداولة باللسنة مختلفة وجد شواهد تلك الامور
الكثيرة .

* * *

وإذا عرفت هذه الأمور الستة أقول : إن الإخبارات الواقعة في حق محمد
صلى الله عليه وسلم توجد كثيرة إلى الآن أيضاً ، مع وقوع التحريفات في هذه
الكتب ومن عرف أولاً طريق إخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر على ما عرف
في الأمر الثاني جزم بأن الإخبارات المحمدية في غاية القوة . وأنقل في هذا
المسلك عن الكتب المعتبرة عند علماء بروتستنت تماني عشرة بشارة (١)

(١) بعض البشارات آثرنا عدم نقلها لصعوبة ادراك مضمونها إلا بتأمل طويل.

البشارة الأولى : (في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء هكذا ١٧) فقال الرب لي نعم جميع ما قالوا ١٨ . وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء أمره به ١٩ - ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من ذلك ٢٠ - فأما النبي الذي يجترىء بالكبرياء ويتكلم في إسمي ما لم أمره به بأن يقوله ام باسم آلهة غيري فليقتل ٢١ - فان احببت وقلت في قلبك كيف استطيع أن اميز الكلام الذي لم يتكلم به الرب فهذه تكون لك آية ؛ ان ما قاله ذلك النبي في إسم الرب ولم يحدث فالرب ما تكلم به بل ذلك النبي صورته في تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه) . وهذه البشارة ليست بشارة يوشع عليه السلام كما يزعم الآن أحبار اليهود ولا بشارة عيسى عليه السلام كما زعم علماء بروتستانت بل هي بشارة محمد صلى الله عليه وسلم لعشرة أوجه . (الوجه الأول) : قد عرفت في الأمر الثالث أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبياً آخر مبشراً به في هذا الباب وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى عليهما السلام . (والوجه الثاني) : أنه وقع في هذه البشارة لفظ مثلك ويوشع وعيسى عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى أما أولاً فلأنهما من بني إسرائيل ولا يجوز أن يقوم أحد من بني إسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء وهي هكذا . (ولم يقم بعد ذلك في بني إسرائيل مثل موسى يوفه الرب وجهاً لوجه) فان قام أحد مثل موسى بعده من بني إسرائيل يلزم تكذيب هذا القول ..

(الوجه الثالث) انه وقع في هذه البشارة لفظ من بين إخوتهم ولا شك أن الأسباط الاثني عشر كانوا موجودين في ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده فلو كان المقصود كون النبي المبشر به منهم قال منهم لا من بين إخوتهم ، لأن الاستعمال الحقيقي لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة اصلية والبطنية ببني إسرائيل ؛ كما جاء لفظ الاخوة بهذا الاستعمال الحقيقي في وعد الله هاجر في حق إسماعيل عليه السلام في الآية الثانية عشر من الباب السادس عشر من سفر التكوين وعبارتها في الترجمة العربية .

المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (وقبالة بجميع اخوته ينصب المضارب) وفي الترجمة العربية .

المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (بحضرة جميع إخوته يسكن) وجاء بهذا الاستعمال أيضاً في الآية الثامنة عشر من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين في حق إسماعيل في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (منتهى إخوته جميعهم سكن) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (أقام بحضرة جميع أخوته) والمراد بالاخوة ههنا بنو عيسو وإسحق وغيرهم من أبناء ابراهيم عليه السلام . وفي الباب الثاني من سفر الاستثناء هكذا ، (وقال لي الرب : ثم أوصي الشعب أنكم ستجوزون في تخوم إخوتكم بني عيسو الذين في ساعير وسيخشونكم فلما جزنا اخوتنا بني عيسو الذين يسكنون ساعير الخ) والمراد باخوة بني اسرائيل بنو عيسو ولا شك ان استعمال لفظ اخوة بني اسرائيل في بعضهم مفهم كما جاء في بعض المواضع من التوراة استعمال مجازي ولا تترك الحقيقة ولا يصار إلى المجاز ما لم يمنع عن الحمل على المعنى الحقيقي مانع قوي . ويوشع وعيسى عليهما السلام كانا من بني اسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما .

(الوجه الرابع) : انه وقع في هذه البشارة لفظ «سوف أقيم» ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى عليه السلام داخلاً في بني اسرائيل نبياً في هذا الوقت فكيف يصدق عليه هذا اللفظ .

(الوجه الخامس) : انه وقع في هذه البشارة لفظ (أجعل كلامي في فمه) وهو إشارة إلى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب وإلى أنه يكون أمياً حافظاً للكلام وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لانتفاء كلا الأمرين فيه .

(الوجه السادس) : انه وقع في هذه البشارة (ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به فأنا أكون المنتقم من ذلك) فهذا الأمر لما ذكر لتعظيم هذا النبي المبشر به فلا بد أن يمتاز ذلك المبشر به بهذا الأمر عن غيره من الأنبياء فلا يجوز أن يراد

بالانتقام من المنكر العذاب الاخروي الكائن في جهنم او المحن والعقوبات الدنيوية التي تلحق المنكرين من الغيب لأن هذا الانتقام لا يختص بانكار نبي بل يعم الجميع فحينئذ يراد بالانتقام الإنتقام التشريعي فظهر منه أن هذا النبي يكون مأموراً من جانب الله بالانتقام من منكره فلا يصدق على عيسى عليه السلام لأن شريعته خالية عن أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد .

(الوجه السابع) : في الباب الثالث من كتاب الأعمال في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هـ كذا : ١٩ (فتوبوا وارجعوا كي تمحي خطاياكم . ٢٠ - حتى إذا تأتي أزمئة الراحة من قدام وجه الرب ويرسل المنادي به لكم وهو يسوع المسيح ٢١ - الذي اياه ينبغي للسماء ان تقبله إلى الزمان الذي يسترد فيه كل شيء تكلم به الله على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر - ٢٢ ان موسى قال ان الرب إلهكم يقيم لكم نبياً من اخوتكم مثلي له تسمعون في كل ما يكلمكم به - ٢٣ - ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبي تهلك من الشعب) .
فهذه العبارة سيما بحسب التراجم الفارسية تدل صراحة على أن هذا النبي غير المسيح عليه السلام وان المسيح لا بد ان تقبله السماء إلى زمان ظهور هذا النبي ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين وتأمل في عبارة بطرس ظهر له ان هذا القول من بطرس يكفي لإبطال إدعاء علماء بروتستنت . إن هذه البشارة في حق عيسى عليه السلام وهذه الوجوه السبعة التي ذكرتها تصدق في حق محمد صلى الله عليه وسلم على اكمل وجه لأنه غير المسيح عليه السلام وبماثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة - ١ - كونه عبد الله ورسوله - ٣ - كونه ذا نكاح واولاد - ٤ - كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية - ٥ - كونه مأموراً بالجهاد - ٦ - اشتراط الطهارة وقت العبادة في شريعته - ٧ - وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء في شريعته - ٨ - اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز - ٩ - حرمة غير المذبوح وقرابين الاوثان - ١٠ - كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية - ١١ - امره بحد الزنا - ١٢ - تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص - ١٣ - كونه قادراً على

اجرائها - ١٤ - تحريم الربا - ١٥ - امره بانكار من يدعو الى غير الله -
١٦ - امره بالتوحيد الخالص - ١٧ - امره الامة بأن يقولوا له عبد الله
ورسوله لا ابن الله او الله والعباد بالله - ١٨ - موته على الفراش - ١٩ - كونه
مدفوناً كموسى - ٢٠ - وعدم كونه ملعوناً لأجل أمته . وهكذا أمور أخر
تظهر إذا تؤمل في شريعتهما ولذلك قال الله تعالى في كلامه المجيد « إنا أرسلنا
إليكُم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا » وكان من اخوة
نبي إسرائيل لأنه من نبي إسمعيل وانزل عليه الكتاب وكان امياً جعل كلام
الله في فمه وكان ينطق بالوحي كما قال الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى إن
هو إلا وحي يوحى » وكان مأموراً بالجهاد وقد انتقم الله لأجله من صناديد
قريش والأكاسرة والقياصرة وغيرهم وظهر قبل نزول المسيح ...

(الوجه الثامن) : انه صرح في هذه البشارة بأن النبي الذي ينسب الى الله
ما لم يأمره يقتل ، فلو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم نبياً حقاً لكان يقتل ، وقد قال
الله في القرآن المجيد أيضاً « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين
ثم لقطعنا منه الوتين » وما قتل بل قال الله في حقه « والله يعصمك من الناس » .

(الوجه التاسع) : ان الله بين علامة النبي الكاذب ان إخباره عن الغيب
المستقبل لا يخرج صادقاً . ومحمد صلى الله عليه وسلم اخبر عن الأمور الكثيرة
المستقبل كما علمت . . وظهر صدقه فيها ، فيكون نبياً صادقاً لا
كاذباً .

(الوجه العاشر) : إن علماء اليهود سلموا كونه مبشراً به في التوراة ولكن
بعضهم اسلم وبعضهم بقي في الكفر ...

البشارة الثانية : الآية الحادية والعشرون من الباب الثاني والثلاثين من
سفر الاستثناء هكذا : هم أغاروني بغير إله واغضبوني بمعبوداتهم الباطلة وأنا

أيضاً أغبرهم بغير شعب ؛ وبشعب جاهل اغضبهم، والمراد بشعب جاهل العرب، لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر الجارية ، فمقصود الآية انه بني اسرائيل اغاروني بعبادة المعبودات الباطلة فاغبرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرين وجاهلون فأوفى بما وعد، فبعث من العرب النبي صلى الله عليه وسلم فهداهم إلى الصراط المستقيم كما قال الله تعالى في سورة الجمعة « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولس في الباب العاشر من الرسالة الرومية لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلثمائة سنة كانوا فائقين على أهل العالم كلهم في العلوم والفنون، وكان جميع الحكماء المشهورين مثل سقراط وبقرات وفيثاغورس وافلاطون وارسطاطاليس وأرشميدس وبليناس وإقليدس وجالينوس وغيرهم الذين كانوا أئمة الرياضيات والطبيعات وفروعها قبل عيسى عليه السلام، وكان اليونانيون في عهده على غاية درجة الكمال في فنونهم وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها وسائر كتب العهد العتيق أيضاً بواسطة ترجمة سبتوجنت التي ظهرت باللسان اليوناني قبل المسيح بمقدار مائتين وست وثمانين سنة، لكنهم ما كانوا معتقدين للملة الموسوية وكانوا متفحصين عن الأشياء الحكمية الحديدية ..

البشارة الثالثة : في الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هـ كذا (وقال جاء الرب من سيناء واشرق لنا من ساعير واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار) فمجيئه من سيناء اعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام، واشراقه من ساعير اعطاؤه الانجيل لعيسى عليه السلام، واستعلائه من جبل فاران انزاله القرآن لأن فاران جبل من جبال مكة ، في الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال

اسماعيل عليه السلام هكذا - ٢٠ - (وكان الله معه ونما وسكن في البرية وصار شابا يرمي بالسهم - ٢١ - وسكن بركة فاران) ولا شك أن اسماعيل عليه السلام كانت سكoonته بمكة ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضا فانتشرت في هذه المواضع لأن الله لو خلق نارا في موضع لا يقال جاء الله من ذلك الموضع إلا إذا أتبع تلك الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك وقد اعترفوا أن الوحي أتبع تلك في طور سيناء فكذا لا بد أن يكون في ساعير وفاران .

البشارة الرابعة : في الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله في حق اسماعيل عليه السلام لابراهيم عليه السلام في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (وعلى اسماعيل استجيب لك هوذا أباركه واكبره واكثره جدا فسيلد اثني عشر رئيسا واجعله لشعب كبير) . وقوله اجعله لشعب كبير يشير الى محمد صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن في ولد اسماعيل من كان لشعب كبير غيره ؛ وقد قال الله تعالى ناقلا دعاء ابراهيم واسماعيل في حقه عليهم السلام في كلامه المجيد أيضا : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

البشارة الخامسة : الآية العاشرة من الباب التاسع والاربعين من سفر التكوين هكذا كما في الترجمة العربية سنة ١٧٢٢ سنة ١٨٣١ سنة ١٨٤٤ - . (فلا يزول القضييب من يهوذا والمدير من تحت فخذه حتى يجيء الذي له الكل وإياه تنتظر الامم) .

وفي الترجمة العربية سنة ١٨١١ (هكذا) : (فلا يزول القضييب من يهوذا والرسم من تحت أمره إلى أن يجيء الذي هو له وإليه تجتمع الشعوب) .

« يذكر المؤلف هنا كلاما طويلا محتواه أن القضييب هنا لا يفسر الا بالنبوة ويفند كل تفسير آخر مستشهدا بالتاريخ والوقائع المذكورة في كتب اليهود والنصارى أنفسهم ومقتضى كلامه أن الذي له الكل وإياه تنتظر الامم لا بد

أن يكون محمد عليه السلام ولا يصح أن يفسر به غيره لأنه لو فسرنا أن المقصود بذلك المسيح لكان فهمنا متناقضا مع النص إذ المسيح من آل إسرائيل ومن ذريته والكلام هنا عن نبوة تخرج عن ذرية إسرائيل إلى انسان تجتمع إليه الشعوب من غيرهم وليس ذلك لغير محمد عليه السلام .»

البشارة السادسة : الزبور الخامس والاربعون هكذا :

(فاض قلبي كلمة صالحة أنا أقول أعمالي للملك (١) لساني قلم كاتب سريع الكتابة (٢) بهي في الحسن افضل من بني البشر (٣) انسكبت النعمة على شفيتك لذلك باركك الله إلى الدهر (٤) تقلد سيفك على فخذك أيها القوي بحسبك وجمالك (٥) استله وانجح واملك من أجل الحق والدعة والصدق وتهديك بالعجب يمينك (٦) نبلك مسنونة أيها القوي في قلب أعداء الملك الشعوب تحتك يسقطون (٧) كرسيك يا الله إلى دهر الداهرين عصا الاستقامة عصا ملكك (٨) أحببت البر وأبغضت الإثم لذلك مسحك الله إلهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك (٩) المروالمعة والسليخة من ثيابك من منازلك الشريفة العاج التي أبهجتك (١٠) بنات الملوك في كرامتك قامت الملكة عن يمينك مشتملة بثوب مذهب موشى (١١) اسمعي يا بنت وانظري وانصتي باذنك وانسي شعبك وبنت أبيك (١٢) فيشتهي الملك حسبك لأنه هو الرب الهك وله تسجدين (١٣) بنات صور يأتينك بالهدايا لوجهك يصلي كل أغنياء البشر (١٤) كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى (١٥) يبلغن إلى الملك عذارى في أثرها قريباتها اليك يقدمن (١٦) يبلغن بفرح وابتهاج يدخلن إلى هيكل الملك (١٧) ويكون بنوك عوضا من آبائك وتقيمهم رؤساء على سائر الارض (١٨) سأذكر اسمك في كل جيل وجيل من أجل ذلك تعترف لك الشعوب إلى الدهر وإلى دهر الداهرين) ل.ه. وهذا الأمر مسلم عند أهل الكتاب ان داود عليه السلام يبشر في هذا الزبور بنبي يكون ظهوره بعد زمانه ولم يظهر إلى هذا الحين عند اليهود نبي يكون موصوفا بالصفات المذكورة في هذا الزبور ويدعي علماء بروتستنت أن هذا النبي عيسى عليه السلام ويدعي أهل الإسلام سلفا وخلفا أن هذا النبي

محمد صلى الله عليه وسلم فاقول إنه ذكر في هذا الزبور من صفات النبي
 المبشر به هذه الصفات ١ - كونه حسنا - ٢ - كونه أفضل البشر - ٣ - كون
 النعمة منسكبة على شفتيه - ٤ - كونه مباركاً إلى الدهر - ٥ - كونه متقلداً
 بالسيف - ٦ - كونه قويا - ٧ - كونه ذا حق ودعة وصدق - ٨ - كونه
 مداية يمينه بالعجب - ٩ - كون نبه مسنونة - ١٠ - سقوط الشعب تحته
 ١١ - كونه محبا للبر ومبغضا للإثم - ١٢ - خدمة بنات الملوك إياه -
 ١٣ - إتيان الهدايا إليه - ١٤ - إنقياد كل أغنياء الشعب له - ١٥ - كون
 أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم - ١٦ - كون اسمه مذكورا جيلا بعد جيل -
 ١٧ - مدح الشعوب إياه إلى دهر الدهرين . وهذه الأوصاف كلها توجد في
 محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه . أما الأول فلان أبا هريرة رضي الله
 عنه قال : (ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس
 تجري في وجهه) . وعن أم معبد رضي الله عنها قالت في بعض ما وصفته به :
 (أجمل الناس من بعيد وأحلامهم وأحسنهم من قريب) . وأما الثاني فلأن الله تعالى قال في
 كلامه المحكم « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » الآية . وقال أهل التفسير
 أراد بقوله « ورفع بعضهم درجات » محمداً صلى الله عليه وسلم أي رفعه على
 سائر الأنبياء من وجوه متعددة وقد أشبع الكلام في تفسير هذه الآية الإمام الهمام
 الفخر الرازي في تفسيره الكبير . وقال صلى الله عليه وسلم (أنا سيد ولد آدم
 يوم القيامة ولا فخر) أي لا أقول ذلك فخراً لأنفسى بل تحدثنا بنعمة ربى وأما
 الثالث فغير محتاج إلى البيان ، حتى أقر بفصاحته الموافق والمخالف ، وقال الرواة
 في وصف كلامه إنه كان أصدق الناس لهجة فكان من الفصاحة بالمحل الأفضل
 والموضع الأكمل . وأما الرابع فلأن الله تعالى قال « إن الله وملائكته يصلون على
 النبي » وألوف الوف من الناس يصلون عليه في الصلوات الخمس . وأما
 الخامس فظاهر وقد قال هو بنفسه أنا رسول الله بالسيف . وأما السادس فكانت
 قوته الجسمانية على الكمال . وأما شجاعته فقد قال ابن عمر (رض) (ما
 رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال علي
 كرم الله وجهه (وإنا كنا إذا حمى البأس واحمرت الحديق اتقينا برسول الله صلى

الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً . وأما السابع فلأن الأمانة والصدق من الصفات الجبلية له صلى الله عليه وسلم كما قال النضر بن الحرث لقريش : (قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتكم إنه ساحر لا والله ما هو بساحر) وسأل هرقل عن حال النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، قال : لا . وأما الثامن فلأنه رمى يوم بدر وكذا يوم حنين وجوه الكفار بقبضة تراب فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا وتمكن المسلمون منهم قتلاً وأسراً فأمثال هذه من عجيب هداية يمينه . وأما التاسع فلأن كون أولاد اسماعيل أصحاب النبل في سالف الزمان غير محتاج إلى البيان وكان هذا الأمر مرغوباً له وكان يقول (ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه) ويقول (ارموا بني اسماعيل فإن أباكم كان رامياً) ويقول عليه السلام (من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا) . وأما العاشر فلأن الناس دخلوا أفواجا أفواجا في دين الله في مدة حياته . وأما الحادي عشر فمشهور يعترف به المعاندون أيضاً كما عرفت في المسلك الثاني . وأما الثاني عشر فقد صارت بنات الملوك والأمراء خادمة للمسلمين في الطبقة الأولى ومنها شهربانو بنت يزدجرد كسرى فارس كانت تحت الإمام الهمام الحسين رضي الله عنه . وأما الثالث عشر والرابع عشر فلأن النجاشي ملك الحبشة ومنذر بن ساوى ملك البحرين وملك عمان انقادوا وأسلموا ؛ وهرقل قيصر الروم أرسل إليه بهدية والمقوقس ملك القبط أرسل إليه ثلاث جوارى وغلاماً أسود وبغلة شهباء وحماراً أشهب وفرساً وثياباً وغيرها . وأما الخامس عشر فقد وصل من أبناء الإمام الحسن رضي الله عنه إلى الخلافة في أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وغيرها . . .

أما السادس عشر والسابع عشر فلأنه ينادي الوف الوف ، جيل بعد جيل في

الأوقات الخمسة بصوت رفيع في أقاليم مختلفة « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » ويصلى عليه في الأوقات المذكورة غير المحصورين من المصلين والقراء يحفظون منشوره والمفسرون يفسرون معاني فرقانه والوعاظ يبلغون وعظه. والعلماء والسلاطين يصلون الى خدمته ويسلمون عليه من وراء الباب (أي باب قبره عليه السلام) . . .

البشارة السابعة : فيها « لأن الرب يسير بشعبه ويشرف المتواضعين بالخلاص تفتخر الابرار بالمجد ويبتهجون على مضاجعهم ترفع الله في حلوقهم وسيوف ذات فمين في أياديهم وانتقامهم من الأمم وتوبيخاتهم ليصنعوا انتقاماً في الأمم وتوبيخات في الشعوب ليقيدوا ملوكهم بالقيود واشرافهم باغلال من حديد ليضعوا بهم حكماً مكتوماً هذا المجد يكون لجميع الابرار » ... (لم تتحقق هذه البشارة إلا بالمسلمين الذين فعلوا هذا باسم الله والله)

البشارة الثامنة : في الباب الثاني والأربعين من كتاب أشعيا هكذا :

٩ (التي قد كانت أولاهها قد أتت وأنا مخبر أيضاً بأحداث قبل أن تحدث وأسمعكم إياها .

١٠ (سبحوا للرب تسبيحة جديدة حمده من أقاصي الأرض راكبين في البحر وملؤه الجزائر وسكانهن) .

١١ (يرتفع البرية ومدتها في البيوت نمل قيدار سبحوا يا سكان الكهف من رؤوس الجبال يصيحون) .

١٢ (يجعلون للرب كرامة وحمده يخبرون به في الجزائر) ١٣ (الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوش الغيرة بصوت ويصيح على أعدائه بتقوى) ١٤ (سكت دائماً صمت صبرت صبراً فاتكلم مثل الطائفة ما بدد وابتلع معاً) ١٥ (انخرب الجبال والآكام وكل نباتهن اجفف واجعل الانهار جزائر) والبحيرات اجففهن) ١٦ (وأقيد العمي في طريق لم يعرفوها والسبل لم يعلموا

أسيرهم فيها أصير أمامهم الظلمة نوراً والعقب سهلاً هذا الكلام صنعته لهم
(ولا أخذهم) ١٧ (لإندبروا إلى ورائهم والمتكلمون على المنحوتة القائلون
للمسبوكة إنكم آلهتنا ليخزون خزيًا) وظهر من الآية التاسعة ان أشعيا عليه
السلام أخبر أولاً عن بعض الأشياء ثم يخبر عن الأخبار الجديدة الآتية في المستقبل
فالحال الذي يخبر عنه من هذه الآية إلى آخر الباب غير الحال الذي أخبر عنه
قبلها ولذلك قال في الآية الثالثة والعشرين هكذا (من هو بينكم إن يسمع هذا
يصغي ويسمع الآية) والتسبيحة الجديدة عبارة عن العبادة على النهج الجديد
التي هي في الشريعة المحمدية وتعميمها على سكان أقاصي الأرض وأهل الجزائر
وأهل المدن والبراري ، إشارة إلى عموم نبوته صلى الله عليه وسلم ولفظ قيدار
أقوى إشارة إليه لأن محمداً صلى الله عليه وسلم في أولاد قيدار بن إسماعيل.
وقوله من رؤوس الجبال يصيحون إشارة إلى العبادة المخصوصة التي تؤدي
في أيام الحج يصيح الوف الوف من الناس لبيك اللهم لبيك . وقوله حمده -
يخبرون به في الجزائر إشارة إلى الأذان يخبر به الوف الوف في أقطار العالم في
الأوقات الخمسة بالجهر. وقوله (الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوش
الغيرة) يشير إلى مضمون الجهاد إشارة حسنة بأن جهاده وجهاد تابعيه يكون
لله وبأمره خالياً عن حظوظ الهوى النفسانية ولذلك عبر الله عن خروج هذا
النبي وخروج تابعيه بخروجه وبين في الآية الرابعة عشر سبب مشروعية الجهاد
وأشار في الآية السادسة عشر إلى حال العرب لأنهم كانوا غير واقفين على
أحكام الله وكانوا يعبدون الأصنام وكانوا مبتلين بأنواع الرسوم القبيحة
الجاهلية كما قال الله تعالى في حقهم « وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »
وقوله (لا أخذهم) إشارة إلى كون أمة مرحومة « غير المغضوب عليهم
ولا الضالين » وإلى تأييد شريعته. وقوله (والموكلون على المنحوتة القائلون للمسبوكة
انكم آلهتنا ليخزون خزيًا) وعد بأن عابدي الأصنام والوثان كمشركي العرب
وعابدي الصليب وصور القديسين يحصل لهم الخزي والهزيمة التامة ووفى بما

وعد فان مشركي العرب وهرقل عظيم الروم وكسرى فارس ما قصرُوا في إطفاء النور الاحمدي لكنهم ما حصل لهم سوى الخزي التام وعاقبة الأمر لم يبق أثر الشرك في اقليم العرب وزالت دولة كسرى مطلقاً وزالت حكومة أهل الصليب من الشام مطلقاً وأما في الأقاليم الأخر فمن بعضها انمحي أثره مطلقاً كبخارى وكابل وغيرهما ومن بعضهما قل كالهند والسند وغيرهما وانتشر التوحيد شرقاً وغرباً .

البشارة التاسعة : في الباب الرابع والخمسين من كتاب أشعيا هكذا :
١ (سبحي أيتها العاقرة اني لست بـتـلدين انشدي بالحمد وهلي التي لم تلدي من أجل أن الكثيرين من بني الوحشة أفضل من بني ذات رجل يقول الرب) ،
٢ (أوسعي موضع خيمتك وسرادق مضاربك ابسطي لا تشفقي طول حبالك ثبتي أوتادك) ٣ (لأنك تنفذين يمنة ويسرة زرعك يرث الأمم ويعمر المدن الحربة) ٤ (لا تخافي لأنك لا تخزين ولا تخجلين فإنك لا تستحيين من أجل أنك خزي صباثك تنسين وعار ترملك لا تذكرين أيضاً) ٥ (فإنه يتولى عليك الذي صنعك رب الجنود اسمه وفاديك قدوس اسرائيل إله جميع الأرض يدعى)
٦ (إنما الرب دعاك مثل المرأة المطلقة والحزينة الروح وزوجة منذ الصبا مرذولة قال إلهك) ٧ (لساعة في قليل تركتك وبرحمة عظيمة أجمعك) ٨ (في ساعة الغضب أخفيت قليلاً وجهي عنك وبالرحمة الأبدية رحمتك قال فاديك الرب) ٩ (مثلما في أيام نوح لي هذا الذي حلفت له أن لا أصب مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخاك) ١٠ (فان الجبال ترتجف والتلال تزلزل ورحمتي لا تزول عنك وعهد سلامي لا يتحرك قال رحيمك الرب) ١١ (فقيرة مستأصلة بعاصف بلا تعزية هاأنذا ابلط بالرتبة حجارتك وأونسك بالسفير .

١٢ (وأجعل يسبا محاضك وأبوابك حجارة منقوشة وجميع حدودك لأحجار مشتهية) ١٣ (جميع بنيك متعلمين من الرب وكثرة السلام لبنيك)
١٤ (وبالبر تؤمسين فابتعدي من الظلم لأنك لا تخافين ومن الهيبة لأنها لا

تقرب منك) ١٥ (ها يأتي الجار الذي لم يكن معي والذي قد كان قريبا يقترب منك) ١٦ (ها أناذا خلقت صائغا الذي ينفخ في النار جمرًا ويخرج إناء لعمله وأنا خلقت قتولا للإهلاك) ١٧ (كل إناء مجبول ضدك لا ينجح وكل لسان يخالفك في القضاء تحكمين عليه هذا هو ميراث عبيد الرب وعد لهم عندي يقول الرب) ١٨. فأقول المراد بالعاقرة في الآية الأولى مكة المعظمة لأنها لم يظهر منها نبي بعد اسماعيل ولم ينزل فيها وهي بخلاف اورشليم لأنه ظهر فيها الأنبياء الكثيرون وكثر فيها نزول الوحي وبنو الوحشة عبارة عن أولاد هاجر لأنها كانت بمنزلة المطلقة المخرجة عن البيت ساكنة في البر ولذلك وقع في حق اسماعيل في وعد الله هاجر (هذا سيكون انسانا وحشيا) كما هو مصرح به في الباب السادس عشر من سفر التكوين وبنو ذات رجل عبارة عن أولاد سارة فخطب مكة الله أمراً لها بالتسبيح والتهليل وانشاد الشكر لأجل أن كثيرين من أولاد هاجر صاروا أفضل من أولاد سارة فحصلت الفضيلة لها بسبب حصول الفضيلة لأهلها، وفي بما وعد بان بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أفضل اليشر خاتم النبيين من أهلها في أولاد هاجر. وهو المراد بالصائغ الذي ينفخ في النار جمرًا وهو القتل الذي خلق لاهلاك المشركين وحصل لها السعة بواسطة هذا النبي وما حصل لغيرها من المعابد في الدنيا إذ لا يوجد في الدنيا معبد مثل الكعبة من ظهور محمد صلى الله عليه وسلم إلى هذا الحين والتعظيم الذي يحصل لها من القرابين في كل سنة من مدة ألف ومائتين وثمانين لم يحصل لبيت المقدس إلا مرتين مرة في عهد سايمان عليه السلام لما فرغ من بنائه ومرة في السنة الثامنة عشر من سلطنة يوشيا ويبقى هذا التعظيم لمكة إلى آخر الدهر إن شاء الله كما وعد الله بقوله لا تخافي لأنك لا تخزين ولا تخجلين لأنك لا تستحيين وبقوله برحمات عظيمة أجمعك وبالرحمة الأبدية رحمتك وبقوله حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخك وبقوله رحمتي لا تزول عنك وعهد سلامي لا يتحرك وملك زرعها شرقا وغربا وورثوا الامم وعبروا المدن في مدة قليلة لا تتجاوز اثنين وعشرين سنة من الهجرة ومثل هذه الغلبة في مثل هذه المدة القليلة لم يسمع من عهد آدم عليه السلام إلى زمان محمد (عليه السلام) لمن يدعي الدين الجديد وهذا مفاد قول الله : وزرعك يرث الامم ويعمر المدن الحربة

سلاطين الاسلام سلفا وخلفا اجتهدوا اجتهدا تاما في بناء الكعبة والمسجد الحرام وتزيينهما وحفر الابار والبرك والعيون في مكة ونواحيها والغرباء يحبون مجاورتها من ظهور الاسلام إلى هذا الحين سيما في هذا الزمان وألوف من الناس يصلون اليها في كل سنة من اقاليم مختلفة وديار بعيدة ووفى بما وعد بقوله : « كل إناء مجبول بضدك لا ينجح » لأن كل شخص من المخالف قام بضدها اذله الله كما وقع باصحاب الفيل . . .

البشارة العاشرة :

في الباب الخامس والستين من كتاب أشعيا هكذا :

١ (طلبني الذين لم يسألوني قبل

ووجدني الذين لم يطلبوني

قلت هاأنذا إلى الامة الذين لم يدعوا باسمي)

٢ (بسطت يدي طول النهار

إلى شعب غير مؤمن

الذي يسلك بطريق غير صالح وراء أفكارهم)

٣ (الشعب الذي يغضبني أمام وجهي دائما)

(الذين يذبجون في البساتين ويذبجون على اللبن) ٤ (الذين يسكنون في القبور

في مساجد الاوثان يرقدون الذين يأكلون لحم الخنزير والمرق المنجس في آنيتهم)

٥ (الذين يقولون ابعده عني لا تقرب مني لانك نجس هؤلاء يكونون دخانا في

رجزي نارا متقدمة طول النهار) ٦ (هامكتوب قدامي لا اسكت بل أرد وأكافي

جزاء في حضهم) فالمراد بالذين لم يسألوني والذين لم يطلبوني العرب لأنهم كانوا غير

واقفين على ذات الله وصفاته وشرائعه فما كانوا سائلين عن الله وطالبين له كما

قال الله تعالى في سورة آل عمران « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا

من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من

قبل لفي ضلال مبين » ولا يجوز ان يراد بهم اليونانيون كما عرفت في البشارة

الثانية، والوصف المذكور في الآية الثانية والثالثة يصدق على كل واحد من اليهود والنصارى، والوصف المذكور في الآية الرابعة ألصق بحال النصارى، كما أن الوصف المذكور في الخامسة ألصق بحال اليهود فردداهم الباري واختار الأمة المحمدية.

البشارة الحادية عشرة: في الباب الثاني من كتاب دانيال في حال الرؤيا التي رآها بختنصر ملك بابل ونسي ثم بين دانيال عليه السلام بحسب الوحي تلك الرؤيا وتفسيرها ٣١ (فكنت أنت الملك ترى وإذ تمثال واحد جسيم وكان التمثال عظيما ورفيع القامة واقفا قبالك ومنظره مخوفا) ٣٢ (رأس هذا التمثال هو من ذهب ابريز والصدر والذراعان من فضة والبطن والفخذان من نحاس) ٣٣ (والساقان من حديد والقدمان قسم منهما من حديد وقسم منهما من خزف) ٣٤ (فكنت ترى هكذا حتى انقطع حجر من جبل لا بيدين وضرب التمثال في قدميه من حديد ومن خزف فسحقهما) ٣٥ (فانسحق حينئذ مع الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب وصارت كغبار البيدر في الصيف فذرتها الريح ولم يوجد لها مكان والحجر الذي قد ضرب التمثال صار جبلا عظيما وملأ الارض بأسرها) ٣٦ (فهذا هو الحلم وتنبيء أيضا قدامك بأيتها الملك بتفسيره) ٣٧ (أنت هو ملك الملوك وإله السماء أعطاك الملك والقوة والسلطان والمجد) ٣٨ (وجميع ما يسكن فيه بنو الناس ووحوش الحقل وأعطى بيدك طير السماء أيضا وجعل جميع الاشياء تحت سلطانك فأنت هو الرأس من الذهب) ٣٩ (وبعدك تقوم مملكة اخرى اصغر منك من فضة ومملكة ثالثة اخرى من نحاس وتتسلط على جميع الارض) ٤٠ (والمملكة الرابعة تكون مثل الحديد كما أن الحديد يسحق ويغلب الجميع هكذا هي تسحق وتكسر جميع هذه) ٤١ (اما فيما رأيت قسم القدمين وأصابعهما من الخزف الفاخوري وقسم من حديد تكون المملكة مفترقة وان كان يخرج من نصبة الحديد حسبما رأيت الحديد مختلطا بالخزف من طين) ٤٢ (وأصابع القدمين قسم من حديد وقسم من خزف فتكون المملكة بقسم صلبة وبقسم مسحوقة) ٤٣ (فيما رأيت الحديد مختلطا بالخزف من طين إنهم يختلطون بزرع بشري بل لا يتلاصقون مثل ما ليس بممكن

أن يمتزج الحديد بالخزف) ٤٤ (فأما في أيام تلك الممالك يبعث إليه السماء مملكة وهي لن تنقضي قط ملكها لا يعطى لشعب آخر وهي تسحق وتفني جميع هذه الممالك أجمعين وهي تثبت إلى الأبد) ٤٥ (وكما رأيت أن من جبل انقطع حجر لا بيدن وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب فالإله العظيم أظهر للملك ما سيأتي من بعد والحلم هو حقيقي وتفسيره صحيح) ١.هـ . فالمراد بالمملكة الأولى سلطنة يختصروا بالمملكة الثانية سلطنة المادنين الذين تسلطوا بعد قتل بلشاصر بن يختنصر هو مصرح به في الباب الخامس من الكتاب المذكور وسلطنتهم كانت ضعيفة بالنسبة إلى سلطنة الكلدانيين والمراد بالمملكة الثالثة سلطنة الكيانيين لأن قورش ملك إيران الذي هو بزعم القيسيين كيخسر وتسلط على بابل قبل ميلاد المسيح بخمسمائة وست وثلاثين سنة ولما كان الكيانيون على السلطنة القاهرة فكأنهم كانوا متسلطين على جميع الأرض ، والمراد بالمملكة الرابعة سلطنة اسكندر بن فيلفوس الرومي الذي تسلط على ديار فارس قبل ميلاد المسيح بثلاثمائة وثلاثين سنة ، فهذا السلطان كان في القوة بمنزلة الحديد ثم جعل هذا السلطان سلطنة فارس منقسمة على طوائف الملوك فبقيت هذه السلطنة ضعيفة إلى ظهور الساسانيين ثم صارت قوية بعد ظهورهم فكانت ضعيفة تارة وقوية تارة وتولد في عهد انوشيروان (محمد بن عبد الله) عليه السلام وأعطاه الله السلطنة الظاهرية والباطنية وقد تسلط متبعوه في مدة قليلة شرقاً وغرباً وعلى جميع ديار فارس التي كانت هذه الرؤيا وتفسيرها متعلقين بها ، فهذه هي السلطنة الأبدية التي لا تنقضي وملكها لا يعطى لشعب آخر ...

فهذا الحجر الذي انقطع لا بيدن من جبل وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب وصار جبلا عظيماً وملاً الأرض بأسرها هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

البشارة الثانية عشرة : نقل يهوذا الحواري في رسالته الخبر الذي

تكلم به أخنوخ الرسول . . وأنا أنقل عبارته من الترجمة العربية المطبوعة
سنة ١٨٤٤ :

(الرب قد جاء في ربواته المقدسة ليدان الجميع ويبكت جميع
المنافقين على كل أعمال نفاقهم التي نافقوا فيها وعلى كل الكلام الصعب الذي
تكلم به ضد الله الخطاة المنافقون) . . .

فجاء محمد في ربواته المقدسة فدان الكفار وبكت المنافقين والخطاة على
أعمال النفاق وعلى أقوالهم القبيحة في الله ورسله فبكت المشركين لعدم تسليم
توحيد الله ورسالة رسله مطلقاً وعبادتهم الأصنام والأوثان، وبكت اليهود
على تفريطهم في حق عيسى ومريم عليهما السلام، وبعض عقائدهم الواهية
وبكت أهل التثليث مطلقاً على تفريطهم في توحيد الله وإفراطهم في حق عيسى
عليه السلام، وبكت أكثرهم على عبادة الصليب والتماثيل وبعض عقائدهم
الواهية .

البشارات : الثالثة عشر والرابعة عشر والخامسة عشر :

ملاحظة : لقد تصرفنا هنا في كلامه فدمجنا البشارات الثلاث وصغناها
صياغة مختصرة مع أنه ذكر كلا على انفراد وشرح كلا ولكننا رأينا أن الموضوع
واحد فدمجنا وأحببنا الاختصار .

في الباب الثالث عشر من إنجيل متى هكذا :

٣١ (قدم لهم مثلاً آخر قائلاً : يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها
إنسان وزرعها في حقله) ٣٢ (وهي أصغر جميع البذور ولكن متى نمت فهي
أكبر البقول وتصبح شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتأوي في أغصانها)
١٥ . وفي الباب العشرين من إنجيل متى هكذا .

١٠ (فإن ملكوت السموات يشبه رجلاً رب بيت خرج من الصبح
ليستأجر فعلة لكرمه فاتفق مع العملة على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه

ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياماً في السوق بطالين فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم فمضوا وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياماً بطالين فقال لهم لماذا وقفتم هنا كل النهار بطالين قالوا له لأنه لم يستأجرنا أحد قال لهم اذهبوا أنتم أيضاً ، إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله ادع الفعلة واعطهم الأجرة مبتدئاً من الآخرين إلى الأولين فجاء أصحاب الساعة الحادية عشر وأخذوا ديناراً ديناراً فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضاً ديناراً ديناراً وفيما هم يأخذون تدمروا على رب البيت قائلين هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا ؛ نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر فأجاب وقال لواحد منهم : يا صاحب ما ظلمتك أما اتفقت معي على دينار فخذ الذي لك واذهب فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بمالي أم عينك شريرة لأني أنا صالح ؛ هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون) .

وفي الباب الثالث عشر من إنجيل متى :

(يشبه ملكوت السموات إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله) .

(يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله) .

(يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكياس

دقيق حتى اختمر الجميع) .

وفي الباب الحادي والعشرين من إنجيل متى هكذا :

(لذلك أقول إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره) .

وفي الباب الثالث من إنجيل متى هكذا :

١١ (وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلاً توبوا

لأنه قد اقترب ملكوت السموات) .

وفي الباب الرابع من إنجيل متى هكذا :

١٢ (ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل من ذلك الزمان
ابتدأ يسوع يكرز ويقول : (توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات) .

هذه النصوص كلها تشير إلى نبوة محمد عليه السلام .

فالامة البطالة التي هي الأخيرة والأولى هي أمتة .

والامة التي ورثت ملكوت الله وعملت أثماره هي أمتة .

وحبة الخردل التي هي أصغر البذور ثم أصبحت أكبر الشجر هي أمتة .
وهكذا لا يمكن أن تفهم هذه النصوص فهماً مستقيماً إلا إذا طبقناها على
محمد رسول الله وأمتة .

البشارة السادسة عشر : في الباب الحادي والعشرين من إنجيل متى
هكذا :

٣٣ (اسمعوا مثلاً آخر : كان إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه
بسياج وحفر فيه معصرة وبني برجاً وسلمه إلى كرامين وسافر ولما قرب
وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين وسافر ليأخذ أثماره فأخذ الكرامون
عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين
أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك ، فأخيراً أرسل اليهم ابنه قائلاً يهابون
ابني ، وأما الكرامون فلما رأوا الإبن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا
نقتله ونأخذ ميراثه) . . .

٤٠ (فمتى جاء صاحب الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرامين) ٤١ (قالوا
له أولئك الأردباء يهلكهم هلاكاً ردياً ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين
يعطونه الأثمار في أوقاتها) ٤٢ (قال لهم يسوع أما قرأتم قط في الكتب الحجر

الذي رفضه البنائون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا (٤٣) لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره (٤٤) ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه (٤٥) ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم (٤٦) .

أقول إن رب البيت كناية عن الله والكرم كناية عن الشريعة وإحاطته بسياج وحفر المعصرة فيه وبناء البرج كنايات عن بيان المحرمات والمباحات والأوامر والنواهي وإن الكرامين الطاغين كناية عن اليهود، وكما فهم رؤساء الكهنة والفريسيون أنه تكلم عليهم والعبيد المرسلين كناية عن الأنبياء عليهم السلام، والإبن كناية عن عيسى عليه السلام، وقد عرفت في الباب الرابع أنه أنه لا بأس بإطلاق هذا اللفظ عليه وقد قتله اليهود أيضاً في زعمهم، والحجر الذي رفضه البنائون كناية عن محمد

وهذا هو الحجر الذي كل من سقط عليه ترضض وكل من سقط هو عليه سحقه، وما ادعى العلماء المسيحية بزعمهم أن هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام فغير صحيح لوجوه :

(الأول): إن دواود عليه السلام قال في الزبور المائة والثامن عشر هكذا

٢٢ (الحجر الذي رذله البنائون هو صار رأساً للزاوية) (٢٣) من قبل الرب كانت هذه وهي عجيبة في أعيننا) فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام وهو من اليهود من آل يهوذا من آل داود عليه السلام فأبي عجب في أعين اليهود عموماً لكون عيسى عليه السلام رأس الزاوية سيما في عين داود عليه السلام خصوصاً لأن مزعوم المسيحيين أن داود عليه السلام يعظم عيسى عليه السلام في مزاميره تعظيماً بليغاً ويعتقد الألوهية في حقه، بخلاف آل اسماعيل لأن اليهود كانوا يحقرون أولاد اسماعيل غاية التحقير، وكان كون أحد منهم رأساً للزاوية عجيبة في أعينهم .

(والثاني) : أنه وقع في وسط هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجر ترضض وكل من سقط هو عليه سحقه ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لأنه قال : (وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدبته لأنني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم) كما هو في الباب الثاني عشر من إنجيل يوحنا ؛ وصدقه على محمد غير محتاج إلى البيان لأنه كان مأموراً بتنبيه الفجار والأشرار فإن سقطوا عليه ترضضوا وإن سقط هو عليهم سحقهم .

(الثالث) : قال النبي ﷺ : (مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل) ولما ثبتت نبوته بالأدلة الأخرى كما ذكرت نبدأ منها في المسالك السابقة فلا بأس بأن أستدل في هذه البشارة بقوله أيضاً .

(والرابع) : أن المتبادر من كلام المسيح أن هذا الحجر غير الإبن .
البشارة السابعة عشر : في الباب الثاني من المشاهدات هكذا :
٢٦ (ومن يغلب ويحفظ أعمالي إلى النهاية فسأعطيه سلطاناً على الأمم فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف كما أخذت أيضاً من عند أبي وأعطيه كوكب الصبح ؛ من له أذنان فليسمع ما يقول الروح بالكائنات) هـ ونصوغ بعض تحليله لهذه البشارة باختصار :

« إن صاحب قضيب الحديد الذي يرعى به الأمم رسول الله ﷺ إذ اجتمع له سلطان الدين والدنيا ولحفائمه الراشدين ودول المسلمين » .

والكنيسة المذكورة بأنها ستعطى له اسمها الأصلي (تباثيرا) كما قال القسيسان ويت ووليم اللذان ناظرا صاحب كتاب صولة الضيغم وهذه الكنيسة قريبة من القسطنطينية التي حكمها المسلمون من مئات السنين .

البشارة الثامنة عشر : وهذه البشارة واقعة في آخر أبواب إنجيل يوحنا

وانا انقل عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤
في بلدة لندن فأقول في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا :

١٥ (إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطىكم
فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله
لأنه ليس يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم)
٢٦ (والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي وهو يعلمكم كل
شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم) ٣٠ (والآن قد قلت لكم قبل أن
يكون حتى إذا كان تؤمنون) ...

وفي الباب السادس عشر من إنجيل يوحنا هكذا : ٧ (لكني أقول لكم
الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأما إن
انطلقت أرسلته إليكم) ٨ (فإذا جاء ذاك فهو يوبخ العالم على خطية وعلى
بر وعلى حكم) ٩ (أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي) ١٠ (وأما على البر
فلأنني منطلق إلى الأب ولستم ترونني بعد) ١١ (وأما على الحكم فإن أركون
هذه قد دين) ١٢ (وإن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون
حمله الآن) ١٣ (وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه
ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع وينبئكم بما سيأتي) ١٤ (وهو
يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي وينبئكم) ..

وأنا أقدم قبل بيان وجه الاستدلال بهذه العبارات أمرين :
الأمر الأول : إنك قد عرفت في الأمر السابع أن أهل الكتاب سلفاً
وخلفاً عادتهم أن يترجموا غالباً الأسماء وان عيسى عليه السلام كان يتكلم باللسان
العبراني لا باليوناني ، فإذا لا يبقى شك في أن الإنجيل الرابع ترجم اسم المبرر به
باليوناني بحسب عادتهم ، ثم مترجمو العربية عربوا اللفظ اليوناني بفارقليط وقد
وصلت إلى رسالة صغيرة في لسان أردو من رسائل القسيسين في سنة ألف ومائتين
وثمان وستين من الهجرة وكانت هذه الرسالة طبعت في كلكتة وكانت في

تحقيق لفظ فارقليط وادعى مؤلفها أن مقصوده أن ينبه المسلمين على سبب وقوعهم في الغلط من لفظ فارقليط وكان ملخص كلامه : إن هذا اللفظ معرب من اللفظ اليوناني فإن قلنا (إن هذا اللفظ اليوناني الأصل باراكلي طوس فيكون بمعنى المعزي والمعين والوكيل ، وإن قلنا إن اللفظ الأصل بير كلوطوس يكون قريباً من معنى محمد وأحمد ، فمن استدل من علماء الإسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الأصل بير كلوطوس ومعناه قريب من معنى محمد وأحمد فادعى أن عيسى عليه السلام أخبر بمحمد أو أحمد لكن الصحيح أنه باراكلي طوس ، انتهى ملخصاً من كلامه فأقول : إن التفاوت بين اللفظين يسير جداً وإن الحروف اليونانية كانت متشابهة فتبدل بير كلوطوس بـ باراكلي طوس في بعض النسخ من الكاتب قريب القياس ثم رجع أهل التثليث المنكرين هذه النسخة على النسخ الأخر ومن تأمل في الباب الثاني من هذا الكتاب والأمر السابع من هذا المسلك السادس بنظر الإنصاف اعتقد يقيناً بأن مثل هذا الأمر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس ببعيد بل لا يبعد أن يكون من المستحسنات والأمر الثاني أن البعض ادعوا قبل ظهور محمد ﷺ أنهم مصاديق لفظ فارقليط مثلاً منتسب المسيحي الذي كان في القرن الثاني من الميلاد ، وكان مرتاضاً شديداً واتفق عهده ، ادعى في قرب سنة ١٧٧ من الميلاد في آسيا الصغرى الرسالة وقال إني هو الفارقليط الموعود به الذي وعد بمجيئه عيسى عليه السلام وتبعه أناس كثيرون ، ذلك كما هو مذكور في بعض التواريخ ، وذكر وليم ميور حاله وحال متبعيه في القسم الثاني من الباب الثالث من تاريخه بلسان أردو المطبوع سنة ١٨٤٨ من الميلاد هكذا :

(إن البعض قالوا إنه ادعى أني فارقليط يعني المعزي روح القدس وهو كان اتفق ومرتاضاً شديداً ولأجل ذلك قبله الناس قبولاً زائداً انتهى كلامه . . فعلم أن انتظار فارقليط كان في القرون الأولى المسيحية أيضاً ، ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصاديقه وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم وقال صاحب

لب التواريخ : « إن اليهود والمسيحيين من معاصري محمد ﷺ كانوا منتظرين لنبي فحصل لمحمد من هذا الأمر نفع عظيم لأنه ادعى أنني هو ذاك المنتظر انتهى ملخص كلامه » .

فيعلم من كلامه أيضاً أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبي في زمان النبي ﷺ وهو الحق لأن النجاشي ملك الحبشة لما وصل إليه كتاب محمد ﷺ (فقال أشهد بالله أنه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب) وكتب في الجواب (أشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، أي جعفر بن أبي طالب وأسلمت على يديه لله رب العالمين) وهذا النجاشي قبل الإسلام كان نصرانياً، وكتب المقوقس ملك القبط في جواب كتاب النبي ﷺ هكذا : (لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك .
أما بعد ..

فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبياً قد بقي وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك .
والمقوقس هذا وإن لم يسلم لكنه أقر في كتابه أنني قد علمت أن نبياً قد بقي وكان نصرانياً .
فهذان الملكان ما كانا يخافان في ذلك الوقت من محمد ﷺ لأجل شوكة الدنيوية ؛ وجاء الجارود بن العلاء في قومه إلى رسول الله ﷺ فقال : « والله لقد جئت بالحق ونطقت بالصدق والذي بعثك بالحق نبياً لقد وجدت وصفك في الإنجيل وبشر بك ابن البتول فطول التحية لك والشكر لمن أكرمك لا أثر بعد عين ولا شك بعد يقين ، مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت محمد رسول الله » ثم آمن قومه .

وهذا الجارود كان من علماء النصارى وقد أقر بأنه قد بشر بك ابن البتول أي عيسى عليه السلام فظهر أن المسيحيين أيضاً كانوا منتظرين لخروج نبي بشر به عيسى عليه السلام .
فإذا علمت ذلك فأقول إن اللفظ العبراني الذي قاله عيسى عليه السلام مفقود

واللفظ اليوناني الموجود ترجمة لكني أترك البحث عن الأصل وأتكلم عن هذا اللفظ اليوناني وأقول إن كان اللفظ اليوناني الأصل بير كلوطوس فالأمر ظاهر وتكون بشارة المسيح في حق محمد ﷺ بلفظ هو قريب من محمد وأحمد وهذا وإن كان قريب القياس بلحاظ عاداتهم لكني أترك هذا الاحتمال لأنه لا يتم عليهم إلزاماً، وأقول إن كان اللفظ اليوناني الأصل باراكلي طوس كما يدعون فهذا لا ينافي الاستدلال أيضاً لأن معناه المعزي والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة أو الشافع كما يوجد في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وهذه المعاني كلها تصدق على محمد ﷺ وأنا أبين الآن أولاً أن المراد بفارقليط النبي المبشر به أعني محمد ﷺ لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذي جاء ذكره في الباب الثاني من كتاب الأعمال وأذكر ثانياً شبهات العلماء المسيحية وأجيب عنها فأقول : أما الأول فيدل عليه أمور :

(١) أن عيسى عليه السلام قال : « أولاً إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي » ، ثم أخبر عن فارقليط ، فمقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بأن ما يلقي عليهم بعد ضروري واجب الرعاية ، فلو كان فارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة إلى هذه الفقرة لأن ما كان مضموناً أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى لأنهم كانوا مستفيضين به من قبل أيضاً ؛ بل لا مجال للاستبعاد أيضاً لأنه إذا نزل على قلب أحد وحل فيه يظهر أثره لا محالة ظهوراً بيناً فلا يتصور إنكار المتأثر منه وليس ظهوره عندهم في صورة يكون فيه مظنة يكون الاستبعاد فهو عبارة عن النبي المبشر به. فحقيقة الأمر أن المسيح عليه السلام لما علم بالتجربة وبنور النبوة أن الكثيرين من أمته ينكرون النبي المبشر به عند ظهوره فأكد أولاً بهذه الفقرة ثم أخبر عن مجيئه .

(٢) إن هذا الروح على زعمهم متحد بالأب مطلقاً وبالإبن نظراً إلى

لاهورته إنحاداً حقيقياً فلا يصدق في حقه (فارقليط آخر) بخلاف النبي المبشر به فإنه يصدق هذا القول في حقه بلا تكلف .

(٣) إن الوكالة والشفاعة من خواص النبوة لا من خواص هذا الروح المتحد بالله (على زعمهم) فلا يصدقان على الروح ويصدقان على النبي المبشر به . بلا تكلف .

(٤) إن عيسى عليه السلام قال : « هو يذكركم كل ما قلته لكم » ولم يثبت من رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام . وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم إياه .

(٥) إن عيسى عليه السلام قال : « والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون » . وهذا دل على أن المراد به ليس الروح لأنك قد عرفت في الأمر الأول أنه ما كان عدم الإيمان مظنوناً منهم وقت نزوله بل لا مجال للاستبعاد أيضاً فلا حاجة إلى هذا القول ، فلو أردنا به النبي المبشر به يكون هذا الكلام في محله وفي غاية الاستحسان لأجل التأكيد مرة ثانية .

(٦) إن عيسى عليه السلام قال : « هو يشهد لأجلي » وهذا الروح ما شهد لأجله بين يدي أحد لأن تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين إلى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضاً فلا فائدة للشهادة بين أيديهم والمنكرون الذين كانوا محتاجين للشهادة فهذا الروح ما شهد بين أيديهم . بخلاف محمد ﷺ فإنه شهد لأجل المسيح عليه السلام وصدقه وبرأه عن ادعاء الألوهية الذي هو أشد أنواع الكفر والضلال وبرأ أمه عن تهمة الزنا وجاء ذكر براءتهما في القرآن في مواضع متعددة وفي الأحاديث في مواضع غير محصورة .

(٧) إن عيسى عليه السلام قال : « وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء » وهذه الآية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ هـ كذا (وتشهدون انتم أيضاً

لأنكم كنتم معي من الابتداء) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦١ هكذا :
(وتشهدون انتم ايضاً لأنكم معي من الابتداء). فيوجد في هذه التراجم الثلاث لفظ
أيضاً وكذا يوجد في التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١
وفي ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ ترجمة لفظ أيضاً فلفظ أيضاً سقط من
التراجم التي نقلت عنها عبارة يوحنا سهواً أو قصداً، فهذا القول يدل دلالة
ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة فارقليط ، فلو كان المراد به الروح
النازل يوم الدار فلا توجد مغايرة الشهادتين لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة
مستقلة غير شهادة الحواريين بل شهادة الحواريين هي شهادته بعينها .
فلا يصح هذا القول بخلاف ما إذا كان المراد به النبي المبشر به فإن شهادته
غير شهادة الحواريين .

(٨) إن عيسى عليه السلام قال : (إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فاما
إن انطلقت أرسلته اليكم) .

فعلق مجيئه بذهابه وهذا الروح عندهم نزل على الحواريين في حضوره
لما أرسلهم إلى البلاد الإسرائيلية فنزوله ليس بمشروط بذهابه فلا يكون مراداً
بفارقليط، بل المراد به شخص لم يستفيض منه أحد من الحواريين قبل زمان
صعوده وكان مجيئه موقوفاً على ذهاب عيسى عليه السلام، ومحمد ﷺ كان
كذلك لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام وكان مجيئه موقوفاً على ذهاب
عيسى عليه السلام لأن وجود رسولين ذوي شريعتين مستقلتين في زمان
واحد غير جائز بخلاف ما إذا كان الآخر متبوعاً لشريعة الأول أو يكون كل من
الرسول متبوعاً لشريعة واحدة لأنه يجوز في هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر في
زمان واحد ومكان واحد كما ثبت وجودهم ما بين زمان موسى عليه السلام
وعيسى عليه السلام .

(٩) إن عيسى عليه السلام قال : « يوبخ العالم » فهذا القول بمنزلة النص
الجلي لمحمد ﷺ لأنه وبخ العالم سيما اليهود على عدم إيمانهم بعيسى عليه السلام
توبيخاً لا يشك فيه إلا معاند بحت، وبخلاف الروح النازل يوم الدار فإن توبيخه

لا يصح على أصول أحد، وما كان التوبيخ منصب الحواريين بعد نزوله أيضاً لأنهم كانوا يدعون إلى الملة بالترغيب والوعظ وما قال رانكين في كتابه المسمى بدافع البهتان الذي هو بلسان أردو في رده على خلاصة صولة الضيغم « إن لفظ التوبيخ لا يوجد في الإنجيل ولا في ترجمة من تراجم الإنجيل ، وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على محمد صدقاً بيناً لأجل أن محمداً ﷺ وبخ وهدد كثيراً إلا أن مثل هذا التغليب ليس من شأن المؤمنين والخائفين من الله . انتهى ، كلامه فمردود .

وهذا القسيس إما جاهل غالط أو مغلط ليس له إيمان ولا خوف من الله لأن هذا اللفظ يوجد في التراجم العربية المذكورة التي نقلت عنها عبارة يوحنا ومن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا : « ومتى جاء ذاك يبكى العالم على خطية الخ » وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ وفي التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ و ١٨٤١ يوجد لفظ الإلزام ، ولفظ التبكيك والإلزام أيضاً قريبان من التوبيخ لكن لا شكاية منه لأن مثل هذا الأمر من عادات علماء بروتستنت ولذلك ترى أن مترجمي الفارسية وأردو تركوا لفظ فارقليط لشهرته عند المسلمين في حق محمد ﷺ ومترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ فإن هؤلاء أسلافه أيضاً حيث أرجع إلى الروح ضمائر المؤنث ليحصل الاشتباه للعوام أن مصداق هذا اللفظ مؤنث وليس بمذكر .

(١٠) قال عيسى عليه السلام : « أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي » وهذا يدل على أن فارقليط يكون ظاهراً على منكري عيسى عليه السلام موجباً لهم على عدم الإيمان به ، والروح النازل يوم الدار ما كان ظاهراً على الناس موجباً لهم .

(١١) قال عيسى عليه السلام : « إن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن » وهذا ينافي بإرادة الروح النازل يوم الدار لأنه ما زاد

حكماً على أحكام عيسى عليه السلام لأنه على زعم أهل التثليث كان أمر
الحواريين بعقيدة التثليث وبادعوة أهل العالم كله فأمر حصل لهم أزيد من
أقواله التي قال لهم إلى زمان صعوده ، نعم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع
أحكام التوراة التي هي ما عدا بعض الأحكام العشرة المذكورة في
الباب العشرين من سفر الخروج وحلوا جميع المحرمات وهذا الأمر لا يجوز
في حقه أن يقال إنهم ما كانوا يستطيعون حمله لأنهم استطاعوا حمل سقوط
حكم تعظيم السبت الذي هو أعظم أحكام التوراة الذي كان اليهود ينكرون
كون عيسى عليه السلام مسيحاً موعوداً به لأجل عدم مراعاته هذا الحكم فقبول
سقوط جميع الأحكام كان أهون عندهم ، نعم قبول زيادة الأحكام لأجل
ضعف الإيمان وضعف القوة إلى زمان صعوده كما يعترف به علماء بروتستنت
كان خارجاً عن استطاعتهم فظهر أن المراد بفارقليط نبي تزايد في شريعته
أحكام بالنسبة إلى الشريعة العيسوية ويثقل حملها على المكلفين الضعفاء وهو
محمد ﷺ .

(١٢) إن عيسى عليه السلام قال : « ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل
ما يسمع » وهذا يدل على أن فارقليط يكون بحيث يكذبه بنو إسرائيل
فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذا القول ولا مجال
لمظنة التكذيب في حق هذا الروح النازل يوم الدار على أن هذا الروح عندهم
عين الله فلا معنى لقوله بل يتكلم بما يسمع فمصادقه محمد ﷺ فإنه كان
في حقه مظنة التكذيب ، وليس هو عين الله وكان يتكلم بما يوحى إليه كما قال
الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » وقال : « إن
أتبع إلا ما يوحى إلي » .

(١٣) إن عيسى عليه السلام قال انه يأخذ مما هو لي وهذا لا يصدق على
الروح لأنه عند أهل التثليث قديم وغير مخلوق وقادر مطلق ليس له كمال
منتظر بل كل كمال من كمالاته حاصل له بالفعل ، فلا بد أن يكون الموعود به

من الجنس الذي يكون له كمال منتظر، ولما كان هذا الكلام موهماً أن يكون هذا النبي متبعاً لشريعته دفعه بقوله فيما بعد «جميع ما للأب فهو لي فلأجل هذا قلت مما هو لي يأخذ» يعني أن كل شيء يحصل لفارقليط من الله فكأنه يحصل مني كما اشتهر من كان الله كان الله له، فلأجل هذا قلت إن مما هو لي يأخذ.

وأما الثاني ، أعني الشبهات التي توردها علماء بروتستنت فخمسة :

(الشبهة الأولى) : جاء في هذه العبارة تفسير فارقليط بروح القدس وروح الحق وهما عبارتان في الأقسام الثالث فكيف يصح أن يراد بفارقليط محمد ﷺ ؟

أقول في الجواب : إن صاحب ميزان الحق يدعي في تأليفاته كون ألفاظ روح الله وروح القدس وروح الحق وروح الصدق وروح فم الله بمعنى واحد ، قال في الفصل الأول الباب الثاني من مفتاح الأسرار في الصفحة ٥٣ من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٥٠ : « إن لفظ روح الله ولفظ روح القدس في التوراة والإنجيل بمعنى واحد » انتهى .

فادعى أن هذين اللفظين يستعملان بمعنى واحد في العهدين وقال في حل الإشكال في جواب كشف الأستار : « من له شعور ما بالتوراة والإنجيل فهو يعرف أن ألفاظ روح القدس وروح الحق وروح فم الله وغيرها بمعنى روح الله ، فلذلك ما رأيت إثباته ضرورياً » انتهى .

فإذا ما عرفت هذا القول نحن نقطع النظر عن صحة ادعائه وعدم صحته ههنا ونسلم ترادف هذه الألفاظ على زعمه لكننا ننكر أن استعمالها في كل

موضع من مواضع العهدين بمعنى الأَقْنوم الثالث ونقول قولاً مطابقاً لقوله من له شعور ما يكتب العهدين يعرف أن هذه الألفاظ تستعمل في غير الأَقْنوم الثالث كثيراً ، في الآية الرابعة عشر من الباب السابع والثلاثين من كتاب حزقيال قول الله تعالى في خطاب ألوف من الناس الذين أحياهم بمعجزة حزقيال عليه السلام هكذا : (فأعطى فيكم رُوحى) ففي هذا القول روح الله بمعنى النفس الناطقة الإنسانية لا بمعنى الأَقْنوم الثالث الذي هو عين الله على زعمهم .

وفي الباب الرابع من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا : ترجمة عربية سنة ١٧٦٠ : ١- (أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله ، لأن الأنبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا إلى العالم) .
(بهذا تعرفون روح الله كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله) .

(نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال) .

وهذه الحملة الواقعة في الآية الثانية : (بهذا تعرفون روح الله) وفي التراجم الأخر هكذا ترجمة عربية سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ (وبهذا يعرف روح الله) ترجمة عربية سنة ١٨٢٥ (فإنكم تميزون روح الله) ولفظ روح الله في الآية الثانية ولفظ روح الحق في الآية السادسة بمعنى الواعظ الحق لا بمعنى الأَقْنوم الثالث ولذلك ترجم مترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٤٥ لفظ كل روح بكل واعظ ولفظ الأرواح بالواعظين في الآية الأولى ولفظ روح في الآية الثانية بالواعظ من جانب الله، ولفظ روح الحق في الآية السادسة بالواعظ الصادق، وترجم لفظ روح الضلال بالواعظ المضل، وليس المراد بروح الله وروح الحق الأَقْنوم الثالث الذي هو عين الله على زعمهم وهو ظاهر ، فتفسير فارقليط بروح القدس وروح الحق لا يضرنا لأنهما بمعنى

الواعظ الحق ، كما أن لفظ روح الحق وروح الله بهذا المعنى في الرسالة الأولى ليوحنا فيصيح إطلاقهما على محمد ﷺ بلا ريب.

(الشبهة الثانية) : إن المخاطبين بضمير كم الحواريون فلا بد أن يظهر فارقليط في عهدهم ومحمد ﷺ لم يظهر في عهدهم .

أقول هذا أيضاً ليس بشيء لأن منشأه أن الحاضرين وقت الخطاب لا بد أن يكونوا مرادين بضمير الخطاب ، وهو ليس بضروري في كل موضع ، ألا ترى أن قول عيسى عليه السلام في الآية الرابعة والستين من الباب السادس والعشرين من إنجيل متى في خطاب رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع هكذا : (وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحب السماء) ، وهؤلاء المخاطبون قد ماتوا ومضت على موتهم مدة هي أزيد من ألف وثمانمائة سنة وما رأوه آتياً على سحب السماء ، فكما أن المراد بالمخاطبين ههنا الموجودون من قومهم وقت نزوله من السماء فكذلك فيما نحن فيه .

(الشبهة الثالثة) : أنه وقع في حق فارقليط أن العالم لا يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه وهو لا يصدق على محمد ﷺ لأن الناس رأوه وعرفوه.

أقول : هذا أيضاً ليس بشيء وهم أحوج الناس تأويلاً في هذا القول بالنسبة إلينا لأن روح القدس عين الله عندهم والعالم يعرف الله أكثر من معرفة محمد ﷺ فلا بد أن نقول أن المراد بالمعرفة المعرفة الحقيقية الكاملة ، ففي صورة التأويل لا اشتباه في صدق هذا القول على محمد ﷺ ويكون المقصود أن العالم لا يعرفه معرفة حقيقية كاملة وأنتم تعرفونه معرفة حقيقية كاملة والمراد بالرؤية المعرفة ، ولذا لم يعد عيسى عليه السلام لفظ الرؤية بعد لفظ أنتم ، بل قال : وأنتم تعرفونه. ولو حملنا الرؤية على الرؤية البصرية يكون ففي الرؤية محمولا على ما هو المراد من قول الإنجيل الأول في الباب الثالث عشر من إنجيله . وأنقل عبارته عن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥

١٣) فلذلك أضرب لهم الأمثال لأنهم ينظرون ولا يبصرون ، ويسمعون ولا يستمعون ولا يفهمون (١٤) وقد كمل فيهم تنبؤ أشعيا حيث قال : إنكم تستمعون سمعاً ولا تفهمون وتنظرون نظراً ولا تبصرون) فلا إشكال أيضاً وأمثال هذين الأمرين وإن كانت معاني مجازية ، لكنها بمنزلة الحقيقة العرفية ووقعت في كلام عيسى عليه السلام كثيراً في السابعة والعشرين من الباب الحادي عشر من إنجيل متى هكذا : (وليس أحد يعرف الابن إلا الأب ولا أحد يعرف الأب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له) وفي الآية الثامنة والعشرين من الباب السابع من إنجيل يوحنا هكذا : (الذي أرسلني حق ، الذي أنتم لستم تعرفونه) وفي الباب الثامن من إنجيل يوحنا هكذا : ١٩ (لستم تعرفوني أنا ولا أبي ، لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً) ٥٥ (ولستم تعرفونه أي الله) وفي الآية الخامسة والعشرين من الباب السابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : أيها الأب إن العالم (لم يعرفك أما أنا فعرفتك) وفي الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : (لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه) ٨ (قال له فيلبس يا سيد أرنا الأب وكفانا) .

٩ (قال له يسوع : أنا مكلم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس الذي رأيته فقد رأى الأب فكيف تقول انت ارنا الاب) فالمراد بهذه الأقوال بالمعرفة المعرفة الكاملة وبالرؤية المعرفة والا لا تصح هذه الأقوال يقينا لأن العوام من الناس كانوا يعرفون عيسى عليه السلام فضلاً عن رؤساء اليهود والكهنة والمشايع والحواريين ورؤية الله بالبصر في هذا العالم ممتنعة عند أهل التثليث أيضاً . (الشبهة الرابعة) : انه وقع في حق فارقليط (انه مقيم عندكم وثابت فيكم) ويظهر من هذا القول ان فارقليط كان في وقت الخطاب مقيماً عند الحواريين وثابتاً فيهم فكيف يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم . اقول هذا القول في التراجم الاخرى هكذا ترجمة عربية سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ (لانه مستقر معكم وسيكون فيكم) والتراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ وسنة ١٨٣٩ كلها مطابقة

لهاتين الترجمتين وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ (هكذا ما كث معكم ويكون فيكم) فظهر ان المراد بقوله ثابت فيكم الثبوت الاستقبالي يقيناً فلا اعتراض به لوجه من الوجوه وبقي قوله مقيم عندكم فاقول لا يصح حمل هذا القول على معنى هو مقيم عندكم الآن لأنه ينافي قول (انا اطلب من الاب فيعطيك فارقليط اخر) وقوله (قد قلت لكم قبل ان يكون حتى إذا كان تؤمنون) وقوله (ان لم انطلق لم ياتكم الفارقليط) وإذا أول نقول بمعنى الاستقبال كما ان القول الذي بعده بمعنى الاستقبال ومعناه يكون مقيماً عندكم في الاستقبال فلا خدشة في صدقه ايضاً على محمد صلى الله عليه وسلم والتعبير عن الاستقبال بالحال بل بالماضي في الأمور المتيقنة كثير في العهدين، ألا ترى ان حزقيال عليه السلام أخبر أولاً عن خروج يأجوج ومأجوج في الزمان المستقبل وإهلاكهم حين وصولهم إلى جبال اسرائيل ثم قام في الآية الثانية من الباب التاسع والثلاثين من كتابه هكذا (ها هو جاء وصار يقول الرب الاله هذا هو اليوم الذي قلت عنه) فانظروا إلى قوله ها هو جاء وصار ... فعبّر عن الحال المستقبل بالماضي لكونه يقيناً لا شك فيه وقد مضت مدة أزيد من الفين واربعماية وخمسين سنة ولم يظهر خروجهم وفي الآية الخامسة والعشرين من انبأ الخامس من الانجيل يوحنا هكذا (الحق الحق أقول عليكم أنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الاموات صوت ابن الله والسامعون يحيون) فانظروا إلى قوله وهي الآن وقد مضت مدة أزيد من الف وثمانمائة ولم تجيء هذه الساعة وإلى الآن ايضاً مجهولة ، لا يعرف احد متى تجيء. (الشبهة الخامسة): في انبأ الاول من كتاب الاعمال هكذا (وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم ان لا يبرحوا من اورشليم بل ينتظروا موعد الاب الذي سمعتموه مني) لأن يوحنا عمد بالماء وأما انتم فستعمدون بالروح القدس ليس بعد هذه الايام بكثير وهذا يدل على أن فارقليط هو الروح النازل يوم الدار لأن المراد بوعده الاب هو فارقليط . اقول الادعاء بأن المراد بموعده الاب هو فارقليط ادعاء محض بل هو غلط لثلاثة عشر وجهاً وقد عرفتھا، بل الحق ان الاخبار عن فارقليط شيء والوعد بانزال الروح

عليه مرة أخرى شيء آخر وقد وفى الله بالوعدين وقد عبر بالوعد الاول بمجيء فارقليط وههنا بموعد الاب، غاية الأمر أن يوحنا نقل بشارة فارقليط ولم ينقلها الانجيليون الباقون ولوقا نقل موعد نزول الروح الذي نزل يوم المآدار ولم ينقله يوحنا ولا بأس فيه فإنهم قد يتفقون في نقل الاقوال الحسيسة كركوب عيسى عليه السلام على الحمار وقت الذهاب إلى اورشليم . اتفق على نقله الاربعة وقد يتخالفون في نقل الاحوال العظيمة . ألا ترى أن لوقا انفرد بذكر احياء ابن الارملة من الأموات في نابين ويذكر ارسال عيسى عليه السلام سبعين تلميذاً، أو يذكر ابراء عشرة برص. ولم يذكر هذه الحالات أحد من الانجيليين مع أنها من الحالات العظيمة، وأن يوحنا انفرد بذكر وليمة العرس في قانا الجليل وظهر من يسوع فيه معجزة تحويل الماء خمرأ وهذه المعجزة اول معجزاته ، وسبب ظهور مجده وايمان التلاميذ به وبذكر ابراء السقيم في بيت صيدا في اورشليم وهذه ايضاً معجزة عظيمة، والمريض كان مريضاً من ثمانية وثلاثين سنة، ويذكر قصة امرأة اخذت في زنا ويذكر ابراء الاكمه وهذا ايضاً من اعظم معجزاته وهي مصرحة بهما في الباب التاسع، ويذكر احياء العاذار من بين الاموات ولم يذكرها أحد من الانجيليين مع أنها حالات عظيمة وهكذا حال متى ومرقس فانهما انفردا بذكر بعض المعجزات والحالات التي لم يذكرها غيرهما ولما طال البحث في هذا المسلك فلنقتصر على هذا القدر من البشارات التي نقلتها عن كتبهم المعتبرة عندهم في زماننا . ١٥ .

- ٦ -

وهناك كتاب ظهر في اوروبا واحداث ضجة وأخذاً ورداً ثم كانت النتيجة ان رفضه العالم النصراني بلامبرر . هذا الكتاب يسمى «انجيل برنابا» والكتاب اعطى قولاً فصلاً في المسائل الثلاث الاساسية وهي رسالة عيسى ورسالة محمد وعدم صلب المسيح .

فهل هناك مبرر لرفض هذا الكتاب :

١ - يذكر التاريخ ان البابا جيلاسيوس الاول الذي جلس على الاريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية أي قبل ميلاد الرسول محمد ﷺ بحوالي قرن أصدر

أمراً ينهى فيه عن مطالعة كتب معينة من جملتها كتاب إسمه إنجيل برنابا .
إذن من المعروف تاريخياً أن هناك كتاباً اسمه إنجيل برنابا موجود قبل الاسلام .

٢ - وقد عثر لهذا الإنجيل على نسختين : إيطالية وإسبانية أما الإسبانية فقد أقرضها الدكتور (هلم) من هادي بلدة من اعمال همبشير المستشرق سايل ثم تناولها بعد سايل الدكتور منكهوس احد اعضاء الكلية الملكية في أكسفورد فنقلها إلى الانكليزية ثم دفع الترجمة مع الاصل سنة ١٧٨٤ إلى الدكتور هويت احد مشاهير الاساتذة ثم بعد ذلك طمس خبرها واهمى أثرها .
واما النسخة الايطالية فموجودة في مكتبة بلاط فيينا واول من عثر عليها كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا وكان مقيماً وقتئذ في أمستردام فأخذها سنة ١٧٠٩ من مكتبة أحد مشاهير وجهاء المدينة المذكورة فأقرضها كريمر طولند ثم أهداها بعد ذلك بأربع سنين إلى البرنس ايوجين سافوي ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة ١٧٣٨ مع سائر مكتبة البرنس إلى مكتبة البلاط الملكي في فيينا حيث لا تزال هنالك . واذن هذا الكتاب في ورده وصدره اوروبي .

٣ - انه لم يعرف بتاتاً عند المسلمين ان هناك كتاباً اسمه إنجيل برنابا قبل ظهوره في اوروبا ولو ان للمسلمين يدأ في صنع هذا الإنجيل لذكروه وحاولوا نشره وكان مشهوراً .

٤ - يذكر سايل انه مذكور في النسخة الاسبانية المفقودة انها مترجمة عن النسخة الايطالية وفيها مقدمة عن الراهب الذي اكتشف النسخة الايطالية والقصة هي ما يلي : ان الراهب اللاتيني فرامزينو عثر على رسائل لا يرينايوس وفي عدادها رسالة يندد فيها بالقديس بولص الرسول وان اريناياوس اسند تنديده هذا إلى إنجيل القديس برنابا فأصبح من ذلك الحين الراهب فرامرينو المشار اليه شديد الشغف بالعثور على الإنجيل واتفق انه اصبح حيناً من الدهر مقرباً من البابا سكتس الخامس فحدث يوماً انهما دخلا معاً مكتبة البابا فاخذت البابا سنة من نوم فأحب مرينو ان يقتل الوقت في المطالعة إلى أن يفيق البابا فكان

الكتاب الاول الذي وضع يده عليه هو هذا الانجيل نفسه فكاد ان يطير فرحاً من هذا الاكتشاف فخبأ هذه الذخيرة الثمينة في أحد ودنيه رلبث إلى أن استفاق البابا فأنشأذنه بالانصراف حاملاً ذلك الكنز معه فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم فاعتنق على أثر ذلك الدين الاسلامي .

٥ - ان الكتاب متماسك بشكل وحدة متكاملة ويدل على علم لا مثيل له في كتب العهد القديم وفيه من براعة الحججة ووضوح المسلك ودقة الخطاب وتوضيح خفايا في حياة المسيح عليه السلام وتشابه كثير بين بعض مقاطعه والأنجيل الأخرى كل ذلك يجعل احتمال نسبته إلى برنابا أكبر من أي احتمال آخر .

٦ - ان الكتاب لا يوجد فيه ما يشير إلى تأثيره بالمفاهيم الإسلامية بتاتاً ولا يوجد فيه ما يشم منه ان صاحبه قد قرأ القرآن أو عرف دين النبي محمد ﷺ مما يؤكد ان الكتاب لم يؤلفه مسلم وانه كتب قبل الاسلام .

٧ - والدارس للكتاب يرى ان له صولة في تهذيب النفس وترقيتها وبحس صدق العبارة وحرارة الاخلاص فيفتح له الكتاب افاقاً روحية لا يستطيع الانسان ان يتصور بعدها ان رجلاً اختلق هذا الكتاب كذباً وزوراً . وبعد هذه المقدمات ننقل فقرات من هذا الكتاب مما له علاقة ببحثنا من البشارات الصادرة على لسان المسيح به في رسالة رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام .

١ - في الفصل السابع عشر يقول ... ولكن سيأتي بعدي بها وكل الانبياء والاطهار فيشرق نوراً على ظلمات سائر ما قال الانبياء لأنه رسول الله أي يبين غامض اقوالهم .

٢ - في الفصل الثالث والاربعين يقول .. الحق اقول لكم ان كل نبي متى جاء فانه إنما يحمل لامة واحدة فقط علامة رحمة الله ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذي ارسلوا اليه ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو

بمثابة خاتم يده فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه وسيأتي بقوة على الظالمين ويبعد عبادة الاصنام بحيث يخزي الشيطان لأنه هكذا وعد الله ابراهيم قائلاً انظر فاني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض، وكما حطمت يا ابراهيم الاصنام تحطيماً، هكذا سيفعل نسلك اجاب يعقوب : يا معلم قل لنا بمن صنع هذا العهد فان اليهود يقولون باسحق واسماعيليون يقولون باسماعيل. اجاب يسوع ابن من كان داوود ومن أي ذرية : أجاب يعقوب من اسحق لأن اسحاق كان ابا يعقوب ويعقوب كان ابا يهوذا الذي من ذريته داوود . فحينئذ قال يسوع .. ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون أجاب التلاميذ من داوود فأجاب يسوع : لا تغشوا انفسكم لان داوود يدعو في الروح ربا قائلاً هكذا : قال الله لربي اجلس عن يميني حتى اجعل اعداءك موطئاً لقدميك يرسل الرب قضيبك الذي سيكون ذا سلطان في وسط اعدائك فاذا كان رسول الله الذي تسمونه مسيا ابن داوود فكيف يسميه داوود ربا صدقوني لأنني أقول لكم الحق ان العهد صنع باسماعيل لا باسحق ..

٣ - وفي الفصل الرابع والاربعين يقول : لذلك أقول لكم ان رسول الله بهاء يسر كل ما صنع الله تقريباً لانه مزدان بروح الفهم والمشورة روح الحكمة والقوة روح الخوف والمحبة روح التبصر والاعتدال ، مزدان بروح المحبة والرحمة ، روح العدل والتقوى روح اللطف والصبر التي اخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه ، ما اسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالم صدقوني اني رأيته وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبي لأن الله يعطيهم روحه نبوة ولما رأيته امتلأت عزاء قائلاً يا محمد ليكن الله معك وليجعلني اهلاً ان احل سير حداثك لأنني إذا نلت هذا صرت نبياً عظيماً وقدوس الله ...

٤ - وفي الفصل الرابع والخمسين يقول : فمتى مرت هذه العلامات تغشى العالم ظلمة اربعين سنة ليس فيها من حي إلا الله وحده الذي له الاكرام والمجد إلى الابد ومتى مرت الاربعون سنة يحيي الله رسوله الذي سيطلع ايضاً كالشمس

بيد أنه متألق كألف شمس فيجلس ولا يتكلم ... وسيقيم الله ايضاً الملائكة
الاربعة المقربين الذين ينشدون رسول الله فمتى وجدوه قاموا على
الجوانب الاربعة للمحل حراساً له ثم يحبي الله بعد ذلك سائر الملائكة الذين
يأتون كالنحل ويحيطون برسول الله ثم يحبي الله بعد ذلك سائر انبيائه الذين
سيأتون جميعهم تابعين لآدم فيقبلون يد رسول الله واضعين انفسهم في كنف
حماته ثم يحبي الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون أذكرنا يا محمد
فتتحرك الرحمة في رسول الله لصراخهم ١٧٠٠٠٠ ثم قال يسوع أرجو الله
ألا أرى هذه الهولة في ذلك اليوم إن رسول الله وحده لا يتهيب هذه المناظر
لأنه لا يخاف إلا الله وحده ٢١٠٠٠٠ عند ذلك يخاف رسول الله لأنه يدرك
أن لا أحد أحب الله كما يجب ٢٣٠٠٠ ولكن إذا خاف رسول الله فماذا يفعل
الفجار المملؤون شراً ...

٥ - في الفصل الثاني والثمانين يقول : ولكن صدقيني أنه يأت وقت
يعطي الله فيه رحمته في مدينة أخرى ويمكن السجود له في كل مكان يالحق
ويقبل الله الصلاة الحقيقية في كل مكان برحمته أجابت المرأة أننا ننتظر مسيا
فمتى جاء يعلمنا أجاب يسوع أتعلمين أيتها المرأة ان مسياً لا بد ان يأتي أجابت
نعم يا سيد حينئذ تهلل يسوع وقال : ويلوح لي أيتها المرأة انك مؤمنة فاعلمي
أنه بالإيمان بمسيا سيخلص كل مختاري الله إذن وجب ان تعرفي مجيء مسيا قالت
المرأة : لعلك أنت مسيا أيها السيد. أجاب يسوع إني حقاً أرسلت إلى بيت إسرائيل
نبي خلاص ولكن سيأتي بعدي مسيا المرسل من الله لكل العالم الذي لأجله خلق
الله العالم، وحينئذ يسجد لله في كل العالم وتنال الرحمة حتى ان سنة اليوبيل التي
تجيء الآن كل مئة سنة سيجعلها مسيا كل سنة في كل مكان .

٦ - وفي الفصل الثالث والثمانين (وبعد صلاة نصف الليل اقرب التلاميذ
من يسوع فقال لهم ستكون هذه الليلة في زمن مسيا رسول الله اليوبيل السنوي
الذي يجيء الآن كل مئة سنة لذلك لا أريد أن ننام بل أن نصلي) ولعله

أراد بهذه الليلة ليلة القدر أو ليلة براءة أي ليلة النصف من شعبان وعلى هذا نفهم أن تجلياتها كانت مرة كل مئة سنة من قبل وعلى هذا نفهم الكلمة .. إن سنة اليوبيل التي تجيء الآن كل مئة سنة في الفقرة السابقة ، ان المقصود منها اصلاح خاص بهذه الليلة والله أعلم .

٧ - الفصل السادس والتسعين اجاب يسوع : لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي أني لست مسيا الذي تنتظره كل قبائل الارض كما وعد الله أبانا ابراهيم قائلاً بنسلك ابارك كل قبائل الارض ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة اخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنني الله وابن الله فينجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الاشياء لاجله الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الاصنام وعبداء الاصنام وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً .

٨ - في الفصل السابع والتسعين : فقال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى مسيا وما هي العلامة التي تعلن مجيئه ؟ اجاب يسوع : إن اسم مسيا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي قال الله : إصبر يا محمد لأنني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجملاً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركاً ومن يلعنك يكون ملعوناً ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهان ولكن إيمانك لا يهن إن اسمه المبارك محمد .

هذه شذرات مما ورد في هذا الكتاب وإذا ثبت أن الكتاب كان موجوداً قبل الإسلام فقد ثبت عندئذ أن ذلك مما بقي صحيحاً من آثار عيسى والله أعلم .

٧

ونختم البحث بنصين كل منهما يدل بما لا يقبل الشك ان النصراني أثناء

بعثة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا ينتظرون رسولا أو صافه
هي نفس أوصاف السيد الرسول ﷺ :

١ - قصة سلمان الفارسي الذي هرب من الأرض الفارسية باحثاً عن
الدين الحق : يقول سلمان لما قدمت الشام قلت من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا
الأسقف في الكنيسة قال فجئته فقلت إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن
أكون معك أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك قال فادخل فدخلت
معه ، قال فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا له أشياء
اكتنزها لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق قال :
وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه
فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصلقة ويرغبكم فيها فإذا
جثتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً قالوا : وما علمك
بذلك ! قال : قلت أنا أدلكم على كنزها فدلنا عليه قال : فأريتهم موضعه قال
فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً قال فلما رأوها قالوا : والله لا
ندفنه أبداً فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ثم جاؤا برجل آخر فجعلوه مكانه قال :
يقول سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد
في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه قال : فأحبته حباً لم
أحبه من قبل وأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة فقلت له يا فلان إني كنت
معك وأحببتك حباً لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله فإلى
من توصي بي وما تأمرني : فقال يا بني والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت
عليه فقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل
وهو فلان فهو على ما كنت عليه فالحق به . قال فاما مات وغيب لحقت
بصاحب الموصل فقلت له يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن الحق بك واخبرني
إناك على أمره قال فقال لي : أقم عندي فأقمت عنده فوجدته خير رجلاً على
أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له يا فلان إن فلاناً أوصى
بي إليك وأمرني بالحق بك وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى فإلى من

توصي بي وما تأمرني : قال يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فبعثته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي قال فأقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فأبى من توصي بي وما تأمرني : قال : أي بني والله ما نعلم أحداً بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه بمثل ما نحن عليه فإن أحببت فأته قال : فإنه على أمرنا. قال فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبري فقال أقم عندي فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم قال واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة قال : ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له يا فلان اني كنت مع فلان فأوصى بي فلان إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فأبى من توصي بي وما تأمرني : قال أي بني والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. والرواية متصلة السند رواها عدول .

٢ - وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس (رض) قال.. حدثني أبو سفيان بن حرب قال : انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ إلى الشام فبينما أنا بها إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل جاء به دحية الكلبي فدفعه إلى عظيم بصري فدفعه إلى عظيم الروم هرقل فقال هرقل : هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي قالوا نعم : فدعيت في نفر من قريش فدخلنا عليه فاجلسنا بين يديه فقال : أيكم أقرب نسباً منه فقلت أنا فأجلسني بين يديه وأصحابي خلفي ثم دعا بترجمانه فقال : فل لهؤلاء إني سائل هذا عن

هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي فإن كذبي فكذبوه. قال أبو سفيان وأيم الله لولا أن يؤثر علي الكذاب لكذبته ثم قال لترجمانه سله كيف نسبه فيكم ، قلت هو نينا ذو نسب ، قال فهل كان من آبائه من ملك ، قلت لا. قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال : قلت لا . قال فهل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم قال : بل ضعفاؤهم قال : أيزيدون أم ينقصون : قلت لا. بل يزدون قال هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطه له قلت لا. قال فهل قاتلتموه قلت نعم قال : كيف قتالكم إياه : قلت تكون الحرب بيننا وبينه سجالا يصيب منا ونصيب منه. قال فهل يغدر قلت لا. ونحن منه في هذه المدة ما ندري ما هو صانع. قال أبو سفيان فوالله ما أكنني من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه قال فهل قال هذا القول أحد قبله قلت لا. فقال لترجمانه قل له إني سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها . وسألتك هل كان في آبائه ملك فزعمت أن لا فقلت لو كان في آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم فقلت بل ضعفاؤهم وهم اتباع الرسل وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى. وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطه له فزعمت أن لا فكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب وسألتك هل يزدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم سجالا ينال منكم وتنالون منه وكذلك الرسل تبلى ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله فزعمت أن لا فقلت لو قال هذا القول أحد قبله قلت رجل اثم يقول بقول قيل قبله ثم قال بم يأمركم قلنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف فقال إن يك ما تقول حقا فإنه نبي وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم. ولو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه وليلغزأه. إياك ما نحت

قدمي ثم دعا بكتاب رسول الله فقرأه فاذا فيه ... فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الاصوات عنده وكثر اللغط فأمر بنا فأخرجنا فقلت لأصحابي لقد أمر أمرا بن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الاصمير .

٨

وأخيراً سأل الشيخ عبد الوهاب النجار مؤلف كتاب قصص الأنبياء الدكتور (كارلو نلينو) المستشرق الإيطالي عن كلمة (بير كليتوس) الواردة في الاناجيل : فأجابه بقوله : ان القسس يقولون ان هذه الكلمة معناها (المعزي) فقال له اني أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل على الدكتوراة في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست اسأل قسيساً فقال : إن معناها الذي له حمد كثير فسأله أيضاً : هل ذلك يوافق أفعال التفضيل من حمد فقال : نعم وهذا ما جاء في القرآن على لسان المسيح :

« ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد »

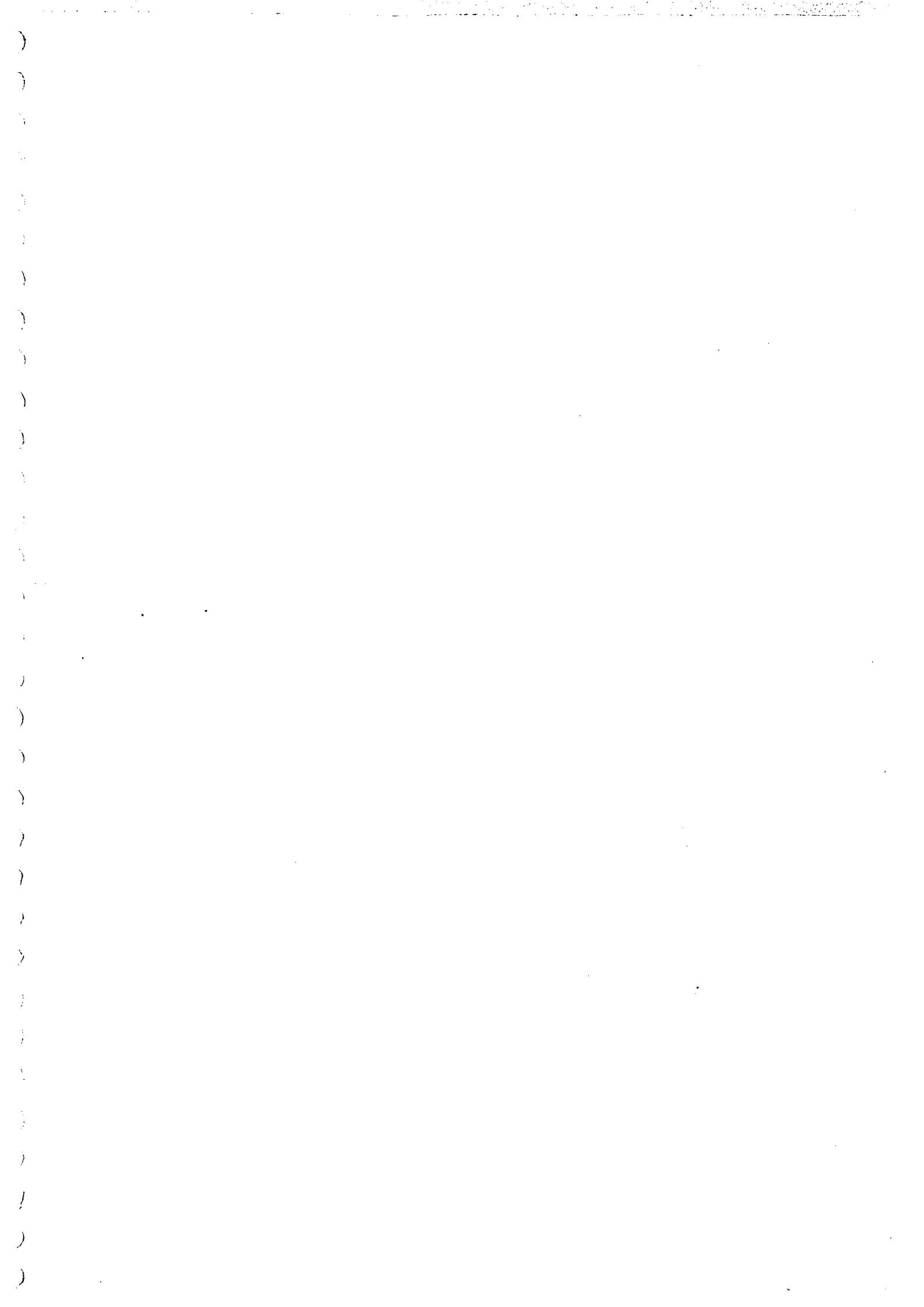
عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (من قال رضيت بالله تعالى ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً وجبت له الجنة) أخرجه أبو داود .

وإذا مر معك في المبحث الأول عن الله ما أثلج ضميرك يقيناً نهيب بك أن ترضى بالله رباً .

وإذا مر معك في المبحث الثاني عن الرسول ما أثلج صدرك يقيناً نهيب بك أن ترضى به رسولا .

وها نحن سنبدأ بعرض الإسلام دين الله الذي بلغه لنا رسول الله في المبحث الثالث ونهيب بك ان ترضاه ديناً .

لتكون بعد هذا كله أهلاً لنيل رضوان الله وجنته ولتنجو بهذا من سخط الله وعقوبته والله ولي أمرنا وأمرك .



الفهرس

الصفحة

٥	الفصل الثاني : المعجزات
٦	الفقرة الأولى : المعجزة القرآنية
١٥	المثال الأول : سورة (ق)
١٩	المثال الثاني : سورة الواقعة
٢١	المثال الثالث : سورة الأنبياء
٣٠	وحدة القرآن المنتظمة المترابطة
٣٨	خصائص القرآن (ربانية المصدر)
٥٠	كلام القرآن الكريم عن الماضي والمستقبل
٦١	صحة القرآن الكريم وتحريف الكتب السابقة
٧١	لغة القرآن الكريم وأساوبه
٨٤	الفقرة الثانية : معجزات أخرى
١١٧	تعقيب
١٢١	الفصل الثالث : النبوءات
١٤٣	الفصل الرابع : الثمرات
١٤٤	أولاً : التوحيد
١٤٦	أ - عند العرب
١٤٧	ب - عند الهنود
١٤٧	ج - الفرس
١٥١	ثانياً : التبشير باليوم الآخر وطلب النجاة فيه...

١٦٨	ثالثاً : انسانية واحاة كريمة
١٦٨	١ - في الهند
١٧٠	٢ - في فارس
١٧١	٣ - اليونان والرومان
١٧١	٤ - في ألمانيا وأمريكا وجنوبي أفريقيا
١٨٠	رابعاً : المسؤولية الفردية
١٨٦	خامساً : العدل
١٩٨	سادساً : الطاعة المبصرة
٢٠٤	سابعاً : أجيال خيرة جريئة بالحق
٢١٤	ثامناً : دولة هداية لا جباية
٢١٩	تاسعاً وعاشراً : جهاد وحرية
٢٢٧	الفصل الخامس : البشارات
٢٤٤	البشارة الأولى
٢٤٧	البشارة الثانية
٢٤٨	البشارة الثالثة
٢٤٩	البشارة الرابعة والخامسة
٢٥٠	البشارة السادسة
٢٥٣	البشارة السابعة والثامنة
٢٥٥	البشارة التاسعة
٢٥٧	البشارة العاشرة
٢٥٨	البشارة الحادية عشر
٢٥٩	البشارة الثانية عشر
٢٦٠	البشارات : الثالثة عشر والرابعة عشر والخامسة عشر
٢٦٢	البشارة السادسة عشر
٢٦٤	البشارة السابعة عشر والثامنة عشر